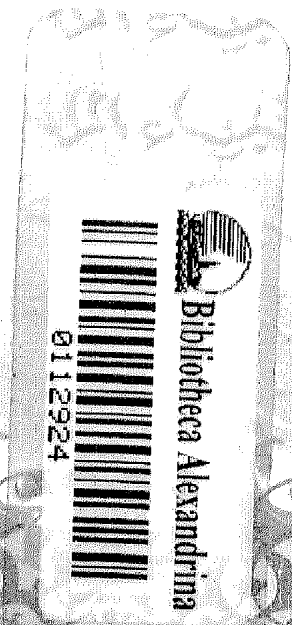


أَنْبِيَاءُ اللَّهِ



فضيلة الشيخ الإمام

محمد متولى الشعراوى



رئيس مجلس الإدارة: إبراهيم سـعد

مطبوعات مايو

النير العام

علوى عامر

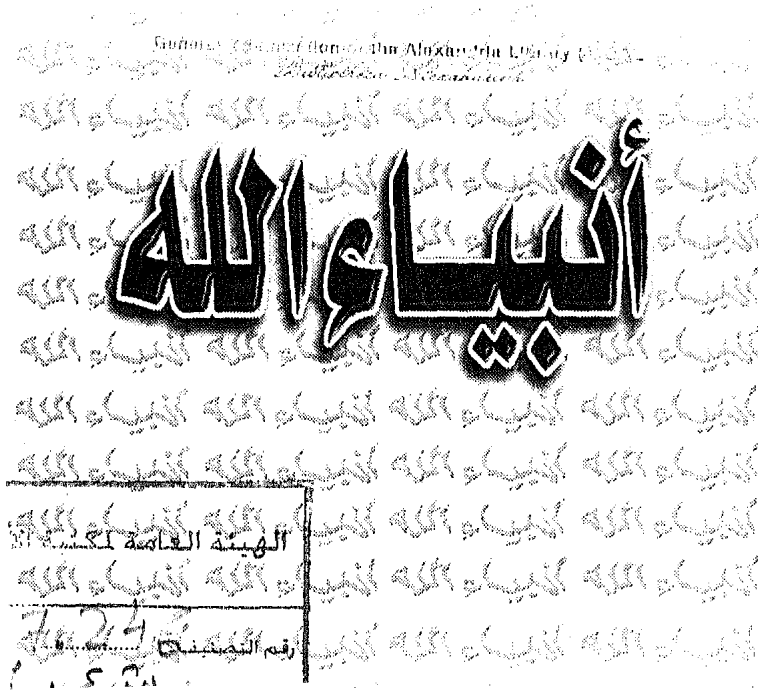
دار مايو الوطنية للنشر

١٦ شارع المنتزة - الزمالك - القاهرة

ت: ٣٤٠٩٩٠٠ / ٣٤٠٩٩٠٩ / ٣٤٠٩٩٠٧

ص.ب: ١١٢٥ الجيزة FAX: 3409046

تصميم الغلاف: اسامة أحمد نجيب



فضيلة الشيخ الإمام
محمد متولى الشعراوى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الله سبحانه وتعالى حتى يهدى الناس ويعرفهم المهمة التي خلقوا من أجلها كان لا بد أن يرسل إليهم رسلاً بالمنهج الذي يريده وبغير هذه الطريقة ، وبدون الرسل لم يكن من الممكن للعقل البشرى أن يهتدى إلى مرادات الله من خلقه فجاءت قصص القرآن الكريم لا تتناول أشخاصاً بذاتهم وإنما هي عبرة عامة وموعظة تتكرر ، ففرعون هو كل شخص يريد أن يجعل نفسه إلهاً يعبد في الأرض ، وذو القرنين مثلاً هو من يريد إصلاحاً في الأرض ، وصاحب الجنة في سورة الكهف هو كل من ينسى الله وينسب الفضل لنفسه لذلك فإنه من العبث أن يجهدوا أنفسهم في البحث عن فرعون موسى ، أو من هو ذو القرنين ذلك علم لا ينفع وجهلاً لا يضر ، فما الذي يتغير في قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا إن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثاني أو الثالث ، ليس هذا هو المهم ، ولكن المهم أن نعرف العظة مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلهاً من دون الله في الأرض ، وما يتعرض له الذين يتبعون بغير علم ، فإننا يجب أن نستخلص العبرة والعظة من القرآن الكريم .

وحين يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] .

هذا القول إنما هو لإيضاح مهمة القصص في الحياة : أن يثبت بها الفؤاد على منطلق ينفع حركة الحياة ، لا على منطلق يضر حركة الحياة وتثبيت الفؤاد هو المهمة التي من أجلها جاءت بعض لقطات سور القرآن وهي تحتوى على ما يظنه السطحيون تكراراً لكنه ليس تكراراً ، إنما هو تثبيت للفؤاد ؛ ذلك أن

الفؤاد عرضة لأن يهتز بالأحداث فيأتي قصص القرآن لتثبيته ، لقد كانت الرسالة المحمدية تمر بمواقف عجيبة وصعبة ، وكان لا بد من استخدام قصص الأنبياء كلقطات متفرقة شاء الحق أن يضرب بها المثل ويوضح للمؤمنين أن طريق نشر الحق يحتاج إلى صبر وكفاح فكان الهدف شد أزر المؤمنين وإيضاح المعلومات التي كتّمها الذين عرفوا الكتب السماوية وأخفوا بعضاً منها وحرفوا فيها ؛ لذلك كانت الآيات الكريمة لتصحیح ما أفسد الآخرون ولتثبت قلوب المؤمنين فإذا ما ذكر الله في القرآن الكريم أنباء الرسل والصعاب التي تعرضوا لها والأحداث التي مروا بها تهون عليهم مصائبهم ؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود : ١٢٠] . والفؤاد هو القلب وهو وعاء العقائد ، فالفؤاد هو الوعاء القابل للمعلومات . وفي قضايا الحق لا بد أن يكون الفؤاد ثابتاً لا يهتز ، إذن .. لا بد أن يأتي الحق قبل الموعظة .

والله سبحانه وتعالى هو الحق الثابت الذي لا يتغير فما جاء منه من تكليف فعليك تنفيذه لأنه صادر من الله وإذا أردنا أن نضرب مثلاً - والله المثل الأعلى - إنك إذا مرضت تبحث عن أمهر الأطباء في معالجة هذا المرض وبعد أن تستقر عليه وتثق به تنتهي مهمة عقلك فما قاله الطبيب تنفذه . فإذا سألك أحد : لماذا ؟ تقول : الطبيب قال ذلك . فيسكت الجميع ، فإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لبشر فما بالك بالحق تبارك وتعالى !!

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ٦٢] .

إن قول الحق : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ يلفتنا أن ما يرويه الحق لنا ليس حكاية أو حدوده ، أو مزج خيال بواقع ، كما حدث في العصر الحديث

عندما أخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث القادم من حضارة الغرب ، فالقصة فى مفهومهم يلعب فيه الخيال دوراً كبيراً لكن لو فهمنا اشتقاق كلمة « قصة » نجد أنها مأخوذة من قص الأثر أى تتبع الأثر ، والقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا تخيلات .

فقصص الأنبياء فى القرآن هى قصص واقعية لأنها من كلام الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يقوله الحق لخلقه ليسيروا على المنهج ، وبين ما يرويه الخلق لبعضهم للتسلية والتى تزدحم فى كثير من الأحيان بخيال البشر كروايات جورجى زيدان عن الإسلام ، ولو سئل لماذا أضاف من عنده إلى الوقائع ؟ أجاب بقوله : « فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية » وبذلك نعرف الفرق الشاسع بين قصص الخلق وقصص الحق .

قال جلّ وعلا : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] . لماذا يقص الحق على رسوله أحسن القصص ؟ لأن رسول الله ﷺ سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل ، وكان لا بد أن يقول الحق سبحانه للرسول ﷺ ولأمته من خلاله .

لقد حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت داءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا ، ولأن الرسول محمد ﷺ موكول إليه علاج كل أجناس البشر ، وكذلك أمته من بعده لذلك كان لا بد أن يعرفوا أخبار الأمم السابقة ، وموقفهم من رسلهم .

إذن .. القصص القرآنى جاء ليوضح لنا التطبيق العملى للجانب النظرى من الدين ، وقد طبقه الرسل ومن تبعهم ، وأنتم يا أمة الإسلام خير أمة أخرجت

للناس ، لذلك عليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾
ولسائل أن يسأل : ما الفرق بين الرسول والنبي : نقول : الأنبياء أرسلهم الله ليكونوا نموذجًا تطبيقيًا للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره سبحانه بتبليغه .
إذن .. إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل سبحانه الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسلت به الرسل .



نبى الله آدم عليه السلام

قصة آدم عليه السلام جاءت أول ما جاءت فى سورة البقرة وهى ثانى سورة ترتيبية فى القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَآءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَكَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَقُلْنَا يَتَكَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤١﴾ فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّسَ قَنَاطًا عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيٰتِنَا أُولٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة] .

إن اللقطات التى ترويها سورة البقرة عن آدم عليه السلام تتحدث عنه

بما يلى :

○ أول بلاغ من الله عنه قبل أن يخلقه .

- الحوار الذى بين الملائكة وبين الله سبحانه وتعالى بشأن خلق الخليفة .
 - أن آدم هو خليفة عن الله فى الحكم بين خلقه فى الأرض .
 - أن الله علم آدم الأسماء كلها ليسوس حركة الحياة .
 - أن إبليس أبى واستكبر على السجود فكان من الكافرين .
 - أن آدم سكن الجنة للتدريب على مهمة الخلافة فى الأرض .
 - أن الشيطان توعد آدم وذريته بالانتقام منهم .
 - أن آدم بمعصيته خرج من الجنة وتلقى كلمات من ربه ليتوب عليه .
- وعلى ذلك فالإنسان عندما يريد أن يؤرخ لقصة آدم لا بد أن يستوعب كل تلك اللقطات واللقطات التى جاءت فى السور الأخرى .

ولنرى كيف جاءت اللقطات عن آدم عليه السلام فى سورة الأعراف : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٨﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمِن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٤﴾ وَكَأَدُمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَوَسَّوَسَ لهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٧﴾ فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا

سَوَاءٌ لَّهُمَا وَطْفِقًا يَخِصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٦﴾ يَبْنِي ءَادَمَ فَذَٰ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِيَأْسَ الْتَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٧﴾ يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تِهِمَا إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ [البقرة: ١٣-١٨]

- بداية الآيات تتضمن خطاباً للبشر جميعاً فالأصل في الخلق هو آدم ، وآدم مطمور فيه كل نسمات المخلوقين إلى أن تقوم الساعة .
- نتعرف على جنسية الشيطان أنه من نار وأن الإنسان من طين .
- أن الشيطان سيقف للبشر على الصراط المستقيم وحددت السورة الجهات التي يأتي منها الشيطان ليهاجم الإنسان من الأمام والخلف والشمال واليمين ولم يقل الأعلى أو الأسفل .
- تحدد كيفية الإغواء الأول لآدم وزوجه عن طريق الحرص على نعمة الحياة وهي الخلود والسيادة والإستمتاع عن طريق الأكل من الشجرة المحرمة .
- خروج الشيطان مذموماً مدحوراً من رحاب الله ، وأنه هو وسلالته سوف يقدرّون على رؤية البشر بخاصية خلقهم .
- تحدد كيفية توبة آدم وزوجه بعد أن غرر بهما الشيطان فرأى كل منهما سوءات نفسه .

١١ . نبي الله آدم

○ تحدد لقطات سورة الأعراف كيف خلق الله للإنسان من الوسائل ليوارى سوءاته ويحذرنا الخالق أن الشياطين هم أولياء الذين لا يؤمنون وأن التقوى هي لباس المؤمنين .

وهكذا نرى أن اللقطات التي جاءت في سورة « الأعراف » اختلفت عن لقطات سورة « البقرة » ، أضافت لنا معرفة أكثر بتفاصيل قصة آدم . وهكذا نجد أن التكرار يتضمن مغزى ومعنى وهدفاً .

وعندما تتأمل اللقطات التي تأتي في سورة « طه » عن خلق آدم نجدها توضح المزيد من سلوك آدم وذريته . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ ۝ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۖ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۖ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۖ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخَالِدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ۝ ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ ۝ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۖ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۖ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ۖ ﴿ [طه] .

والم تأمل لتلك الآيات التي تصور بعضاً من لقطات قصة آدم يجد ما يلي :

○ أن القرآن كمنهج مهيمن على حياة الإنسان في ذلك الكون يوضح له بالبيان مافى الآخرة من الوعد والوعيد لعل الأنسان يجد فيه العظة والعبرة .

○ أن الخالق منزّه عن التشبيه بالخلق فهو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وهو سبحانه المالك لكل أسباب الخلق .

○ أن آدم قد تلقى من ربه الوصية بألا ينسى وألا يخالف أوامر الحق تبارك وتعالى . ولكنها غفلة أصابته فنسى ما عاهد عليه الله ولم ينتبه الى التحذير الواضح بأن العداوة سابقة بينه وبين الشيطان ، ذلك الشيطان الذى رفض السجود لآدم بعد أن أتم الله خلقه .

○ لقد كان التحذير واضحاً وجلياً لآدم بأن الشيطان عدو لهما لكنه وسوس لهما فكان سبباً لخروج آدم من الجنة .

○ أن منهج الله يهدى الى الرشاد فمن اتبع المنهج فلا خوف عليه من الضلال أو من الشقاء .

○ أن من يتعد عن منهج الحق فسوف يجد الضنك فى حياته ، ولا يرى بالبصيرة ما أعطاه الله له من نعم الحياة ، ثم العذاب فى الآخرة .

ولنقرأ لقطات جديدة فى قصة آدم عليه السلام ، والتي وردت فى قول الله

تعالى فى « سورة الحجر » يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ١٥ وَالْبَآنَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ١٦ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ١٧ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ١٨ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ١٩ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٢٠ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٢١

نى الله آدم ١٣

﴿٧٦﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ
 مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي
 إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٢﴾
 قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ
 مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
 عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
 لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٨٨﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ ﴿٨٩﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٩٠﴾ ﴿الحجر﴾ .

وبهذا القول الكريم عن قصة خلق آدم تكتمل اللقطات وتخبرنا هذه الآيات :

○ أن الإنسان خلق من حمأ مسنون بينما الشيطان خلق من نار السموم .

○ أن الشيطان ملعون ورجيم إلى يوم الدين ، وأنه توعد آدم وذريته بالغواية
 ليكون مصيرهم باب من أبواب جهنم السبعة .

○ أن عباد الله المخلصين لن يجرؤ الشيطان على غوايتهم ، وتقواهم تفتح لهم
 أبواب الجنة .

○ أن إبليس بعدم سجوده يكون رد الأمر على الأمر سبحانه وذلك الكفر في
 قمته ، لذلك فهو إمام الغاوين .

إن آدم تُخلق بيد الله مباشرة ، وذريته خلقت بقانون الخلق ، وهو أن يجتمع
 رجل وامرأة ليتم الخلق وفقاً لسنة الله في خلقه وفي ذلك يقول الحق سبحانه
 وتعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [ص : ٧٢] .

إذن .. فالتسوية من عند الله والروح من عند الله ولذلك يقول الحق سبحانه

وتعالى لإبليس : ﴿ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾ [ص : ٧٥]

نبي الله آدم

أى : أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر ولكنه مخلوق بيد الله مباشرة وكان أول تكليف له من الله فى الجنة التى عاش فيها . وهو أن يأكل من كل شىء ما عدا شجرة معينة أى أن المباح كثيراً جداً .

إذن .. فالتكليف : أمر بفعل ، ونهى عن فعل ، وبما أن آدم مخلوق بيد الله فهو مكلف تكليفاً مباشراً من الله ، وكان التكليف بأمر واحد فقط وليس بأشياء كثيرة حتى ينسى هذا ويتذكر هذا .

الله سبحانه وتعالى حين ينثر الأدلة على عظمة خلقه وحكمته فى الكون لا يعطيك الأدلة من خارج نفسك فقط ولكنه يعطيها لك أولاً من داخل نفسك حتى لو كنت معرضاً عن آيات الكون فإنك لا تعرض عما فى داخل نفسك ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [النار: ٢١] .

أى انظر إلى الآيات التى فى نفسك . فالروح هى التى تعطى الحياة للجسد ولا يستطيع أحد أن ينكر وجود الروح لأنها دليل الحياة فمتى خرجت جاء الموت وانتهت الحياة . ومع أنك تدرك يقيناً أن الروح فى جسدك فإنك لا تستطيع أن تدركها ... أين هى الروح ؟ هل هى فى العقل الذى يفكر ؟ هل هى فى الدم الذى يتدفق فى الشرايين ؟ أم هى فى القلب الذى يدق ؟ إنها داخل جسدك ولكنك لا تعرف عنها شيئاً .

إذا كان سر الحياة الذى وصفه الله سبحانه وتعالى داخل جسدك لا تدركه مع أنك تعرف يقيناً أنه موجود فلا تتعجب إذا كان هناك خلق خارج جسدك لا تدركه وإذا حدثك الله سبحانه وتعالى عن هذا الخلق فأمن أنه موجود والدليل من داخل نفسك والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] .

اللّٰه سبحانه وتعالى أخبرنا بأننا خلقنا من آدم ، ونحن جميعاً ذرية آدم ،
وآدم خلقه اللّٰه تعالى من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وقال للملائكة :
﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢] هؤلاء
الملائكة الذين شملهم أمر السجود هم المخصصون لخدمة آدم على الأرض
منهم المدبرات أمرا ومنهم الحفظة وغيرهم ، الحق تبارك وتعالى أراهم الإنسان
الذي سيكونون في خدمته وعرفوا منزلته العالية عند اللّٰه ، واللّٰه جل جلاله
خلق الإنسان من تراب ووضع عليه ماءً فصار طيناً ، ثم تركه فصار صلصالاً
كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح .

هذه هي قصة خلق الإنسان الأول فإذا أراد اللّٰه سبحانه أن يهدم هذا
الإنسان بالموت فأول ما ينقض منه هي الروح آخر ما دخل في الجسم فتكون
أول ما يخرج لأن نقض الشيء يكون على عكس بنائه . فأنت حين تبدأ
بالبناء تبدأ بالدور الأول ثم تملو حتى تصل إلى الأخير . فإذا أردت أن تهدم
هذا البناء تبدأ بالدور الأخير آخر ما وصلت اليه في بنائك .

كذلك الموت وهو نقض للحياة فإن آخر ما دخل في الجسد هو الروح
لذلك تكون أول ما يخرج منه ، ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصبح كالفخار
ثم يتعفن فيصبح كالحمأ المسنون ثم يُرم فيصير طيناً ثم يخرج منه الماء فيصير
تراباً ليرجع إلى الأرض مرة أخرى . إذن فالموت دليل على مراحل الخلق التي
أخبرنا بها اللّٰه سبحانه وتعالى ونحن لم نشهد الخلق ولكن نشهد الموت كل
يوم فعندما أرى الموت أمامي عكس بناء الحياة أقول صدقت يا ربّي فيما
أخبرتنا عن الخلق .



خلق البشرية مع آدم

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۗ ﴾ [الأعراف : ١٧٢]

فكل واحد منا فيه جزيء من آدم ما زال حياً لم يصبه الفناء ولو أننا أعطينا العلم والخبرة ساعة خلق آدم وأخذنا من الحيوان المنوى الموجود في ظهره ثم كبرناه ملايين المرات وعرفنا سر الشفرة فيه لأستطعنا أن نعرف كل من سيأتي من البشر بعد آدم وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] .

معناه : أنه قدر خلق كل واحد فينا وتكوينه وأودعه في هذه الحيوانات المنوية التي خلقت من ظهر آدم وكل عملية بعد ذلك هي تكبير لهذه الجزئيات الصغيرة حتى تصل إلى الحجم الذي يمكنها من إيجاد الحياة ولذلك فإن الخلق أمور الله يديها ولا يبتديها بمعنى أنها كانت مطمورة في ظهر آدم ثم بعد ذلك يبدأ الله يظهرها فقط . ولذلك عندما يخاطب الله آدم فهو يخاطب معه ذريته الموجودة في ظهره . وهكذا نكون قد عرفنا لماذا استخدم الحق سبحانه صيغة الجمع في قوله : ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ .



تعليم آدم الأسماء

يقول الحق : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَادُمُ أَنْبِئْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة] .

البعض يتساءل هل تعلم آدم الأسماء فقط أم تعلم الأفعال والحروف أيضاً ؟ وللإجابة على ذلك نقول : إن آدم تعلم الأسماء لأن كل تعلم يبدأ من الإسم فكلمة الإسم تطلق على مضمون الفعل ومضمون الحرف . إن الإسم هو الموجود حتى على الحرف ، فالتعليم يبدأ بالنسبة للإنسان عن طريق معرفة مطابقة الكلمات على الأشياء أى أن التعليم فى كل اللغات يبدأ من تعلم الأسماء .

وهكذا كانت اللغة إعانة لآدم ولذريته من بعده ليستخدموا اللغة والمسميات ويتعرفوا على بديع صنع الله فى الكون .

إن اللغة التى علمها الله للإنسان هى التى جعلته يتحرك ويتقدم ويكتشف ، واللغة هى التى تجعل الوليد يحاكي أباه ويتعلم منه .

وهكذا نعرف أن المعلم الأول لآدم عليه السلام هو الخالق الأكرم .



جنة آدم

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَبَنَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] كثير من العلماء وهم جمهور المفسرين قالوا : إن المقصود بالجنة هي جنة الخلد في الآخرة وهنا حدثت إعتراضات ، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين لله وهو عاص ؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلود ثم يخرج منها ؟ مع أن الله قد كتب أن كل من يدخلها خالد فيها .

يجب أن نتنبه إلى أن الجنة التي عاش فيها آدم ليست هي جنة الخلد ، لأن الحياة في جنة الخلد لا تأتي إلا بعد التكليف فهي جزاء لإتباع منهج الله وليست سابقة على هذا المنهج كما أن جنة الآخرة هي جنة الخلد من يدخلها لا يخرج منها أبداً و آدم مخلوق للأرض ، إذن .. فالجنة التي عاش فيها آدم هي مكان أعده الله سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج .



التكليف

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ رمز لنواهي التكليف بألا نفعل : وذلك بألا تقترب مما حرمه الله فتميل النفس اليه وتقع في الإغراء والمعصية . ويلاحظ في قمة العقيدة أن الله سبحانه وتعالى يطالبنا ألا نقترب منها فيقول : ﴿ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] ولم يقل لا تعبدوا الأوثان ، فلو قالها لكان مباحاً لنا أن نذهب إلى الأماكن التي تُعبد فيها الأصنام وأن نجلس فيها وربما أوقعنا هذا والعياذ بالله في عبادة الأصنام ولذلك قال الحق : ﴿ فَأَجْتَنِبُوا ﴾ أى إبتعدوا عنها تماماً .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . الظلم هو تجاوز الحد أو تجاوز الحق فكأن الله سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه : أنا لم أجعل لكما حقاً فى أن تقربا هذه الشجرة ، فإذا أقتربتما منها تكونان من الظالمين لأن الله لا يظلم أحدا . ولكن الإنسان هو الذى يظلم نفسه بأن يعطيها شهوة عاجلة فى زمن محدود ليصيبها بعد ذلك عذاب أليم فى زمن بلا حدود . وبذلك يكون الإنسان قد ظلم نفسه بحرمانها من نعيم خالد بتحقيق شهوة عاجلة .



غواية الشيطان لآدم وزوجه

وقال الله تعالى : ﴿ فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ ﴾ كلمة : « وسوس » تدل على الهمس ، فالذى يتكلم ويأمر بخير لا يخشى أن يسمعه الناس . والذى يتكلم فى شر يتحدث فيه بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد .

والوسوسة : هى : رنين الذهب والحلى ، والإغراء هنا ملازم للوسوسة . لأن الله حين يأمر بشيء ثم يأتى إنسان ويحاول أن يجعلك تفعل ما لم يأمر به الله فلا بد أن تكون هناك إغراءت ، هذه الإغراءت لازمة ليخرج الناس عن منهج الله ، فكيف تم إغواء آدم ؟ وما هى طريقة الشيطان فى الغواية ؟ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

إذن .. حاول الشيطان أن يأتى من الجانب الضعيف للإنسان ، فالإنسان يريد أن يخلد ويكره الموت .. يريد أن يحيا بلا نهاية ؛ ولذلك كان مدخل إبليس اللعين أن قال لهما - لآدم وحواء - : إذا أكلتما من هذه الشجرة ستصبحان ملكين خالدين .

ولأمر قدره الله تعالى دخلت الغفلة على قلبى آدم وحواء لأنه لو كان هذا صحيحاً لأكل الشيطان من الشجرة وأصبح خالداً ولم يقل لله : ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وكان مما خدع آدم وحواء أن أقسم بالله كذباً ، قال تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

فكان إبليس قد أقسم لآدم وحواء ليصدقاه . أى أن ما أقوله لكما هو نصيح لخيركما وكان لابد ألا تكون هناك غفلة من آدم فيخدع لهذا القسم لأن الله

أمره ألا يقرب هذه الشجرة فإذا جاء إبليس وأغراه بمخالفة أمر الله فلا يأخذ هذا على أنه نُصح لصالحه إنما يقارن بين الأمر هنا والذي يدعى النصيحة وحينئذ سيكتشف أن هذه ليست نصيحة ويكتشف أنها تزيين لمعصية .

○ ○ ○

كفر إبليس

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقَنِي مِن
نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] . هذا القول دليل على أن أمر السجود
يشمل إبليس . فجاء الرد من إبليس : كبراً ومعانده لأن الله هو الذى خلق ،
وهو سبحانه وتعالى الذى يعرف من هو خير ممن . ولكن إبليس أراد أن يعدل
الأمر على الله ويرد الأمر على الخالق بينما هو مخلوق فكأنه والعياذ بالله
يخطيء سبحانه وتعالى فى أمره ويقول له كيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى .
وكان لابد لإبليس أن يفهم أن النار ليست خيراً من الطين والطين ليس خيراً
من النار وأن الذى يؤدى مهمته هو الأعلى .

○ ○ ○

مكان جنة آدم

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَهْبِطْ مِنْهَا ﴾ الهبوط معناه : الانتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى . وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك بأن الجنة التي وجد فيها آدم وإبليس كانت في أعلى عليين ولكننا نقول : إن الهبوط لا يستدعي مكاناً أعلى ومكاناً أسفل فهناك فرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة . لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ [البقرة : ٦١] لم يكن بنو إسرائيل يعيشون في مكان ما في السماء بل كانوا فوق الأرض . فالهبوط هنا هبوط مكان ومكانة .



توبة آدم

ماذا قال آدم وحواء حينما إعترفا أمام الله بأنهما ارتكبا المعصية وخالفا أوامر الله هل أصرا على المعصية ؟ هل حاولا أن يردا الأمر على الأمر ويقولوا يا ربنا حكمك ليس عدلاً كما فعل الشيطان ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ لم يفعلوا ذلك ولكنهما إعترفا بذنبيهما وطلبا المغفرة والرحمة من الله وقالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

تلك هي الكلمات التي جاءت في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَالْقَوْلُ إِدَادٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : ٣٧] .

وهذه الكلمات هي اعتراف بالذنب ، واعتراف بأن الله حق وقوله حق ، وأنهما لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على إتباع المنهج فظلما نفسيهما ثم طلبا من الله المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين .

وهكذا تأمى إبليس على أوامر الله فكان جزاؤه الطرد من رحمة الله ، وآدم وحواء إعترفا بذنبيهما وأنهما ظلماً نفسيهما فتقبلت توبتهما ؛ لذلك فإننا ننبه الناس الذين تضطربهم ظروف حياتهم إلى إقرار بعض المعاصي بقول لهم : لا تحاولوا أن تبرروا المعصية برد الأمر على الله وأن تقولوا : تغيرت الظروف أو هذا هو النظام الآن أو أن الوقت غير الوقت .

فمثلاً .. الذين يقولون إن الربا ليس حراماً وأنه نظام عالمي وأن الدنيا كلها تتعامل به نقول لهم : لا تخرجوا أنفسكم من منطقة رحمة الله إلى منطقة الطرد من رحمته . قولوا : نحن نسلم يا رب أنه حرام ولكننا لا نقدر على

أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا ، وفي هذه الحالة تكون قد اتهمت نفسك بالضعف والغفلة والظلم ، وتصبح أهلاً للتوبة والمغفرة ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إن الربا ليس حراماً ، هنا تكون قد خرجت من منطقة الإيمان إلى منطقة الكفر ولذلك فخيرٌ للإنسان إذا ارتكب معصية ألا يدافع عنها وألا يدعى أنها حلال بل يعترف أنها حرام ولكن الظروف اضطرتة اليها وهو غير قادر على نفسه ويسارع إلى طلب المغفرة من الله تعالى ويندم على معصيته في هذه الحالة يقبل الله توبته .

يقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

إذن .. لا وجود لواسطة بين الله وبين البشر ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم . فخطأ آدم تم تصويبه أما الخطيئة التي يرتكبها أي كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها وما فعله آدم ليس خطيئة إنما خطأ أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدس بين الناس وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عنها إما في الدنيا وإما في الآخرة .



مداخل الشيطان

مداخل الشيطان التي يدخل منها الشيطان للإنسان قد بينها الله لنا في القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ لَا تَبْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

وهذه الجهات الأربع هي مداخل الشيطان فقله : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : من أمامهم ، والشىء الذى أمامنا هو ما نحن سائرون إليه ، أى : الدار الآخرة ، فيأتى الشيطان ليشككنا فى الآخرة ويقول هل تصدقون أنكم ستبعثون أو انكم ستحاسبون وما دام الإنسان قد شك فى الآخرة فهو يطلق لشهواته العنان .

وقوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ فما يتركه الإنسان خلفه هو ذريته يأتى الشيطان ليخيفك على ذريتك ويقول لك : ستترك أولادك يضيعون ، اسرق وانهب وارثش وأرتكب كل ما حرمه الله لتترك لأولادك ما يحفظهم من الضياع ومعظم فساد الناس يأتى من هذه الناحية وتكون النتيجة أن نلقى الله عاصين ونترك المال الحرام لأولادنا فيفنى فى المعصية نعوذ بالله تعالى من الشيطان وحبائله .

أما قوله : ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ فاليمين رمز العمل الحسن والعمل الصالح ولذلك يأتى لهم عن أيمانهم ليكرههم فى صالح الأعمال فى الكسب الحلال بالجد والعرق وفى الطاعات .

وقوله : ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى : يأتى لهم ليزين لهم طريق المعصية ويرغبهم فيها ،

وبعض الناس يتساءل : لماذا الأمام ، والخلف ، واليمين ، واليسار !؟ ولماذا ترك الشيطان ما فوق الرؤوس وما تحت الأقدام ؟ ولقد سئل بعض الورعين عن هذا فقال لقد سمعنا أن الله قال : إن عبداً يرفع إليّ يده بالدعاء ويسجد لى على الأرض فحق عليّ ألا أسلط عليه شيطاناً . فالمكان الأعلى هو مكان صعود الدعاء والمكان الأسفل هو مكان السجود وكلاهما لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه .



قربان إبنى آدم

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة] .

وهنا يثور تساؤل رده فى هذه الآيات هل آدم رسول الله أم لا ؟ بعض الناس يقول : لا .. إن أول الرسل نوح عليه السلام . نقول لهم : وهل الله يترك خلقه من عهد آدم إلى عهد نوح بدون رسول ؟ وبدون منهج ؟ لماذا يبعث الله لخلق بعد نوح رسولا ؟ ولا يبعث لهم منذ عهد آدم إلى عهد نوح منهجا ورسولا ؟ وهو القائل جل جلاله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] وذلك يعنى أنه ما دام هناك خلق فلا بد أن يكون هناك نذير .

إذن .. فولدا آدم عرفا منهج الله وكانا يقدمان له القرابين .. من أين عرفا هذا المنهج ؟ من آدم وعرفا كيف يتقربان إلى الله وكيف يتعدان عما يوجب عقابه .

من أين كان سيأتى هذا الكلام لو لم يكن هناك رسول مبلغ عن الله بأن هناك ثواباً وعقاباً ؟ ومن أين عرف ابنا آدم أن الله يتقبل من المتقين ويعاقب الظالمين إلا إذا كان هناك منهج من الله نقله آدم إلى أبنائه !؟



نبي الله إدريس عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ [مريم] .

إدريس عليه السلام هو أول نبي بعد آدم عليه السلام ، وهو إدريس ابن برث ابن شيث بن آدم وجاء بعده من الأنبياء نوح ثم الخليل إبراهيم ومنه سلسلة النبوات بعد ذلك عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والصديق هو الذي يبالغ في تصديق كل ما يجيء به الحق ، ويجعل الله له فرقاناً ، بحيث إذا سمع الحق يصدقه ، لأن الكلام إذا كان موافقاً للحق ومن الحق فلا يتصادم معه شيطان في الدخول على العقل ، فالشيطان يدخل بين الناس ولكن الشيء الوارد من الحق سبحانه لا يستطيع الشيطان أن يدخل فيه . ومعنى ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ يقصد به مكاناً في السماء ، أو رفعة معنوية ، أو حسية لأن الذي خلقه أخبرنا بذلك ، فإياك أن تسأل عن ماهية الرفعة لأن هذه الرفعة رفعة عند من رفعه سبحانه وتعالى (١) .

(١) وفي حديث أبي ذر الطويل الذي صححه ابن حبان أن إدريس كان نبياً رسولاً وأنه أول من خط بالقلم . وحكى ابن الأزر عن وهب بن منبه ، أن إدريس أول من أتخذ السلاح وجاهد في سبيل الله وسبى ، ولبس الثياب وإنما كانوا يلبسون الجلود ، وأول من وضع الأوزان والكيول وأقام علم النجوم ، والله أعلم . .
روى في الصحيح أن النبي ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة : « ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدريس وقد رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه فسلم علي » .

نبي الله إدريس عليه السلام



وروى الإمام ابن جرير عن كعب أن الله تعالى أوحى إلى أدريس عليه السلام أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بنى آدم فأحب أن يزداد عملاً ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له : إن الله أوحى إليّ كذا وكذا فكلم لى ملك الموت فليؤخرنى حتى أزداد عملاً فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس فقال : وأين إدريس ؟

فقال : هو ذا على ظهري .

قال ملك الموت : العجب بعثت لقبض روحه فى السماء الرابعة فجعلت أقول : كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

وإدريس هو الجيل الخامس من آدم وهو الذى قال عنه بعض العلماء إنه «أوزوريس» الذى تحدثت عنه الأساطير الفرعونية .

ولكن نحن لا نعرف ذلك ، ولكن السير علمتنا أن أدريس هو أول من علمه الله أن يخييط الملابس بعد أن كانوا يسترون عوراتهم بجلود الحيوانات ، وهو أول من علمه الله غزل الصوف ، وأول من استخدم النجوم فى الاهتداء بها فى ظلام الليل ، كما أنه أول من خط بالقلم هذه الأشياء كلها تسمى أوليات إدريس .

نبى الله إدريس عليه السلام

نبي الله نوح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْكُمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس : ٧١] والنبا هو الخبر الهام الذي يلفت العقل وليس مجرد الخبر ، قوله تعالى ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْكُمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ إذن .. فكان هناك قوم وهؤلاء القوم ابتعدوا عن منهج الله ، وضلوا وجاء نوح عليه السلام ليعيدهم إلى المنهج الحق مره أخرى وإلى عبادة الله ، وكلمة : ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ القوم لا تطلق فى اللغه إلا على الرجال ، لأنهم أهل القيام على الأشياء الذين تعتمد عليهم حركة الحياة ، لأن المرأة مبنية على الستر والقرآن الكريم يوضح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] . فالرجال هم المواجهون بالرسالات السماويه والمرأة محتجبة مستترة تسمع إما من أبيها وإما من أخيها وإما من زوجها .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] تأتى هذه الآية بأحكام ثلاثة متعاقبة وهى : أنه لا إله إلا الله ، وما دام لا إله إلا الله ، ولا إله غيره فهو واجب العبادة ، وعبادته تكون فى طاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم . من هذه الأحكام الثلاثة الذى يفزع ؛ وأول من يتصدى لمثل هذه الدعوات : الطغاة والجبابرة لأن لهم السيادة ، والباقون عبيد يطيعون أوامرهم . فإذا جاء هذا الدين ليسوى بينهم فى عبادة إله واحد ، تجدهم أول من يفزع لذلك .

نبي الله نوح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِيۓ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] والملاء هم سادة قومه وأشرفهم هؤلاء خافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فماذا يفعلون ؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق أنه ﴿ ضَلَالٍ ﴾ غير الحق ، وقوله : ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أى محيط بحيث لا تستطيع أن تبتعد ولا أن تفلت منه . ماذا قال نوح عليه السلام لقومه ؟ ﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌۭۭۭ وَلَمْ يرد نوح بقوله ليس بى ضلال فهم يقولون لنوح : أنت ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فيرد عليهم : ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌۭۭۭ ﴾ [الأعراف : ٦١] لماذا ؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة .

فهو ينفى مجرد وجود ضلاله واحده عنده ونفى الأقل يعنى نفى الأكثر . وهذا النفى القاطع فى قوله : ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌۭۭۭ ﴾ أن منهج الله لم يأتى به نوح من عنده فالله سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج ، وما دام المنهج من عند الله فلا يمكن أن تكون فيه ضلاله واحده ولا شبهة ضلاله وحيثيات ذلك ﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌۭۭۭ وَلَكِنِّي رَسُولٌۭۭۭ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فنوح رسول ، وما دام رسول فهو مبلغ عن الله والله منهجه هو الهدى .

وتأكيداً لأن نوح عليه السلام مبلغ عن ربه حدد مهمته فى قوله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] ومعنى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ أى : أنهى إليكم ما حملنى الحق سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم .

أما قوله : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ فذلك إستكمال لبلاغ كل رسول ، فالبلاغ يقتضى أن يبلغ الرسول قومه بمنهج الله ومطلوبه منهم ، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذا المنهج لينالوا رضا الله وينجوا من عذابه ، والنصح : أن تبين للإنسان المصلحه فى العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة ،

٣٣

وعندما تنصح إنساناً بأن يفعل كذا ، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو ، فإذا كانت النصيحة بأمر يعود عليك فهي لا تخلو من الغرض وإذا كانت النصيحة في أمر يعود عليه هو بالنفع ، ففي هذه الحالة تكون نصيحه خالصة بنية صادقة ، ولذلك لم يقل نوح : « أنصحكم » ولكن قال : ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾ ليبين أن هذه النصيحة لصالح القوم ، وأنه كرسول لا يستفيد منها شيئاً ، فما دام قد بلغ فهو قد أدى الأمانة ، ولكن النصيحة زيادة في هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترغيبهم فيه .

ثم يبين لهم حيثيات النصيح فقال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : أن نوحاً عليه السلام يقول لقومه : إننى أعلم من الله أشياء لا تعلمونها ، ولذلك فخوفى عليكم مما ينتظركم من الله لأنكم كفرتم بآياته قد جعلنى أنصحكم ، ليست نصيحة أداء واجب ، ولكنها نصيحة من يعلم مما علمه الله سبحانه وتعالى . والمقصود بقوله هنا : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أن الله أعلم نوحاً بالطوفان الذى سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه .

ثم يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٣] وهنا نقف عند قوله سبحانه : ﴿ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فالذكر فى القرآن له معان كثيرة وعلى قمة هذه المعانى أن الذكر يراد به القرآن وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقوله جل جلاله : ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِى نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] . إذن .. فالذكر يطلق ويراد به القرآن ، ويطلق أيضاً فيراد به الشهرة والشرف العظيم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤]

نبى الله نوح عليه السلام

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] .
 أى فيه شرفكم وهذا الشرف للعرب لأن القرآن نزل باللغة العربية وسيظل
 باللغة العربية فالشرف يأتى من إنتساب هؤلاء الناس للأمة التى نزل فيها القرآن
 واللغة التى نزل بها القرآن . ويطلق الذكر أيضاً على ما أنزل على جميع
 الرسل من منهج الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي
 غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ١ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ
 وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ٢ [الأنبياء] ويقول جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ
 الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ
 مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ومرة
 يطلق الذكر ويراد به الاعتبار والتذكير والتذكر ، وفى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
 يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ [المائدة : ٩١]
 ومرة يراد بالذكر التسييح والتحميد فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ
 وَيُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهَا فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ٣ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ هَيْجَرَةٌ
 وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَافُ فِيهِ الْقُلُوبُ
 وَالْأَبْصَارُ ﴾ ٤ [النور] .

هذه أنواع الذكر فى القرآن الكريم فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ
 أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٣] فأى معانى الذكر
 فيها وجه العجب ، إن العجب هو إظهار الدهشة من حدوث شىء على غير
 ما تقتضيه مقدمات الأمور حينئذ تتعجب كيف حدث هذا ؟ ولكن إذا
 كانت الأمور تسيير بطريقة منطقية بمعنى : أن المقدمات تدل على النتائج فلا
 توجد دهشة ولا يوجد عجب ، لذلك إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :
 ٣٥ نبي الله نوح عليه السلام

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] إن قول هؤلاء الناس فيه غباء ، لأن كون الرسول بشر فإن ذلك أدعى للتصديق والإيمان ، فالرسول بشر منكم تعرفون ماضيه قبل أن يكلف بالرسالة ، فلو كان له إنحرافات قبل أن يكلف بالرسالة لما جرؤ أن ينهاكم عن شيء يستحله لنفسه ، ولذلك فلا بد أن يكون الرسول معروفاً بالاستقامة والسلوك الحسن عند قومه قبل أن يكلف بالرسالة ، فإذا كان لم يكذب في أمور الدنيا ولم يكذب على خلق الله ، أي كذب على الله ؟ ثم الرسول قدوة فهو مطبق للمنهج بقدرات البشر حتى لا يدعى أحد أن المنهج فوق طاقة البشر وأن الله كلفنا فوق ما نطيق .

الحق سبحانه يقول : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣] .

إذن .. فمهمة الرسول ثلاث مراحل :

الإنداز .. وهو إخبار بما هو قادم حتى تستعد له .

والبشارة .. وهى إخبار بشيء سار لم يأت زمنه بعد ، حتى يجند الإنسان كل قوته للحصول على هذا الشيء السار الذى بشر به الرسول ، أى أن مهمة الرسول أن ينبهنا لتتقى الشر وتأخذ الخير ثم بعد ذلك يرشدنا إلى التقوى التى تؤدى بنا إلى الرحمة . إذن .. فهناك إنذار يؤدى إلى التقوى ، وتقوى تؤدى إلى الرحمة .

أى إن مهمة الرسول ثلاث مراحل : فهو ينذر هذه هى المرحلة الأولى . والنفوس تتقى هذه هى المرحلة الثانية والتقوى تأتى برحمة الله فى الدنيا والآخرة هذه هى المرحلة الثالثة .

ولكن القوم كذبوا نوح ورفضوا الإيمان معه ، قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : ٦٤] والحق لم يتكلم فى هذه الآية عن مراحل الإنجاء وكيف أن نوحاً تعلم التجارة وصنع السفينة وكيف أن قومه كانوا يسخرون منه وهو يصنع السفينة ثم الطوفان الذى حدث ، كل هذا لم يأت فى هذه الآية وإن كان قد جاء فى سور أخرى ، ولكن الحق أعطانا النتيجة مرة واحدة دون الدخول فى تفاصيل ؛ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الأعراف : ٦٤] وكان هذا الأغرار هو أول عقوبة حدثت فى تاريخ الرسالات . ذلك أن نوحاً كان أول رسول تعرض لمثل هذا التكذيب والعناء ، وكان الله سبحانه فى بدء الأمر هو الذى يتولى تأديب الكافرين ، فكان الرسل عليهم البلاغ فقط وليس عليهم أن يدخلوا فى أى نوع من التأديب كالحروب مثلاً أو غيرها ، ولكن عندما أرسل الله محمداً ﷺ كانت الإنسانية قد بلغت رشدها ، وعهد الله تعالى إلى محمد ﷺ وأمته من بعده أن يقوموا بنشر رسالة الله .

فى هذه الآية لم يخبرنا الحق سبحانه من ماذا أنجى نوحاً ولا كيف أغرق الكافرين بالطوفان ، ولكنه سبحانه وتعالى أعطانا حيثية الإغراق فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ . ومعنى : ﴿ عَمِينَ ﴾ هناك أعمى ، وهناك عمى ، فأعمى للبصر ، وعمى للبصيرة ، أى إنهم كانوا قوماً قد عميت بصيرتهم فلم يروا الحق رغم طول المدة التى قضها نوح بينهم يعظهم ويدعوهم إلى منهج الله !

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحُ أَلَا لَنْقُوتَنَّهُ ﴿ [الشعراء] قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ ﴾

٣٧ _____ نبي الله نوح عليه السلام

قوم نوح كذبوا نوحاً فقط ، فلماذا قال تعالى إنهم كذبوا المرسلين ؟ قالوا لأن رسل الله جميعاً إنما جاءوا بأصول ثابتة تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول . فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة ، فمن كذب رسولاً ، فقد كذب كل الرسل ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والاختلاف في مناهج الرسل هو اختلاف في التشريعات التي تقتضيها تطورات المجتمعات ، لكن العقيدة والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابتة لا تتغير فالذى يكذب رسولاً في هذه الأشياء كأنه كذب كل الرسل .

وكلمة : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ معناها : أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهم يعرفون نشأته وسلوكه وأخلاقه فإذا كان الرسول جاء إلى قومه وهو واحد منهم يعرفون ماضيه وسيرته فيهم وإستقامته بينهم ، كان يجب عليهم أن يسمعوا له ويعطوا عقولهم فرصة أن تسمع وتفهم ما يدعوهم إليه بعيداً عن الهوى لأن الذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن جوفهم وقلوبهم مشغول بالباطل وما دام القلب مشغولاً بالباطل فلا يمكن للحق أن يدخله . فأنت قبل أن تُدخل الحق إلى القلب لا بد أن تُخرج منه الهوى والزيغ . فكلمة : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ جاءت لتحنن قلوبهم وتعرفهم أن لهم به ماضياً يعرفونه ، ويعرفون أخلاقه وسلوكه ، وهذا أدعى أن يؤمنوا به ويصدقوه .

وقوله : ﴿ أَلَّا نُنْفَخُونَ ﴾ معناها : اتقوا الله ، مثلما تقول لإبنك المهمل : ألا تستذكر ، معناها : استذكر وهذا الأسلوب من الحض على الفعل ، مثل :

نبى الله نوح عليه السلام

 ٣٨

لولا تكرم أباك ، ألا تستقبل أحاك بالبشاشة ، كل هذه أساليب تحث على فعل الشيء .

إذن .. معنى : ﴿ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴾ أنكر عليكم أن تكونوا غير متقين ، لذا أطلب منكم أن تتقوا الله . وقول الرسول لقومه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١١٠] هو طاعة لله وليست طاعة ذاتية للرسول ، ولكن يطيعونه لأنه رسول من عند الله ، وطاعته من طاعة الله .

وقوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٠] كلمة : ﴿ أَجْرِيَ ﴾ الأجر هو : ثمن المنفعة ، والأثمان عادة إما تكون ثمناً لعين وإما ثمناً لمنفعة ، كأن يكون إنسان يملك بيتاً وأنت تريد أن تشتريه . إذن .. فأنت تشتري العين . ولنفرض أن إنساناً لا يريد أن يبيعه فتستأجره فأنت أخذت حق الإنتفاع مقابل ما تدفعه من مال وهو الإيجار والإنسان حين يأخذ أو يدفع أجراً فإنه يفعل ذلك طلباً للمنفعة ومنفعة ملحة .

نبى الله نوح عليه السلام جاء بمنهج الحق ، واتباع المنهج هو منفعة لمن يؤمن وليس منفعة لله ، فالله غنى عن العالمين ومنهجه جل جلاله منفعة لمن يؤمن به ، وما دام نوح عليه السلام يهدى قومه إلى الحق فهو يهديهم إلى ما ينفعهم ، ولذلك كان المقروض أن يأخذ أجراً منهم على هذه الهداية ما دام يقدم لهم النفع ولكن نوحاً عليه السلام يلفتهم إلى أنه لا يطلب منهم أجراً ، وإن كان يجب أن يكون هناك أجر على الدعوة فإن الأجر ليس منهم ، ولكن من الله سبحانه وتعالى .

ومن العجيب أنك تجد فى كل مواكب الرسل حين تخاطب أقوامها تخاطبهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ إلا فى قصتى إبراهيم

نبي الله نوح عليه السلام

 ٣٩

وموسى عليهما السلام ، يقول الحق سبحانه فى سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أُنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ قَوْمَ فرعونَ ؕ أَلَا يَنْظُرُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٦﴾ وَيَضْحِكُوا صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٧﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٨﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِبَنَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٩﴾ فَآتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢١﴾ ﴾ أى أنهما دخلا فى موضوع الرسالة ولم يقولا : « ولا نسألكم عليه أجراً » .

وفى قصة إبراهيم عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَظِيمِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٤﴾ أَوْ يَنْفَعُوكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء] لم يرد كذلك فى قصة إبراهيم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ .

ولكن لو استعرضنا قصص الأنبياء غير إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه على الجميع ؛ نجد أن قوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وردت فى كل قصص الأنبياء .

ففى قصة نبي الله نوح عليه السلام ورد قول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

وفى قصة نبي الله هود عليه السلام ، ورد قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

نبي الله نوح عليه السلام ٤٠

أَمِينٌ ﴿١٧٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٧٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴿ [الشعراء] .

وفى قصة نبي الله صالح عليه السلام ورد قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٧٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴿ [الشعراء] .

وفى قصة نبي الله شعيب عليه السلام ، ورد قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴿ [الشعراء]

إذن .. كل رسول من رسل الله تعالى قال لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عدا نبي الله إبراهيم ونبي الله موسى عليهما السلام ، ومن هنا كان يجب على الناس أن يفهموا أن الرسل حين يبلغون رسالة الله إلى الأرض فإنهم يقدمون منفعة للناس يستحقون عليها أجراً وأجرًا كبيراً ، ولكنهم يريدون الأجر من الله لأنه هو الذى يعطى ويجزل العطاء وعطاؤه سبحانه بلا حدود .

لكن لماذا جاءت هذه الآية الكريمة فى قصص كل الرسل ما عدا قصة إبراهيم وموسى عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ؟ لأنك حين تأخذ أجراً على منفعة تقدمها لغيرك فلا بد ألا يكون للغير معك منفعة ، ولنفرض مثلاً أنك تتعامل مع أحد التجار ، تبيعه أشياء وبيعتك أشياء ، المنفعة هنا متبادلة

٤١ نبي الله نوح عليه السلام

فلا يوجد أجر . بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ، هو أول من دعا للإيمان فدعا عمه ، وعمه شارك في تربيته ، أيمن أن يقول إنه يريد أجراً على هذه الدعوة ؟ لا يمكن أن يقول ذلك لأن هناك منفعة متبادلة ، وموسى ربه فرعون حتى إن فرعون غيره بهذه المسألة وقال كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُنزِّكْ فِيْنَا وَلِيْدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِيْنَ ﴾ [الشعراء : ١٨] وهذا من وجهة نظرنا ؛ والله تعالى أعلم سبب في عدم ورود طلب الأجر في قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ولذلك يعجب الله من الكفار حين دعاهم رسوله ﷺ للإيمان فلم يؤمنوا ، قال تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ [الطور : ٤٠] ومعنى ذلك : هل طلبت منهم أجراً على الإيمان فلم يجدوا ما يدفعونه ، ولذلك لم يؤمنوا ؟ أجر الرسول على الله ؛ لأنه هو الذى يستطيع أن يكافىء على هذا العمل . بعد أن خاطب نبي الله نوح عليه السلام قومه ودعاهم إلى طاعة الله ، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً ، ماذا كان ردهم عليه ؟ ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] الأرزالون جمع رذل : والرذل هو الردىء من الشىء . فهم يقولون له كيف تؤمن بك وقد أتبعك ضعاف الناس وفقراؤهم ؟ وفى آية أخرى قالوا له : ﴿ وَمَا نَزَّلَكَ آتِبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ ﴾ [مرد : ٢٧] وهم يقصدون بالأرادل ، الناس الفقراء الضعفاء الذين لا يؤبه لهم ، وهؤلاء دائماً هم جنود الرسالة فى البداية لأنهم المطحونون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على واحد يأتى ليعدل موازين المجتمع .

وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نبي الله نوح عليه السلام حيث قالوا له : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ ﴾ مع إنه يدعوهم إلى الإيمان بالله وليس به هو لأنه مجرد رسول

يحمل منهج الله ودعوته ، وقد يكون معنى ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ ﴾ بمعنى نصدقك ، لأن كلمة « آمن » تستخدم فى معان متعددة مثل : ﴿ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٤] وقوله : ﴿ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَءَامَنَ لَهُم ﴾ [العنكبوت: ٢٦] بمعنى : صدقه ، قال تعالى : ﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣] وفى سورة يوسف يقول القرآن على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٦٤] وإخوة يوسف حينما سألوا أباهم قالوا : ﴿ قَالُوا يَتَّبِعَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴾ [يوسف: ١١] .

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا زَنَّاكَ أَتَيْتَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا زَنَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُنظِّمُهُمْ كَذِبًا ﴾ [هود: ٢٧] دلالة على عظمة هذا الدين والتي تكمن فى هذه النقطة بالذات . لأنه لو انتصر دين بأصحاب النفوذ والجاه والسلطان لقالوا : اعتمد الدين على نفوذ الدنيا ، ولو كان الدين قد نزل على هؤلاء الذين لهم النفوذ والسلطان فى الأرض لاعتنق الناس الدين نفاقاً وتقرباً لأصحاب النفوذ وليس تقرباً إلى الله وكان الدين اتبع نفوذ هؤلاء الناس ، فإذا زاد نفوذهم ضاع دين الله فى الأرض ، ولكن الحق يريد قلوباً تتحمل المشقة لأنها تحب الله ، قلوباً تتحمل الاضطهاد والإيذاء طلباً لرضا الله ، قلوباً لا تطلب جاه الدنيا ولكنها تطلب حب الله فى الآخرة ، وهذا لا يأتى أبداً من الذى يؤمن بدين الله نفاقاً وطمعاً فى أن يكون قريب من أصحاب النفوذ والجاه ، ولا يتم مراد الله إلا إذا كان الإيمان بالله خالصاً له سبحانه .

نبي الله نوح عليه السلام رد عليهم قائلاً : ﴿ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١١٢]
 إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا
 نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ [الشعراء] .

أى أن الإيمان لا دخل له بالغنى والفقير والقوة والضعف لأن الإيمان سلوك
 وعمل . وربنا هو الذى يحاسب الناس على أعمالهم وما دام الحساب أمر
 يختص به الله وهؤلاء عجلوا بالإيمان فلا بد أن الله سيجزيهم خير الجزاء ،
 كما أننى لا يمكن أن أطرد المؤمنين بالله لأنى نذير من عند الله ؛ ومهمة النذير
 هى البلاغ عن أمر الله لا طرد الذين آمنوا به .

نفس هذا الموقف طلبه الكفار من الرسول ﷺ فنزل عليه قول الحق سبحانه
 وتعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ
 عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

إجابة نوح عليه السلام لم تعجب كفار قومه ، فما كان منهم إلا أن : ﴿ قَالُوا
 لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلْنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] أى : أنه لا فائدة من
 الكلام معك يا نوح ولكن هذا إنذار لك : لئن لم تنته عما تدعيه من دعوتك
 إلى عبادة الله وتقريبك للأراذل من الناس لنرجمنك . وهذا التهديد يعنى أنهم
 قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان . ولكن ماذا يفعل نوح عليه السلام ؟
 لابد أن يلجأ إلى ربه وقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا
 وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ انظر إلى أدب النبوة ، إنه شكاً لربه من
 تكذيبهم ولم يشك من تهديدهم له بالرجم لأن ما يهمه هو دعوته ، وأن
 يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به .

نبي الله نوح عليه السلام ٤٤

والفتح : إما أن يكون حسياً أو معنوياً قال تعالى : ﴿ وَكَمَا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَلْعَتِهِمْ رُذَاتٍ إِلَيْهِمْ ﴾ فهذا فتح حسى بإزالة الرباط الموجود على البضاعة .

وقد يكون الفتح معنوياً مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ومثل قوله : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٢] فالفتح هنا بمعنى الخير .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] الفتح هنا بمعنى علمكم من علم لم يعلموه . وقد يكون الفتح بمعنى الحكم مثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

وقول نوح عليه السلام هنا : ﴿ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبِحَنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٩] معناه يارب احكم بيني وبينهم ونجني أنا والمؤمنين معي من كيدهم ، فاستجاب الله دعاءه ونجاه من شرهم ، قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الشعراء :] .

والفلك : السفينة التي صنعها نوح . فالله أمره بصنع السفينه وأرشده إلى طريقة صنعها . ويبدو أن صناعة الفلك لم تكن معروفة للناس في ذلك الزمان بدليل أنهم كانوا يسخرون من نوح كلما مروا عليه وهو يقوم بصناعتها ، قال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] .

٤٥

 لبي الله نوح عليه السلام

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَاكَ الْمَشْحُونِ ﴾ تدل على أن نوحاً عليه السلام كان معه عدد كبير من الأتباع لأن السفينه ما دامت مشحونه فهذا يعنى أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع الأخرى من الحيوانات والطيور وغيرها .



سفينة النجاة

وقال الحق تعالى : ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ والصنعة هي التي توجد من موجود . فالإنسان يوجد أشياء من موجود ، والله وحده هو الذي يوجد من عدم . فالحق سبحانه ألهم نوحاً بوحيه كيف يصنع السفينه ، وعلمه كيفية صناعتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَحَّيْنَا ﴾ أى : أن نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن ولكن الله هو الذى أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينه أى ألقى فى قلبه وفى عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينه بوحي منه سبحانه وعلم بدليل .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨] قالوا بعد أن كان نبياً أصبح نجاراً ولو كان نبياً حقاً ما لجأ إلى هذا ، لقد قالوا إن هذه السفينه بعيدة عن البحر فكيف سينقلها ؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها وهو الذى سيرفعها ، لم يعرفوا أن طوفاناً قادماً وأنهم مغرقون . ولذلك سخر منه كبار قومه الذين لم يؤمنوا به ولم يدركوا قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود: ٣٩] أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينه الآن ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل ، وستعلمون ﴿ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٩] .

إذن .. الطوفان الذى سيأتى سيخزي هؤلاء الكفار لأنهم كانوا يسخرون يقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

وقوله : ﴿ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يعنى : عذاب دائم لا يتركهم أبداً يقيم معهم إقامة دائمة ، فهو معهم كل الوقت لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه .

نبى الله نوح عليه السلام ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فاعتقدوا أن المسأله كلام فقط وأن العذاب لن يأتيهم وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب ، ولكن العذاب ليس فى يد نبى الله نوح عليه السلام فالذى يأتي بالعذاب والذى يمنع العذاب هو الله تبارك وتعالى ؛ ولذلك كان قول نوح لهم : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ [هود : ٣٣] ، فالله تعالى لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما يريد .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى : لن تعجزوا الله ولن تفلتوا منه أبداً . ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] والكلام هنا لنوح ، والمعنى : إن كان الله يريد أن يغويكم فلا ينفع نصحى .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ هل الله يغوى ؟ إن الله يهدى ! أقول : إن معنى « غوى » أى : تاه وضل عن الطريق . والله لا يغوى أحداً فأنت لا تسلك طريق الغواية رغماً عن إرادة الله ولكنك تسلكه لأن الله خلقك مختاراً وهو يهديك إلى الطريق المستقيم أى يبينه لك ويقول هذا هو الطريق المستقيم ويرغبك فى جنته وينذرك بعذابه ثم بعد ذلك يتركك للإختيار الذى وهب لك فأنت إما أن تختار طريق الهداية ، أو ترغب عنه إلى الغواية والعياذ بالله .

وبعد الجهد الجهد والعمل الدعوب المتواصل لدعوة قومه سرًا وجهرًا ،
ترغيبًا وترهيبًا لم يؤمن مع نوح عليه السلام إلا عدد قليل ، أوحى الله تعالى
إلى نبيه نوح عليه السلام : ﴿ أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾
فبعد ما يزيد على تسعمائة عاماً من الدعوة ووصل الجدل والعناد من قوم نوح
مداه قال الله تعالى لنوح عليه السلام : انتهت مهمتك فمهما فعلت ومهما
دعوت فلم يؤمن لك إلا الذين أعلنوا إيمانهم فعلاً . فقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ قَدْ
ءَامَنَ ﴾ ﴿ إِلَّا ﴾ هنا معناها : غير ، فيكون المعنى : لن يؤمن معك غير الذى
قد آمن من قبل .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦] أى لا تحزن
عليهم بعد هذه السنوات الطويلة التى قضيتها معهم دون أن يسلكوا طريق
الإيمان .

○ ○ ○

الطوفان .. دعوة نوح على قومه

بعد أن يمس نبي الله نوح عليه السلام من قومه وإعلامه من الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن ، دعا عليهم قائلاً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٧٧] إِنَّكَ إِن تَذَرَّهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿ [نوح : ٧٧] .

الحق تبارك وتعالى استجاب لدعاء نبيه ، وضرب له موعدًا بعلامة ، فإذا جاء وعد الله تعالى يحمله نوح في السفينة المؤمنين به ، ومن كل زوج اثنين ضمناً لاستمرار الحياة ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ تعنى : اثنين ولكنهما متماثلان ؛ فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله ، قال تعالى : ﴿ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ [القيامة : ٣٩] أى : أن الأنثى زوج والذكر زوج وهما معاً زوجان اثنان . والله أراد بذلك إستبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها ولذلك طلب من كل زوجين اثنين لينجيهم بالسفينة من الفرق .

قول الحق تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] ﴿ حَتَّىٰ ﴾ تدل على الغاية ، ﴿ أَمْرُنَا ﴾ أى : الطوفان الذى سيأتيهم ، ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ « فار » يعنى : غلى ، مثلما يقال : الماء فار ، أى : غلى . والغليان هو : أعلى سخونه للماء ، وخروج الماء من التنور أو الخبز معناه : أن الماء يخرج من مكان لا يتوقع خروجه منه ، والتنور أو الخبز هو مكان تشتد فيه الحرارة وتوقد فيه

الطوفان .. دعوة نوح على قومه

النار للخبيز وكانت هذه هي العلامة التي أوحى بها الله إلى نوح عليه السلام ،
فعندما يبدأ خروج الماء من الخبيز يسرع نوح والذين آمنوا معه ليركبوا السفينة
التي صنعها نوح عليه السلام بأمر الله ، لتجرى بهم بسم الله ، إلى ما قدره
لهم الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ اَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّٰهِ جَمْرَتَهَا وَمُرْسَاهَا اِنَّ رَبِّيْ
لَغَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾ [هود : ٤١] .

قوله : ﴿ اَرْكَبُوا ﴾ الركوب هو : أن يكون الراكب مستعلياً على ما
يركبه . والحق قال : ﴿ اَرْكَبُوا فِيهَا ﴾ ولم يقل : « أركبوا عليها » ، فالحق
سبحانه يلفتنا إلى أن السفينه لم تصنع بطريقة بدائيه على شكل ألواح
خشب يركب الناس فوقها ، ولكنها مصنوعه بأحدث نظام لصناعه السفن
الآن . لذلك فإنهم يركبون فيها لا يركبون عليها .

وقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ فالذين سيركبون هذه السفينه سبب
ركوبهم أنهم آمنوا بالله ، لأن السفينه : لله أمر ، وللرسول صناعة . وكل هذا
من الله . لذلك علمنا الله أن نستعين به سبحانه وتعالى . وإياك أن تنهيب أن
تستعين بالله لأن لك معاصي فالله سبحانه وتعالى رحمن رحيم ، وقد نجى
سبحانه من هم في السفينه لأنه غفور رحيم .

فالذين آمنوا مع نوح عليه السلام ليسوا ملائكة ، بل هم بشر ، منهم من
أخطأ واستغفر أو من أذنب وتاب أو من آمن ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة ،
والله تعالى لأنه : ﴿ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾ غفر لهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة
التي ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [مرد: ٤٢] تدلنا على أنها مسيرة بقدره الله سبحانه وتعالى . لذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها الله أنها في علوها وضخامتها كالجبال ، هذه الجبال لا تضرها شيئاً لأنها تسير بأمر الله وعلى هدى من الله تبارك وتعالى .



لا عاصم من أمر الله

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [مرد: ٤٢] انظر إلى عاطفة الأبوة عندما دخل في السفينة الذين آمنوا ، وأهل نوح ، ومن كل زوجين اثنين ، ولحظ نوح ابنه خارج السفينة ، فناداه وقال له : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ نصيحة أب يحاول أن ينجي ابنه من الموت ، لكن الكفر الذي ملأ قلب ابن نوح أعماه عن الحقيقة فبدلاً من أن يلبى الدعوة ؛ قال : ﴿ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [مرد: ٤٣] ظن ابن نوح أن هناك قوة يمكن أن تنجيه من أمر الله ! وهيهات .. فالله غالب على أمره ، ولكن النبي الأب ظل يرغب ابنه ويرشده إلى طريق النجاة الوحيد قائلاً له : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ ، أى : لا تعتقد يا بنى أن هناك شىء فى الكون يمكن أن ينجيك من أمر الله لأن كل ما فى الكون خاضع لإرادة الله قهراً .

و ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

وهكذا تم الأمر على مراد الله استجابة لدعاء نبي الله ، وأغرق الكافرين جميعاً بما فيهم ابن نوح الذى رفض الإيمان وكما كانت البداية أمراً من الله تعالى ، كانت النهاية أمراً من الله سبحانه ، فقال تعالى للأرض : ﴿ أَتْلَعِي مَاءَكِ ﴾ ، وللسماء ﴿ أَقْلَعِي ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ أى : خذى الماء من السطح إلى جوفك ، ﴿ وَكَسَمَاءُ أَقْلَعِي ﴾ أى : أمتنعى عن المطر .

ثم يقول جل جلاله : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ قضى أمر الله
فى إهلاك الكافرين ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أى استوت السفينه على الجبل ،
والجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق .



بعداً للقوم الظالمين

قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : أن القوم الظالمين فى ذلك الوقت ابتعدوا بعداً نهائياً عن الإفساد فى الأرض ، فهم قد أُغرقوا بالطوفان ، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون فقط .

لما فتحت أبواب السماء وفجرت عيون الأرض ، وفار التنور ، والتقى الماء على أمر قد قدر ، وسارع نوح وأهله والمؤمنون معه إلى داخل السفينة وأبى ابنه الركوب معهم ، ولما تيقن نبي الله أن ابنه سيغرق لا محالة ، توجه إلى الله عز وجل سائلاً إياه أن ينجى ابنه الذى هو من أهله ، وكان الله تعالى وعده بالنجاة فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ أَبْنَى مِنِّ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [مرد : ٤٥] فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنِّ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَتِرٌ صَلَاحٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ مِنِّ أَهْلِكَ ﴾ : لفته من الحق سبحانه إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ؛ وإنما أهلية المنهج والاتباع .
إذن .. البنوة بالنسبة للأنبياء بنوة اتباع وليست بنوة نسب .

الله تعالى أعطى حيثية ذلك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَتِرٌ صَلَاحٌ ﴾ كأن أهل النبي هم الذين يتبعون منهجه ، ويعملون صالحاً ، وما دام ابن نوح لم يعمل صالحاً ، بل كفر بالله تعالى ولم يتبع منهجه فهو ليس من أهل نوح .
ثم قال الحق جل جلاله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَلَا تَتَّبِعَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّى أَخِطُّكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى : فكر جيداً قبل أن تسأل هذا السؤال .

بعداً للقوم الظالمين ٥٥

وحيث سمع نبي الله نوح عليه السلام بهذا الخطاب من الله انزعج وخشى أن يكون أغضب الله بهذا القول فبادر قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧] استعاذ نوح بالله سبحانه وتعالى من سؤاله نجاة ابنه لأنه لم يكن يعرف أن أهل النبي هم أتباعه ، وقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ : هذا اعتراف من نوح أن ما قاله هفوة ما كان يصح أن تكون ، والآية الكريمة معناها : يا رب إنى أستعذك أن تجعلنى أسألك بغير علم ؛ فامتنى يا رب بقدرتك من أن أسأل ما لا أعلم .

وبعد أن تم الأمر وفق ما شاء الله تعالى ، وامتنعت السماء عن ارسال المطر ، وابتلعت الأرض الماء ، وهلك الكافرون صدر الأمر الإلهي لبني الله نوح أن : ﴿ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ [هود: ٤٧] . قوله تعالى : ﴿ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ ﴾ أى : انزل من السفينه لتباشر مهمتك فى الدعوة إلى الله تعالى وعمارة الأرض أنت ومن معك .

وقوله تعالى : ﴿ بِسَلْمٍ مِنَّا ﴾ بأمن واطمئنان ، لأنه لا يوجد على الأرض إلا المؤمنون ولم يعد هناك من الكافرين من ينغص عليك أمرك . وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَكَاتٍ ﴾ أى أن البركة ستكون لك فى العطاء ، لأن معنى البركة : أن يعطى الشيء أكثر مما هو متوقع منه ، ونوح معه من كل زوجين إثنين سيتكاثرون بسرعة ويملاؤن المكان .



امراة نوح

يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ
وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] ليس
المقصود بالخيانة فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى
الفاحشة لحرمة الأنبياء ولكن ذلك لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولا ليس
له من القدرة على أن يقهر المرأة فى العقيدة حتى وإن ادعى الألوهية كفرعون ،
فها هى امرأة فرعون تدعو الله تعالى قائلة : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي
الْجَنَّةِ وَبِخْتِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخْتِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١]
هذه اللقطات هى التى تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب
أو الزواج . والحق لا يحب الإنسان لذاته ولكن لعمله الصالح لذلك قال :
﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .



نحن ذرية من كانوا مع نوح

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبَدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] إن بقاءكم الآن من بقاء آبائكم وهذا البقاء راجع إلى الذرية التي كانت مع نوح حين نجاهم الله من الغرق في الطوفان فكأنه يمن عليهم بهذه النعمة . كما تبين الآية الكريمة أن الله أكرم ذرية نوح لأنه كان عبداً شكوراً .

إذن .. فالعمل الصالح ينفع الذرية فكأنه يقول لهم إنه سيكرم ذرية نوح لأنه كان عبداً شكوراً .

فإذا كنت تخشى على أولادك من بعدك فاتركهم للذي لا يضعف ولا يموت قال تعالى ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] .

فصلاح الآباء ينفع الأبناء ، لذا يقول الحق : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فمن تكريم الله للآباء الصالحين أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة مع عدم إنقاص أجر عمل الآباء .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبَدًا شَكُورًا ﴾ كان من شكره لا يتناول شيئاً من مقومات حياته ومن ترفها إلا حمد الله عليه فيحمده في الأكل والشرب والكسوة وعند ركوب الدابة وفي كل شيء . فما أكثر ما غفل الإنسان عن حمد الله في نعمه .

فالحمد لله على كل نعمة أنعمت بها عليّ يارب ونسيت أن أحمّدك عليها .
والحمد لله في نعمة أنعمت بها على عبد ولم يحمّدك عليها .
والشكر دائماً شكر للمنعم وللمعطي وثناء عليه ولكنه تجارة للشاكر أيضاً
لأن الحق يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] فربنا ليس
محتاجاً لشكر خلقه ولكن خلقه محتاجون إليه وهناك شاكر وشكور وصابر
وصبور فالشاكر يشكر مرة أما الشكور فهو الذي يداوم على الشكر .

○ ○ ○

نبى الله هود عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِّرَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ مِّنْ أُمَّةٍ مُّفْتَرِيَةٍ ﴾ [هود : ٥٠] .
رسول جديد جاء بعد أن عم فساد ذرية الذين نبأهم الله مع نوح فانحرفوا عن المنهج . لأن الرسول لا يأتي إلا عندما يعم الفساد ولا يوجد من يصلح .
لأن المناعة الإيمانية قد توجد مناعة ذاتية لمن تحدثه نفسه بالإنحراف فيعود إلى ربه وهذه هي النفس اللوامة . لكن إذا لم توجد مناعة في المجتمع فلا بد أن تقوم حجة الله على الناس برسول جديد وبرهان سديد .

فبعد نوح عليه السلام حدث الإنحراف عن المنهج وغرق المجتمع في شهواته ، وحاد عن طريق الإيمان فأرسل الله تعالى هوداً إلى قومه ليعيدهم إلى الإيمان بالله . وقول الحق تعالى : ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ وما دام أخاهم فهو لا يريد لهم إلا خيراً . وما دام أخاهم يكون مأموناً على ما يقول . ماذا قال هود لقومه ؟ ﴿ قَالَ يَنْفَوِّرَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ مِّنْ أُمَّةٍ مُّفْتَرِيَةٍ ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم ، وجعلوا الله شركاء ، وافتروا على الله الكذب أى : تعمدوا الكذب على الله . وما دام أنه لا إله إلا الله ، فالإفتراء الذى إفتروه أنهم اتخذوا غير الله إلهاً .
ويقول هود عليه السلام مرغبتاً فهم في الإيمان بالدعوة أنه لا يطلب منهم شيئاً مقابل دعوته لهم وأنه لا يريد منهم إلا عبادة الله وحده ، وأن أجره على الله تعالى ، جاء في القرآن الكريم على لسانه : ﴿ يَنْفَوِّرَ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : ٥١] ، قوله :

نبى الله هود عليه السلام 60

﴿ فَطَرْتَهُ ﴾ أى : خلقنى معداً للرسالة ، فالفطرة هنا تعنى التكوين الأساسى لنبى الله هود عليه السلام ، وبأنه سيكون رسولاً وأنه معد لما سيكلف به .
وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى : ألا تستخدمون عقولكم ، فأنا لا أطلب أجراً مقابل انتفاعكم بالدعوة لأن الله وحده هو القادر على أن يعطينى الأجر ، أما أنتم فلا تقدرتون على الأجر الذى أستحقه .

ثم يقول : ﴿ وَيَقَوْمٍ أَستَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ نُؤْتُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلَا تُلَوِّحُوا بِأَيْدِيكُمْ ﴾ الإستغفار طلب المغفرة من ذنب وقع ، والتوبة هى الرجوع إلى الله تعالى والندم على ما سلف من ذنوب ومعاصى .

الإنسان حين يطلب المغفرة من الله ويتوب ويتعد عن الذنوب يغفر له الله ويتقبل توبته . ولكن الإنسان يعيش حياة رتيبة كل شىء مسخر لخدمته ، الأرض تنبت له الزرع ، والسماء تمطر له ، والحيوان يخدمه فى الكون ، هذه النعم العظيمة تُنسى الإنسان قد واهب النعم مع الأسباب ، وينسى المسبب سبحانه وتعالى .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١﴾ أَنْ رآهُ اسْتَغْفَى ﴿٢﴾ ﴾ استغنى بماذا ؟ بالأسباب . ولذلك نجد الناس حين تكون حياتهم بسيطة تلفتهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وكلما تقدمت حياتهم وارتقت كثر بعدهم عن الله ... كيف ؟ فى الماضى كانوا يذهبون للبئر ليشربوا وعندما لا يجدون ماء فى البئر يفزعون إلى الله بالدعاء طالين المطر ، والآن عند انقطاع المياه بالتليفون تتصل بشركة المياه لتعيد لك الماء !!

٦١

 نبى الله هود عليه السلام

إذن .. كلما تزداد الحياة رقيًا يبتعد الإنسان عن الله ، لأن الأسباب تعطيه ظاهراً فينسى المسبب ويعيش الأسباب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٩٠] أى : لا تفعلوا ذنوباً جديدة وطهروا قلوبكم من الكفر والشرك واعبدوا الله وحده ، الله تبارك وتعالى حينئذاً ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ المdrار : هو الذى يدر بتتابع لا ضرر فيه ، فمثلاً فى الطوفان قال الله تعالى : ﴿ فَفَنَحْنَا أَنْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ ﴾ لذلك كان الرسول ﷺ يقول : « اللهم حوالينا ولا علينا » حتى لا يغرق الماء القوم ولكن ينزل على زرعهم .

إذن .. قوله : ﴿ مِدْرَارًا ﴾ معناها : متتابعاً تتابع إصلاح فتخضر الأرض ويخرج الزرع فيزيد مالنا وتزيد قوتنا .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مَنَاجِرَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فنحن إذا تولينا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا لأن إجرام العبد يعود على نفسه فهو الذى يشقى فى الدنيا ويخلد فى العذاب فى الآخرة .

والحق تعالى يقول : ﴿ ... وَمَا تَخَنُّ بِشَارِكِ ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعَدَّكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ... ﴾ [هود] فهم يسمون الإفك الذى يعبدونه آلهة وهذا مردود عليهم بالقياس والمنطق لأنها مادامت آلهة فلا بد أن يكون لها منهج عبادة تقول أفعال كذا ولا تفعل كذا . فما هو منهج الأصنام ؟ بالطبع لا شىء ! إذن .. فهى آلهة بدون منهج ولا توجد عبادة بلا منهج . فالآلهة التى ليسى لها أوامر تكليفية تترك لتتبع شهواتك كما تشاء ، وهذا هو الذى يتمناه الكفار فلا يرغبون فى التكليف

نبي الله هود عليه السلام

 ٦٢

التي هي بمثابة قيد على شهواتهم وأهوائهم . وفي نفس الوقت يزعمون أنهم مؤمنون ولهم آلهة ، ولذلك فإن كثيراً من الذين اعتنقوا الباطية والبهائية والقاديانية وغير ذلك من الدعوات الهدامة المنتشرة في صفوف المتعلمين والجهلانيين لا يقيدون شهواتهم بل يتركون لها العنان لتفعل ما تشاء .

وقولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أى : أننا لن نترك آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ نجد هنا : ﴿ إِنْ ﴾ بمعنى : النفى و ﴿ إِلَّا ﴾ أداة إستثناء . أى : ما نقول إلا هذا القول لأنك سفهت آلهتنا وأبطلت ألوهيتهم فغضبوا عليك وأصابوك بالسوء والجنون .

قال لهم نبي الله هو عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود] إذن .. نوح أشهد الله ، وأشهدهم بأنه برىء مما يشركون من دون الله ثم تحداهم فقال : ﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴾ وهذه هي معجزة هود أنه تحداهم وهو واحد وهم كثرة طاغية متجبرة وقال لهم : ﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ﴾ وأنا معى قلة قليلة ضعيفة وأنتم أقوىاء جبابرة ورغم هذا فلن تستطيعوا أن تمسوني بسوء . هذه معجزة هود فى أنه تحدى ولا يوجد أحد يجازف بحياته وحياة المؤمنين كاملة ، ولكنه قال لهم اقتلونى ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون . وهود فى هذا مستند إلى قوة الله فهو سبحانه الذى أرسله إليهم ، وهو الذى سيعصمه منهم إن أرادوا به سوء .

ولذلك قال هود : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود: ٥٦] ثقة منه بالله تعالى خالقه ومرسله ، وإذا كان

نبي الله هود عليه السلام ٦٣

ذلك كذلك فلن يمكن الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم منه ، لأنه ما من دابة إلا هو سبحانه أخذ بناصيتها . والناصية هي مقدم الرأس ، وعندما تريد أن تهين أحدا تمسكه من مقدم رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن : ٤١] فالناصية التي هي مكان الفكر والشرف في الرأس . وذلك حتى يعرف الكفار أنهم لن يقدرُوا على هود لا بقوتهم ولا بقوة مخلوقات الله الأخرى . كأن يسلطوا عليه الحيوانات المتوحشة أو غير ذلك حتى يقتلوه لأن كل ما يدب على الأرض خاضع لله لا يمكن أن يفعل شيئا إلا بإذن الله ومشيئته .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] ولم يقل إن ربي وربكم على صراط مستقيم لماذا اختلف السياق ؟ فعندما ذكرت السيطرة قال : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود : ٥٦] أى : أن الله تعالى مسيطر على الكون كله ، لذلك قال : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لأنكم وإن كنتم كافرين لا تستطيعون أن تخالفوا مراد الله في كونه في القهر والقدرة فهو سبحانه لا يفلت منه شيء .

أما قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لأن الصراط المستقيم هو طريق الله وحده .

أما آلهتهم المزعومة فليس لها صراط ولا إستقامة ولا منهج . يقول الحق تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود : ٥٧] . قوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ : خطاب للكافرين جميعاً بأن ما على الرسل إلا البلاغ إنذاراً وأعداءً ، وقد أبلغهم نبي الله هو عليه السلام رسالة الله إليهم .

نبي الله هود عليه السلام

وقوله : ﴿ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [هود: ٥٧] الخلفة هنا أن يأتي قوماً خلقاً لقوم ؛ أي بعدهم . أي : أن الله سبحانه وتعالى سيهلكهم ويأتي بقوم غيرهم مؤمنين .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٧] أي رقيب على كل أمور كونه لأنه قيوم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٧] ساعة تسمع ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ تعرف أن هناك أمراً وأمراً مطاعاً سينفذ والآن حانت ساعة التنفيذ مجرد صدور الأمر من الله يعني حانت ساعة التنفيذ لأن الكون يأتمر بأمره . ولكن هل العذاب عندما يأتي بشكل عام يشمل المكذب والمصدق ؟ فكيف يفرق بين المؤمن والكافر ؟ كيف يذهب للكافرين ويترك المؤمنين ؟

نقول : عندما تأتي الصيحة الشديدة فإنها تحرق آذان الكافرين ولا تحرق آذان المؤمنين ، لأن الذي أرسل الصيحة سبحانه أعطاهها وأمره بأن تصيب فلاناً ولا تصيب فلاناً .

إذن .. فالصيحة موجهة تذهب إلى من شمله العذاب ، وتترك الناجين من المؤمنين .

واقرا قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] ، والعجيب أن يأتي المتفلسفون كأنما يريدون أن يسهلوا المسألة على الله فيقولون : أصابهم بالطاعون أو سلط عليه الجراثيم ! نقول لهم : إن الجراثيم تحتاج لحضانة وأن

تبقى فى الجسد مدة طويلة ، والميكروب لىس بمجرد أن يلامس الجسد يجعله كعصف مأكول ! ثم كيف يأتى الطاعون أو الميكروب لجماعة أبرهة وتنجو منه قريش ؟ نقول لهم : إن من عظمة الإله أن ينجى المؤمنين ويهلك الكافرين بالشىء نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أى : أن الداء لا يمس المؤمنين برحمة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْنِيَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هناك نجاتان :
النجاة الأولى : من عذاب الريح الصرصر .

والنجاة الثانية : من العذاب الغليظ الذى ينتظرهم فى الآخرة .
ولكن لماذا غليظ ؟ لأن الغلظة تعطينا مفهوم المتانة والقوة . والعذاب فى الدنيا موقوت بقدرات الدنيا وزمنها وعمرنا فيها ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية .

إذن .. فعندما جاء أمر الله نجي هوداً والذين معه برحمة منه سبحانه ، ثم نجاهم من العذاب الغليظ فى الآخرة . وكان نجاتهم من عذاب الدنيا الموقوت بشاراة ومقدمة أنهم سينجون أيضاً من العذاب الغليظ فى الآخرة .



دعوة هود عليه السلام

فى أمر هود قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة مع قصة هود ، ففي البداية يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ وهذا أول اتفاق : نوح إلى قومه .. وهود إلى قومه ، ماذا قال نوح لقومه ؟ : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ ﴾ وماذا قال هود لقومه ؟ : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ ﴾ فنجد اتفاق الأسس الثابتة فى الدعوة إلى الله ومنهجه ، أولها : « لا إله إلا الله » فكل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة .

ولكن هوداً عليه السلام لم يقل : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

نقول : أن نوح كان أول الرسل بعد آدم لذلك أعلمه الله بما ينتظر الكافرين من عذاب ، وبأن الله سيهلكهم بعذاب سيأتيهم ، لأنه لم تكن هناك سابقة عذاب من الله لتأديب الكافرين والمعاندين . لكن هود جاء بعد نوح وكان الطوفان قد حدث وكان الناس عندهم سابقة علم بما حدث لمن سبقهم لذلك قال هود لقومه : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : أجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ، ولكم فيما حدث لقوم نوح عظة وعبرة .

فى قصة نوح ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٥] وفى قصة هود : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦]

الضلال هو البعد عن الحق . والسفاهة هي الطيش والخفة .

وأضاف قوم هود : ﴿ إِنَّا لَنَرِنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

أى : أننا نرجح أنك من الكاذبين لأن الظن هنا بمعنى اليقين .

فماذا كان رد نوح وهود عليهما السلام ؟ نوح : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي

ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦١] .

وهود ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ونوح قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهود قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] .

الفرق هنا أن نوح قال : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ .

وهود قال : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ما هو الفرق ؟

نقول : إن الفعل يدل على التجدد والإسم يدل على الثبوت . ونوح في

إلحاحه على قومه ليلاً ونهاراً وجهراً كان متجدد الدعوة . وهود كان ثابت

الدعوة ولذلك استخدم مع نوح الفعل ﴿ وَأَنْصَحُ ﴾ ومع هود الإسم ﴿ نَاصِحٌ ﴾

على أننا نلاحظ أن ﴿ لَكُمْ ﴾ موجودة في كلا القولين وهذا يفيد أن كل

رسالات الأنبياء هي لصالح البشر .

ثم بعد ذلك ذكّر هود قومه برحمه الله عليهم وفي هذا يقول الحق :

﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً

فَأذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] أى : أن الله سبحانه

أعطاهم أجساماً فارهة قوية ، وأعطاهم من النعم والخير الكثير ، فكان يجب

دعوة هود عليه السلام 68

أن يشكروا الله على كل هذه النعم ولكنهم بدلاً من الشكر واجهوا هوداً بموقف عجيب ! موقف يدل على سفاهتهم وضلالهم ، فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدِيثَهُ ﴾ [الأعراف : ٧٠] لقد رفضوا حقيقة الوجدانية لله وهى أساس رسالات الله إلى أنبيائه .

وكان ذلك سبب إنهيار حضارتهم ، التى قال الحق سبحانه عنها : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٨] ومعنى هذا أنها كانت حضارة أقوى وأعظم حتى من حضارة قدماء المصريين ، فهى حضارة بلغت القمة فى فن النحت والعمارة ورغم ذلك لم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والدمار لأنها ليست مبنية على قيم ثابتة ، لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق ، فأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، وانتهت حضارتهم دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وأسرار قوتها ، قال الله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِيَّانَا فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٥٢] فعليكم أيها الناس أن تأخذوا عبرة وعظة وأن تنتبهوا وتعودوا إلى الله ، خاصة وأنكم أقل منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم .

ومن الصفات المذمومة فى قوم هود ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣٦﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٧﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ كَبُرَتْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٨﴾ [الشعراء] وكل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هى : الكبر والتعالى ، لأنهم يريدون علواً واستبقاء خلود ، يريدون التفرد على الغير ! وهذا مخالف لما يريده الحق سبحانه من عباده فى الدنيا ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] فإن كنت يا أخى المؤمن تريد أن تقدم خدمة

فلا تقدمها للتعالي والتفاخر ، ولكن قدمها لتيسر للناس مصالح الحياة ، وأن يكون في بالك ربك ، فيظل أجرك ما دام وجد العمل ينتفع به إلى قيام الساعة ، وبهذه وحده تنمي عملك وتحفظه عند الله تعالى .



عذاب قوم هود

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَاذَرْنَا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّئَاتِهِم مَّا أَنشَأُوا وَأَبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴿٧٢﴾ [الأعراف] أفصح قوم هود عن علة شركهم فهم يقولون : أنهم لن يعبدوا الله وحده ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب ، فأوحى الله تعالى إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجس وغضب من الله .

ثم يقول الحق : ﴿ فَأَجْبَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن وسيلة النجاة في قوم نوح كانت السفينة . فما هي وسيلة نجاة المؤمنين من قوم هود ؟

لقد كان العرب قديماً إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى الله ليذهب عنهم السوء ، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . وعندما بدأ عذاب الله يصيب قوم هود أصابهم الجذب فلم تنبت الأرض ، فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة على رأسهم رجل اسمه : القيس ، ورجل اسمه : مرصد بن سعد ، وكانا لهم إخوان يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق ابن لاوث بن سام فلما قضوا فترة في مكة انتهوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون إلى الله أن يمطر أرض عاد ، فسمع داعيهم وهو قيل بن عنز هاتفاً يقول : اختر لقومك : هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة

عذاب قوم هود ٧١

تريدها أن تذهب لقومك ؟ فاختار السحابة السوداء لاعتقاده أنها مليئة بالمطر وعاد ومن معه إلى قومهم وأخبروهم بما حدث واختيارهم السحابة السوداء ، فلما رأوا السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا جاءنا المطر وذلك قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۗ ﴾ [الأحاف : ٢٤] هذا كان غاية ما يتمنون ولكن كان لله تعالى أمر آخر ، وهو عقابهم على الشرك به وعدم الإيمان برسوله فقال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ .

هذه قصة عذاب قوم هود أما هود فقد سمع هاتفاً يقول له : « أخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب » فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقي الله عز وجل .



نبى الله صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ نَوْمٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ [هود: ٦١] ، القوم : يطلق على الرجل عادة ولكنه يشمل المرأة أيضاً لأن المرأة مستورة فى طى الرجل . والقوم من القيام يعنى يا من تقومون بأمر الناس . ومن الخطأ فى الفهم ما يقال فى معنى قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ، فالناس تفهمها على أن معناها مسيطرون على النساء ، ولكن ﴿ قَوَّامُونَ ﴾ تعنى : قائمين على أمورهن فهى تكليف للرجال بالقيام فى كل أمور النساء فمطلوب منهم توفير المسكن والطعام لزوجته ولأولاده بينما هى فى بيتها متفرغه لزوجها وتربية أولادها وتنشئتهم تنشئة ترضى الله تعالى وتخدم المجتمع ، ومهمة الرجل أن يعمل ويشقى ليوفر لها كل شىء ، ولكن العجيب أن بعض النساء يرفضن ما اختاره لهن رب العالمين ، وما أشرفها من مهمة ، وأثقلها ، ويطلبن المشاركة فى الشقاء الدنيوى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يجنبنه أياه .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ [هود: ٦٢] الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون الاستعانة بأحد . والخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض لأن آدم هو الذى خلق من الأرض ونحن ذريته فنحن من الأرض مثله وكل شىء يأتي من الأرض ، فالطعام يأتي من الأرض ، والدم يأتي من الطعام فكل شىء مرده إلى الأرض التى خلقنا منها ونموت

فنعود إليها ويقول الحق سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه : ٥٥] .

لما دعا نبي الله صالح عليه السلام قومه إلى أفراد الله تعالى بالعبادة ، وترك ما يعبدون غيره ، وعلل لهم ذلك بأن الله تعالى هو الذى خلقهم ، وأوجدهم ، قالوا : ﴿ يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ ، ﴿ كُنْتَ ﴾ أى : فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرسالة . ﴿ مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ يعنى : نأمل على يدك الخير فما الذى جعلك تقول : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . ويمضون فى مجادلتهم ﴿ أَنْتَهَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أى : تقول لنا إن عبادة آبائنا للأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة وتطلب منا أن نتركها ؟ حجة باطلة تعلق بها كل الذين رفضوا الانصياع لأمر الله وشرعه والتصديق برسله ، ولو كان هؤلاء يعقلون لسألوا أنفسهم : هل هذه الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشيء أو تنهاهم عن شيء ؟ وسيكون الجواب بالطبع : لا ، إذن .. فلا منهج لها ، وكيف يكون إله بلا منهج !؟

وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : ٦٢] الشك هو استواء الطرفين : الإثبات والنفى . إذن .. فهم ليسوا على يقين من آلهتهم ، والذى منعهم أن يكذبوا صالحاً تكديماً قاطعاً فقالوا : ﴿ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ .

وقوم صالح كانوا أصحاب حضارة ، وكان عندهم فن العمارة ، دليل ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] فالذين شاهدوا مدائن صالح بجزيرة العرب رأوا كيف استطاع قوم صالح أن

نبي الله صالح عليه السلام

 ٧٤

ينحتوا بيوتاً في الجبال . لم ينوا بيوتاً في أرض فضاء وإنما نحتوا بيوتهم في الجبال ، تماماً كما نقوم بحفر الأنفاق في الجبال الآن .

ثم بعد ذلك ارتفعت حدة المجادلة بين قوم صالح ، وصالح عليه السلام ، فأمرهم بتقوى الله تعالى ، وأن يطيعوا كلام رسوله الذي أرسله سبحانه إليهم ، ولا يسمعوا لكلام المسرفين ، وذلك قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [المسرف] هو : الذي تجاوز الحد . والإسراف فيما شرع الله هو أن تتجاوز الحد في الحلال وتدخل فيه شيئاً من الحرام ، أو تأتي بشيء من الحرام وتدخل فيه شيئاً من الحلال وهؤلاء هم : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وذكرت الآية الإفساد وعدم الإصلاح معاً .. لماذا لم تكتف بواحد منهما ؟ لأن الإنسان قد يفسد في شيء ويصلح في آخر . لكن هؤلاء المسرفين لا يأتي منهم صلاح أبداً وإنما سائر أعمالهم تحت على الفساد .

هنا صعد قوم صالح من لهجتهم وقالوا له : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] تناقضت أقوالهم مرة يقولوا أنه ساحر ، ومرة قالوا أنه مسحور ، كيف يكون ساحراً ومسحوراً في نفس الوقت ؟ إذا كان ساحراً فلا يصبح أن يكون مسحوراً لأن الساحر يجعل لنفسه حصانة من السحر وإلا فإنه لا يصلح أن يكون ساحراً إذا لم يستطع حماية نفسه . والآية تعنى أنه أجرى له سحراً متوالياً عدة مرات والذي فعل له السحر شخص آخر . وهذا زعم باطل معناه أنهم يوجهون للنبي إتهاماً بلا دليل مجرد الا يتبعوه ولا يؤمنوا به .

وبرغبة الرسول في هداية قومه ، قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ يَنْقُورُ أَرَاءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ [مرد: ٦٣] .

٧٥ نبي الله صالح عليه السلام

أى أخبرونى وكأنه ارتضاهم حكماً إذا كنت أنا على بينة من ربى و يقين أنه أرسلنى و أيدنى فماذا تطلبون منى ؟ هل أترك يقينى برى إلى ضلالات و خرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وقوله : ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ هى : المنهج والنبوة والرسالة .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يَضُرِّيْكَ مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ قولوا لى : أين أذهب إن عصيت الله ؟ وكيف أتقى عذابه ؟ والجواب الحتمى هنا : لا أحد منا يستطيع أن يفلت من عقاب الله .

وقوله : ﴿ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ التحسير هو الإهلاك أى أننى لن أزيد بطاعتكم إلا هلاكاً .



ناقة صالح

الحق تعالى يقول : ﴿ وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ [هود: ٦٤] حينما يقال هذه ناقة الله فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة وأن الله أستجاب لرسوله وأعطاه المعجزة التي طلبوها .

قالوا : إن كنت رسولاً حقاً فأت لنا من هذه الصخرة بناقة !!
صالح عليه السلام بعد أن أنذر قومه عذاب الله وبشرهم برحمته طلبوا منه آية دالة على صدقه في البلاغ عن الله تعالى .

فدعا صالح ربه فانشقت الصخرة أمامهم عن الناقة فلم يستطيعوا أن يقولوا ناقة من هذه ؛ فقالوا : ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ وهكذا شهدوا بالمعجزة . فقال لهم صالح : ما دامت ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ف ﴿ لَمَّا شَرِبُوا وَلَكُرَّ شَرِبُ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴾ أى : هى تشرب يوماً وإبلكم تشرب يوماً ، فوافقوا على ذلك .

وكانت المياه فى مدائن صالح قليلة ، فكانت ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن ، فتأتى إبل غير المؤمنين فلا تجد ماء ، أما المؤمنون فقد كان لبن الناقة يكفيهم جميعاً ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شىء . وكانت هناك امرأتان لهما إبل فلم تجد لها ماء لأن المياه فى الآبار قلت جداً فذهبت إلى رجل اسمه « أحيمر ثمود » وأغربتاه على قتل الناقة فقتلها .

فلما قتلت الناقة صعد فصيلها على صخرة تسمى : « القارة » ورغا ثلاثة أصوات فقال صالح : يا قوم : أدركوا هذا الفصيل لعل الله يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجده . حينئذ أبلغ الله صالحاً أن العذاب ، سيأتى بعد ثلاثة أيام .

فى اليوم الأول : يروا سحابة مصفرة .

واليوم الثانى : سحابة محمرة .

واليوم الثالث : سحابة سوداء ثم يأتيهم العذاب .

والحق تعالى يقول : ﴿ قَالَ يَنْقُورٍ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ١٤٦] .

ما هى السيئة هنا ؟ وما هى الحسنة هنا ؟ السيئة هى استعجالهم نزول العذاب عليهم عندما دعاهم نبيهم إلى الإيمان فقالوا : ﴿ يَصْلِحْ أَمْرَنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] وهذا دأب الكفار فى كل مكان وزمان يستعجلون العذاب ولا يطلبون الهداية .

فهو يلومهم على استعجالهم السيئة قبل الحسنة ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم حين ينزل العذاب عليهم سيستغفرون ويتوبون فيرفع الله عنهم العذاب !! وهذه هى الحسنة التى أخروها ولكن ذلك لن ينفعهم لأن الاستغفار لا ينفع عند نزول العقاب .

فماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمَن مَّعَكَ قَالَ طَئِيرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : ٤٧] أى تشاء منا منك ، فقال لهم : هذا التطير ليس منكم ولكن طائركم عند الله لأنه قضاء مقضى عليكم فهل حركة الطير هى التى ستتحكم فيكم وتحدد عملكم ؟ قال العلماء : لأنه بعد أن أرسله الله إليهم ودعاهم فلم يستجيبوا له أصابهم قحط شديد وبلاء فقالوا : هذه المصائب بسبب هذا الرجل المشعوم . فلم يرجعوا إلى أنفسهم ويقولوا هذا عقاب لنا على كفرنا وعدم استجابتنا لنبي الله صالح ولكنهم اتهموا صالحاً بأنه نذير شؤم وجاء بكل المصائب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] والرهط اسم جمع ليس له واحد من لفظه ويطلق على العدد من ثلاثة إلى عشرة . ومعنى : ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ أى : يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه ، وفوق ذلك فهم لا يعملون أى عمل صالح ، فطبيعتهم الفساد فقط !

هؤلاء التسعة رهط المفسدون ماذا فعلوا ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴾ [النمل : ٤٩] انظروا القحة وقلة العقل والفساد ، يبيتون لقتل نبي الله صالح ويقسمون بالله ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء .

ومعنى : ﴿ تَقَاسَمُوا ﴾ أى : هيا نحلف بالله أن نبيت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته .

ومعنى : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ أى يعدوا له بيئات لا يقوم منه فلا يخرج عليه صباح بعده أبداً وذلك بأن يقتلوه ثم يقولون لأهله وأقاربه وأولياء دمه : إنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا الأمر . وفهموا أن الله يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ولكن الله كان لهم بالمرصاد .

قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] فهم يمكرون على باطل ويمكرون لتبويت شر ونسوا أن الله بمكرهم محيط ، وأنه ناصر رسوله ومؤيده .

والمكر : أن تنوى فعل شىء وتداريه على الخصم ، تظهر غير ما تبطن .

٧٩

 ناقة صالح

ومعنى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفيد أن المكر يجب أن يكون محبوكاً ومتوارياً لا يحس به أحد وإلا لو شعر به أحد أو علم به لما كان مكرراً .
ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم ؟ قال تعالى : ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥١] فكيف حدث ذلك ؟ إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحاً في مكان عند سفح الجبل واختبأوا فيه حتى ير بهم صالح فيقتلوه ، فبينما هم جالسون في هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم . فهم أرادوا أن يهلكوه فأهلكهم الله وقومهم أجمعين قال تعالى : ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥١] فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنا في ذلك لآية لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيماً ﴾ [الأعراف : ٦٨] فتولى عنهم وقال يلقوا لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون التصحيح ﴾ [الأعراف : ٦٨] .

وقوله سبحانه : ﴿ جِثِيماً ﴾ أى : حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التي كان عليها فالذى كان واقفاً ظل على وقوفه ، والذى كان قاعداً ظل على قعوده ، وكذلك الذى كان نائماً . أخذوا جميعاً على هيئاتهم . ويعطى لنا القرآن الكريم صوراً مختلفة لتأديب الله تعالى لشمود فمرة يقول الحق سبحانه : الرجفة ، ومرة الطاغية ، ومرة الصيحة ، ومرة الصاعقة . وكلها تؤدي معنى الحدث . وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه .
وقوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود : ٦٨] أى : كأنهم لم يقيموا فيها ، لأنها أصبحت خالية وكأنها لم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات .

ناقة صالح ٨٠

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ شَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ [هود : ٦٨] هذه حيثية
إهلاكهم وهم لعنوا فى الدنيا والآخرة ، وقد أعطانا الحق سبحانه بشاعة
جريماتهم حتى نعرف أن القصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة فنقول كما
قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا بَعْدَ إِشْمُودَ ﴾ [هود : ٦٨] .



نبى الله إبراهيم عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [إبراهيم : ٤١]
إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو القمة لأن الله حينما مدحه قال عنه :
﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٠] ومعنى ﴿ كَانَ أُمَّةً ﴾ : أنه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة . ومعنى
الصديق : هو الذى بلغ النهاية فى تصديق الحق . فيورثه الله شفافية وإشراقاً
فإذا سمع شيئاً عرف من أول نظرة الحق من الباطل ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] أى : يعطيك
موازن تفرق بها بين الحق والباطل دون أن تبحث المسألة وتتعب فيها .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤١﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] قوله : ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ كان الأمر
سينصرف لأبيه الحقيقى لكن ذكر فى مرة واحدة أن أباه آزر فى قوله تعالى :
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ [الأنعام : ٧٤] ولا يؤتى
بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد به العم . فالقرآن اعتبر العم أباً . فكأن
الأبوة شائعة بين الأب الحقيقى والعم . هب مثلاً أن واحداً يسأل ابناً عن أبيه
سيقول له : هل أبوك موجود ؟ لكن إذا أراد أن يسأل عن أب غير حقيقى ؛
عن عم مثلاً سيقول هل أبوك محمد موجود ؟

إذن .. لا يأتى بالعلم إلا حين يراد به الأب غير الحقيقى . لكن لو كان يريد
الأب الحقيقى فإنه يكتفى بقوله هل أبوك موجود ؟

كلمة : ﴿ يَتَأْتِي ﴾ يراد بها أنه وإن كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين « الأب والأم » فجاء بناء التأنيث لتشير إلى هذا ولذلك فهي لا تقال إلا في الحنانة المطلقة ويلاحظ هنا أدب الدعوة لإبراهيم يستفهم منه ويتفرق به قائلاً : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَأْتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم : ٤٢] فجاء بها على صيغة الاستفهام مستفهماً عن سبب عبادته للأصنام . ثم عاد وذكر كلمة : ﴿ يَتَأْتِي ﴾ ليشير في عمه غريزة الحنان والرحمة والمودة فقال : ﴿ يَتَأْتِي إِيَّيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ ﴿ يَتَأْتِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ ﴿ يَتَأْتِي إِيَّيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم] أى يا أبت لا تظن أننى متعال عليك وأننى أحسن منك أو أذكى منك وأتيك بكلام من عندى . ولكن أتيك بكلام من عند من هو أعلى منى ومنك فلا غضاضة فى ذلك . فأنا جاءنى علم لم يأتك فالمسألة ليست ذاتية ولد وعمه ، أو ذاتية ولد وأبيه لكن المسألة فوق الجميع .

بعد ذلك يأتى رد آزر على إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَأْتِيهِمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] والمعنى هل تريد آلهة غيرها يا إبراهيم ؟ .. إن لم تنته عن موقفك هذا من آلهتنا ﴿ لِأَرْجُمَنَّكَ ﴾ والرجم : هو الضرب بالحجارة ويبدو أنه كان طريقة التعذيب الشديدة فى ذلك الوقت . وكلمة أهجرنى أى ابتعد عنى ، وكلمة ﴿ مَلِيًّا ﴾ الملقى هو البرهة الطويلة من الزمن .

لكن ماذا قال إبراهيم رداً على هذا الكلام القاسى ؟ قال : ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] أراد أن يؤكد كلامه السابق أنه إن لم يستغفر له سيكون مصيره مؤلماً فذكره بالله وأنه

٨٢

نبي الله إبراهيم عليه السلام

سيستغفر له لأنه لا يرضى له بهذا المصير وحين يستغفر له يعلم أن ربه حفى به وكريم معه ولن يرد له طلبه فهو يريد أن يحزن عمه فى اتباع الإيمان كما أنه لم يستغفر له فى نفس الوقت ولكنه وعده بأنه سيستغفر له فى المستقبل لأنه يريد أن يبرىء هذا الاستغفار من المجاملة والنفاق والخداع لعمه وحتى يمهله لكى يعود ويرجع عن كفره .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَأَعْتَرِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] كلمة اعتزال معناها : ترك صحبة إلى خير منها ، والاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة للنقاش الباطل من الحق حتى لا تؤصل الجدل فالمسألة مبدأ إيمانى . ومعنى قوله : ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أى عسى ألا أكون شقيا بسبب دعائى لربى وعبادتى له .

بعد ذلك يأتى المقابل فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيَّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل فكان الحق سبحانه وتعالى يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما الله لإبراهيم جزاء صبره ونجاحه فى ابتلاء الرؤيا وذبح إسماعيل . فحينما صبر إبراهيم عليه السلام على الابتلاء فى ذبح ابنه إسماعيل ، وصدق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر الله ، فدى الله له إسماعيل ، ليس هذا فقط ؛ بل وبشره بإسحاق أيضاً وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فبشره به أيضاً لأن إسحاق هو الإبن الثانى لإبراهيم ويعقوب وهو ابن إسحاق وحفيد إبراهيم فكان الحفيد نافلة فى عطاء الذرية قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٥١﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٢] .

نبي الله إبراهيم عليه السلام

 ٨٤

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]
المعنى : ألم تعلم علم اليقين بأن هناك رجلاً حاج إبراهيم في ربه ؟ واستعمال حرف الجر ﴿ إِلَى ﴾ لتدل على أن هذا الأمر الذي يحدثنا عنه الحق قد بلغ من العجب غاية بعيدة .

وفي هذه الآية يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه لم يحدد لنا اسم الرجل الذي حاج إبراهيم في ربه لأن الحق سبحانه حينما يريد شيوع أمر وإمكان حدوثه في أى زمان ومكان فإنه لا يشخص الأمر لأن التشخيص يفسد المراد .
فذلك معناه الواضح أن أى محاجة فى الله تظل مدحوضة بما يريد الله من ثبات الإيمان فى بعض القلوب المؤمنة .

ويريد الله أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى أن الرسل فى جدلهم مع أممهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف للنبي أن يظفر بالغلبة وإنما هدفه الوصول إلى الحقيقة .

لذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع الرجل الذى يحاجه فى الله عند نقطة الإحياء والأمانة رغم أن أحداً لم يجرؤ أن يدعى القدرة على الإحياء والإماتة فسأله إبراهيم كيف تحى وتميت ؟ فقال الرجل : إن عندى من المسجونين عدداً وأستطيع أن أقتل منهم من أشاء فهذا الذى أميته وأن أمتنع عن قتل من أشاء فهذا كائى أحييته .

نبي الله إبراهيم عليه السلام ٨٥

وهنا أفحمه إبراهيم عليه السلام بسؤال لم يستطع له جوابًا وهو قوله :
﴿ قَائِلَ اللَّهِ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، لقد بهت الذي كفر ولم يجرؤ على الرد على حجة إبراهيم عليه السلام وفقد القدرة على مراجعة إبراهيم وحدث البهت لمن كفر ، أمر ليس بعجيب لأنه بلا ولاية من الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان .
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١] .
والرشد هو اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير بحيث لا يأتى بعد الصلاح فساد ولا بعد الخير شر .

وهذا الرشد له نوعان : رشد بنية ورشد معنى . فرشد البنية هو اكتمال تكوين الإنسان بحيث أن كل جهاز فيه يقوم بوظيفته خير قام ، وهذا يحدث عادة بعد البلوغ هذا بالنسبة للرشد المادى . وهناك رشد أعلى يأتى للقامة الفكرية وهو العقل والذهن الذى يختار به الإنسان بين البدائل وهو لا يأتى إلا من الله سبحانه ، وأعطاه إبراهيم قبل أن يبلغ سن الرشد التى يحتاج إليها غيره من الناس . فقد أنكر على قومه عبادتهم للأصنام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] . وهذا ليس استفهامًا حقيقيًا ، ولكنه استفهام تقريرى وتوبيخى لهم كأنه ينكر ما هم عليه من ضلال وانحراف ، إنهم كانوا يعمدون إلى أشياء يمكن نحتها أو تشكيلها ويجعلونها على صورة إنسان ويصنعون منها التماثيل الصغيرة والكبيرة . يصنعونها من الحجر أو النحاس والحديد أو العجوة وغير ذلك ؛ وببالغون فى بعضها فيصنعونه من المرمر ويضعون فى عينيه خرزًا لامعًا حتى يخيل للرأى أن له عينين ، فالقوم كانوا يتفننون فى صناعة هذه التماثيل .

نبي الله إبراهيم عليه السلام

ومعنى ﴿ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى : مقيمون لأن الاعتكاف هو الإقامة ،
ولأن كلمة عكف معناها أقم ، فالإنسان يعكف على الشيء أى يقيم عنده ،
واللام فى قوله : ﴿ لَهَا ﴾ ليست بمعنى « على » كما قال بعض العلماء ،
ولكنها لام الملكية ولام النفعية لأنهم يعكفون لصالح هذه الأصنام كأنها
تملكهم وتسخرهم كما تريد لأنهم يعبدونها ويتقربون إليها .

فلما سألهم إبراهيم عن سر عكوفهم على هذه التماثيل ردوا عليه بقولهم :
﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] .

إذن .. لا حجة لهم إلا التقليد .. فليس عندهم حجة لذاتية العمل ولكن
حجتهم التقليد ، فهم فى ضلال لأنهم قلدوا آباءهم والإيمان لا يكون بالتقليد
وآباؤهم فى ضلال لأنهم اقترحوا هذه المسألة .

وهذا دليل على عدم الفهم لأن العبادة هى أن يطيع العابد المعبود والأصنام
ليس لها أوامر وليس لها تكاليف .

وبعد ذلك جاء رد إبراهيم عليهم : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء : ٥٤] . ولأن هذا الرد كان غريباً عليهم ولم يكونوا
يتوقعونه ؛ لذلك ظنوا أنه يمزح معهم ؛ ولذلك استغربوا منه أن يصفهم
وآباءهم بالضلال فكان ردهم عليه : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ،
فأخبرهم أنه جاءهم بالحق من عند الله بالذى أمره أن يدعوهم إلى نبد عبادة
الأصنام وأن يعبدوا الله وحده ؛ لذلك قال : ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٦] .

وكلمة : ﴿ بَلْ ﴾ تفيد أن كلامهم الذى قالوه وأصنامهم التى يعكفون
عليها لا تنفع ، لأن الرب المستحق للعبادة هو الله خالق السماوات والأرض .

بعد أن قال لهم هذا الكلام ، وأقام عليهم الحجة ، وبين لهم طريق الحق جادلوا بالباطل ، وتملكهم العناد والغرور ، ولم يستجيبوا له . فبكر إبراهيم في الانتقام من أصنامهم حتى يبين لهم أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع أن تحمي نفسها فقال : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] .

والكيد لا يكون للأصنام لأنها لا تعقل ولا تشعر بشيء ، ولكن إبراهيم بتكسيه للأصنام يكيد قومه الذين يعبدونها فهو يكيدهم في أصنامهم ، أما الأصنام نفسها فهي تسبح لله مثل كل شيء في الوجود ، وتبترأ من عبادتهم لها من دون الله .

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [١١] فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٢﴾ [الصافات] .
 كلمة : « راغ » معناها تسلل خفية حتى لا يراه أحد ، وعندما وصل إلى الأصنام أول شيء فعله استهزأ بهذه الآلهة وقال لهم : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، كأنه يعرض عليهم الطعام إن كانوا جوعى فلم يردوا عليه ، فقال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴾ [الصافات : ٩٢] . آلهة لا تنطق ولا تتكلم وكان رده عليهم هو تكسيههم وتحطيمهم ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩٣] . واليمين تعنى القوة والقهر والغلبة .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا مَّمَّنَ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨] .
 ومعنى ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ الجذاذ هو القطع المتناثرة مثل الحطام ، فالشيء الذى كان له هيكل ومنظر تقطع وتفتت إلى قطع متناثرة ، فحطم الأصنام كلها وترك الصنم الأكبر لعلهم يسألونه عما حدث لباقي الأصنام ، فلما ذهب القوم كعادتهم إلى مكان الأصنام ووجدوها مكسرة ومحطمة غضبوا

وثاروا . ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٩] .
فالذى فعل هذا الفعل فى نظرهم ظالم ومجرم ، لأنه اعتدى على الآلهة
السليمة وكسرها ، ولكنهم لم يفكروا لحظة فى أن يراجعوا أنفسهم فى عبادة
آلهة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، لما أخذوا يسألون عن الجانى الذى
اعتدى على الآلهة وحطمها ، تطوع بعض القوم بالإبلاغ عن إبراهيم بما
علموا عنه من كراهيته للأصنام ، لأن القوم كان لهم يوم من الأيام يذهبون
فيه إلى ناديتهم الذى يجتمعون فيه عند الأصنام ، ويضعون لها الطعام
والقرايين ، وفى هذا اليوم الذى يتجمعون فيه عند الأصنام ، أراد عم إبراهيم
أن يأخذه معه ، لعله يهتدى إلى عبادة آلهة آباءه وأجداده ، ولعل صنما يجذبه
إلى عبادته !

وحاول القوم أن يصحبوه معهم ، ولكنه رفض أن يذهب معهم وقال لهم :
﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] ، فأخبرهم أنه مريض ، ولن يستطيع أن
يذهب معهم ، وعزم فى نفسه على تحطيم تلك الأصنام التى يعبدونها فكأن
أحدًا سمعه وهو يحدث نفسه بتكسير معبوداتهم ، فأخبرهم بأن فتى اسمه
إبراهيم كان يذكر الأصنام بسوء ، فاتفقوا على أن يأتوا به على مشهد من
القوم حتى يكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه التعدى على الآلهة ،
فلا يجترئ أحد بعد ذلك على مثل هذه الفعلة .

ومعنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أى يشهدون ما سيوقعونه به حتى لا يجترئ
أحد على مثل هذا الفعل مرة أخرى .

فذهب القوم وأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ووجهوا إليه الاتهام :
﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٢] ، فرد عليهم

٨٩ نبي الله إسماعيل عليه السلام

إبراهيم بثبات المؤمن وكأنه يتغرب جهلهم وغضبهم بسبب آلهة مزعومة لا تنفع ولا تضر . ﴿ قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ثم قال لهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَاءُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ كان إبراهيم ينتظر منهم أن يقولوا أن كبير الأصنام لا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذا .. وحينئذ تقول لهم إذا كان عاجزاً عن أى فعل فلماذا تعبدونهم ؟ وهذا ليس كذباً من إبراهيم ، ولكنه توبيخ للقوم الكافرين حتى يصلوا إلى الجواب بأنفسهم ، ويقتنعوا بأن الأصنام لا تستحق العبادة ، وأنهم على ضلال ويجب عليهم أن يستجيروا للحق .

ولكن القوم لم يسألوا الأصنام ، لأنهم يعرفون أنها لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فبعد أن غلبهم الواقع أمامهم ، ودفعهم إلى محاولة قول الحق ، تذكروا ما يجره عليهم هذا الحق من فقدان لمكانتهم وسلطتهم الزمنية . أى أنك تعلم أن هذه الآلهة لا تنطق فيرد عليهم إبراهيم و يقيم عليهم الحجة ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تعبدونهم من دون الله مع أنهم لا ينفعونكم إن عبدتموهم ولا يضرركم إن تركتم عبادتهم .

وكلمة : ﴿ أَفِي ﴾ معناها التضجر فهذا شيء يضايق النفس ويغيظها ، وهى فى اللغة ليست اسما ولا فعلاً ولا حرفاً ، ولكن يسمونها فى اللغة « الخالفة » ومعناها : أنها اسم مدلولة فعل فهى اسم معناه فعل مثل هيهات معناها بعد .

ويسمونها الخالفة ، لأنها خالفة الأقسام الثلاثة الموجودة فى اللغة هل هذا معقول أن تعبدوا ما تصنعوه بأيديكم وحين يقع تعدلوه ، وإذا كُسر تصلحوه ، وإذا جرفه السيل وغطاه الطين تغسلوه وتضعوه مكانه وتعبدوه ، هل هذا معقول ؟ فماذا كان ردهم .

﴿ قَالُوا ابْتُوا لِمُ بُيِّنَا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الصافات] .

لم يستجيبوا لنداء العقل بل عزموا على الانتقام من إبراهيم ، واتفقوا على حرقه بالنار ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمَّ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .
شئ عجيب آلهة ينصرها المخلوقون اتفقوا على أن يحرقوا إبراهيم .
وروت كتب التفسير ، أنهم بنوا بناء ووضعوا فيه حطبًا وأخشابًا ووقودًا وأشعلوا نارًا ، وظلوا أربعين يومًا يسجرون فيها ، - يزيدونها اشتعالًا - ويلقون فيها كل شئ قابل للاشتعال وبلغ من فظاعة هذه النار أن الطير التى كانت تطير فوقها تقع محترقة ، واستدل العلماء على ذلك من أنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار ليلقوا إبراهيم فيها فصنعوا منجنيقا عاليا ووضعوه فيه ، وألقوه فى النار وهم بعيدون عنها ، حتى لا تلفحهم شدة حرارتها ولكن الحق سبحانه الذى تعهد بنصر رسله وعباده المؤمنين . لم يترك نبيه إبراهيم لانتقام الكافرين ولكنه سبحانه حماه وحفظه من شرهم وحينما ألقاه قومه فى النار المتأججة ليحرقوه ويقضوا على دعوته يأتية جبريل وهو فى هذا الموقف الرهيب ويسأله ، إن كان يريد منه شيئًا فيرد عليه بثقة وثبات « أما إليك فلا » لم يجزع ، ولم يفزع ، بل كان واثقا من نصر الله له فأمر الله النار ﴿ كوني بردًا ﴾ وقبل أن يخصص نار إبراهيم انطفأت كل نار فى الدنيا حتى تحدد

الأمر بأنه خاص بنار إبراهيم وحدها فساعة قال سبحانه : ﴿ يَنَارُ كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا ﴾ [الأنبياء : ٦٩] انطفأت كل نيران الدنيا ، إلى أن قال الحق : ﴿ عَلَيَّ
إِبْرَاهِيمَ ﴾ فاشتعلت النيران الأخرى ، وامثلت نار إبراهيم للأمر فكانت بردًا
وسلامًا على إبراهيم أى بردًا لا يؤذى .

إن معجزات الرسل هي خرق نواميس الكون السائدة لأنه لا يخرق الناموس
إلا خالقه سبحانه .

إذن .. الذى يعطل ناموس الأشياء هو خالق الأشياء ، لأن الأشياء لم تخلق
ليكون لها القدرة على قيومية نفسها ولكنها مخلوقة لتؤدي مهمة ، ولكن
الذى خلقها لهذه المهمة يستطيع أن يسلب منها هذا الوظيفة أو المهمة ، لأن
الخالق مسيطر على الناموس الموجود فى الكون .. والنار طبيعتها الاحراق فهي
تظل على هذه الحالة بأمر الله - لكن إذا أراد سبحانه أن يسلبها خاصية
الاحراق ، فإنه يأمرها بالألتحرق - فتتوقف عن الإحراق ، وهذا ما حدث مع
سيدنا إبراهيم .

إذن .. معجزة إبراهيم جاءت تحديًا لقومه ، لأنهم أرادوا أن ينتقموا لآلهتهم ،
وهي الأصنام بالشكل الذى يمجدها والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مشهد منها
ليكون الانتقام من إبراهيم انتقامًا تباركه الآلهة ، وتجعله رهيبًا كل شىء معد
لتمجيد آلهة غير الله سبحانه وتعالى ، جاءوا بالحطب ، وأوقدوا النار الهائلة ،
وآتوا بإبراهيم . والسؤال هنا لماذا جعلهم الله يأتون بإبراهيم ليحرقوه فى النار
أمام آلهتهم ؟ كان من الممكن أن يختفى إبراهيم فى أى مكان ولا يظهر ..
وكانت هذه مسألة ممكنة تقى إبراهيم الحرق وتجعلهم لا يعثرون عليه - ولكن
لو حدث هذا لقالوا لو أننا قبضنا عليه لأحرقناه .. وكانت ستظل قوة الآلهة

نبي الله إبراهيم عليه السلام

 ٩٢

المزيفة التي يعبدونها مسيطرة عليهم - ولذلك لا بد ألا يهرب إبراهيم بل يقع في أيديهم ليشهد القوم جميعًا سفاهة معتقداتهم ، وعجزها أمام قدرة الله . وكان من الممكن أن تنطفئ النار لأي سبب من الأسباب . كأن ينزل المطر من السماء فيطفى النار - ولكن هذا لم يحدث لماذا ؟ لنفس السبب لأنه لو انطفأت النار لقال الكفار أن آلهتنا كانت قادرة على أن تحرق إبراهيم ، ولكن السماء أمطرت ، فإبراهيم لم يهرب ، بل وقع في أيديهم والنار لم تنطفئ بل ازدادت اشتعالًا ، ثم ألقوا بإبراهيم في النار فإذا بالله سبحانه وتعالى يبطل خاصية الإحراق في النار ، وتكون بردًا وسلامًا على إبراهيم . إذن .. فالخطاب للنار ذات المواصفات الخاصة وهي الإحراق ، فلو قال لها الله كوني بردًا لانطفأت النار ولكن قال لها : ﴿ يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ **إِبْرَاهِيمَ** ﴾ .

أى لا تكونى بردًا وسلامًا فى ذاتك ولكن على إبراهيم ، فهم أمسكوه وألقوه فى النار المشتعلة التى لم يطفئها مطر ولا رياح ، ومع ذلك لم ينالوه بأذى وجعلهم الله الأسفلين فى الكيد ، لأن الكافر حين يكيد للمؤمن يتصدى له رب المؤمن ، وإذا أردت أن تعرف قوة الكيد فانسبه إلى فاعله . وكما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين ، كذلك عبادة الكواكب ضلال مبين . ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى **إِبْرَاهِيمَ** مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام] .

جن : تفيد الستر والتغطية وكلمة هذا ربي لا تخدش فى وفائه الإيماني ولا بد أن لها وجهها ، ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم

أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ... فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له ، لكن إبراهيم استخدم ما يسمى فى الجدل بـ « مجارة الخصم » ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

وحين قال إبراهيم : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هى الرب ، فكأنه قال سلمنا جدلا أنه ربكم لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وأنا ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ [الأنعام : ٧٧] .

وأقول النجم والقمر وغروب الشمس أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات ، فلا يمكن أن يكون قد فوجئ بأن النجم قد أفل أو أن الشمس قد غابت ولكنه كان يعلم ذلك جيدا - ولذلك فإن كل حوار كان سخرية منهم وتهكما عليهم لأنه كان يعلم مقدما أن الشمس ستغيب ، وأن القمر لن يبقى فى السماء طوال الليل والنهار ، ولذلك أراد أن يلفتهم إلى هذه الحقائق التى غابت عن فطنتهم .

ويقول لهم كيف يمكن أن يغيب إله عن خلقه ؟ وفى هذه الحالة يكون المنطق الذى قاله يحقق نيته فى إنكار هذه الألوهية .

ونلاحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب قال : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧] . وفى هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ويكون قوله ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ لونا من التهكم .

﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بِأَرْعَاةٍ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ [الأنعام : ٧٨] كان لا بد من المنطق اللغوي أن يقول : « هذه » لأن الشمس مؤنث لكنه يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقاً عن أن تلحق بها علاقة التأنيث ، وحين تأفل الشمس يقول : ﴿ يَنْقَوِرُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٨] وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التي قالها ، وحين يسمعها أى عاقل لا بد أن يعلن اتفاقه فى هذا الأمر لأنه كإنسان مؤمن ، لن يغش نفسه وبالتالى لن يغش قومه ، وهذا ما يبينه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، وبعد ذلك تدخل فى العمل المصلح العمل الإيجابى ؛ ولذلك قال لهم : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

إنه يقدم برهانه لقومه ، أنه يعبد الله وحده الذى خلق السموات والأرض رافضاً كل فساد فى الكون ومعنى : ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

هل اقتنع القوم بذلك ؟ لا بل أخذتهم العزة بالإثم وأصروا على الضلال ، ولذلك فقد بدأوا يجادلونه فى الله .

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾
كأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى الله الذى فطر السموات والأرض ؛ لذلك يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف .

ما هى حجبتهم ؟ وهل يملكون حجة ؟ طبعاً لا إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق ، بل يستخدمون الخرافة على أساس التخويف ، فيقولون له لو كفرت

٩٥ نبي الله إبراهيم عليه السلام

بالهتنا فإنك ستعرض لانتقامها ، وستفعل بك كذا وكذا فيرد عليهم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحدًا لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا ، لأن الضار والنافع هو الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول لهم أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع ، وأنا آمنت بمن يضر وينفع فمن منا الذى يخاف .

وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن نصل إلى الحقيقة ، دون أن يحرك ذاتية المخاصم التي تأبى أن تنهزم ، وكان إبراهيم يستطيع بدلا من أن يقول : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨١] كان يستطيع أن يقول : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ ولكنه لم يقل هذا بل قال : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ [الأنعام : ٨١] حتى لا يتشبث القوم بالباطل ويشعرون أنهم قد انهزموا فى المناقشة .

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع لأن إقامة الحجة ، على الغير انتصار والانتصار رفع لدرجة موضوعك ولموضوع عملك .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

بعد ذلك يذكر الحق سبحانه عن خليله إبراهيم ، أنه لما هاجر من بلاده سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا فبشره الله تعالى بغلام حلیم وهو إسماعيل .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات] وهو إسماعيل عليه السلام ابن هاجر ، وسارة لم يكن معها أولاد ، فلما انجبت هاجر ابنها إسماعيل حدث شيء فى نفس

نبى الله إبراهيم عليه السلام

سارة مما يحدث فى نفوس النساء ، وأخذت تلح على إبراهيم أن يدعو ربه أن يرزقه بغلام منها على الرغم من أن سارة هى التى زوجت هاجر لإبراهيم لكن اشتدت غيرتها منها ، وطلبت من إبراهيم أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما عند البيت الحرام وإسماعيل ما زال رضيعًا ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا أحد ، فلم يجبهها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له آله أمرك بهذا قال : اللهم نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى كان عند مكان لا يرويه استقبال بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

فهى مسألة صعبة على النفس ؛ ولذلك فإن هاجر صبرت وتأكدت لها هذه المسألة عمليًا ، فيعطش ابنها وينفذ الماء الذى فى السقاء ، ويتألم الرضيع من العطش فماذا تفعل ؟ تقوم بمجهود بشرى نظرت إلى الوادى جبال هنا وهناك ، فراحت هاجر تستشرف بين الصفا والمروة لعلها ترى نبع ماء أو طيرًا ينزل على مكان ماء .

أو لعلها تعثر على قافلة تعطيها بعض الماء - وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط - ولنا أن نتخيل امرأة فى مثل عمرها وفى وحدتها وفى مثل ظروفها ماذا يمكن أن تفعل لابنها الصغير العطشان ؟ وعندما يبلغ بها الجهد حد التعب تعود إلى حيث يوجد الوليد ، إن السعى لم يأت لها بالماء ولكنها قالت إن الله لن يضيعنا وصدق قولها لن يضيعنا ، فلو أنها وجدت الماء عند

الصفاء أو عند المروة لما كان لقولها لن يضيعنا مدلول ولكنها أخذت بالأسباب ولم تجد الماء ثم وجدته عند قدمي إسماعيل .

لقد أراد الله أن يقول لها - نعم أنا لا أضيعك لذلك جاء بالماء بلا سبب منك عند قدم الوليد - لقد ضرب إسماعيل الأرض بقدمه الصغيرة ، فانفجرت الماء وبقيت شعيرة السعى بين الصفا والمروة ، لتذكرنا بهذه القضية الإيمانية التي أراد الله منها استيفاء الجمع بين سببية الأسباب في الجوارح وبين الإيمان به والتوكل عليه في القلوب .

ثم يكبر إسماعيل ويفديه الله بالذبح العظيم من السماء ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ﴿١٣٦﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَابَرَهَيْمُ ﴿١٣٧﴾ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ ﴿١٣٩﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٠﴾ [الصافات] ، ثم قام إبراهيم وابنه إسماعيل برفع القواعد من البيت ، وهذا يعنى أن البيت محددة معالمه أو قد بنى من قبل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] والناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ولذلك قيل إن الملائكة هي التي بنته ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُورِكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

حين جاء الأمر لإبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج ، قال يا رب ومن الذي سيسمع صوتي بالآذان ؟ فقال له سبحانه : أذن وعلى البلاغ فصعد على جبل أبي قبيس وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام

نبي الله إبراهيم عليه السلام

والأصلاب وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر من كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة قال : « لبيك الله لبيك » ، ومعنى : « لبيك » أى أن كل مشاغل الدنيا تطلبنى وأنت طلبتنى فأنا ألبيك أنت أولاً لأنك خالق الأشياء التى تشغلنى عنك .

ولذلك نحن نحتج عليهم ، حين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق ونقول لهم لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح والفداء ورمى الجمرات وغير ذلك من المناسك عندكم فى الشام ، ولكنها هنا فى مكة لأن إسماعيل كان هنا فى هذا المكان .

ثم تذكروا جيداً أنكم قلتم فى كتبكم فى الأصحاح [٢٣، ٢٤ سفر التكوين] إن الله سبحانه أوصى لإبراهيم أن يصعد على جبل فاران وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه .

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق .

لأنه ورد فى الإصحاح [٢٤] [] ولد إسحاق وعمر إسماعيل ٤١ سنة فهذا دليل دامغ من عندكم ومن كتبكم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .



نبى الله إسماعيل عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨٩) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء] هؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا من الصابرين ، والصبر صفة فى الرسل الذين يرسلهم الله تعالى ، وهؤلاء الثلاثة خاصة اشتهروا بهذه الصفة . فإذا ذكرنا صبر إسماعيل عليه السلام نجد أنه صبر فى ذاته على أن يذبحه أبوه برؤيا منامية وقال له : ﴿ يَا بَتِ أَخِيكَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فهل بعد هذا الصبر من صبر ؟!! يوافق أباه على أن يذبحه لمجرد رؤيا ، ويصبر فينجيه الله تعالى .

وقبل ذلك يعيش فى واد غير ذى زرع ، ويتحمل الحياة الصعبة فى صحراء جرادء لا زرع فيها ولا ماء . وحتى عندما كبر واشتد عوده لم يبحث له عن منطقة خصبة ذات رزق وفير ، ولكنه ظل بجوار بيت الله الحرام يرعى شئونه ويعظمه ويقوم فيه الصلاة ويرضى بالقليل من الرزق . ويتجه لهذا الصبر من إسماعيل فإن الله يعطيه ما هو أفضل من الزروع والثمار ومتاع الدنيا كلها ويكفى أن يكون من ذريته محمد بن عبد الله ﷺ سيد الأولين والآخريين . وعن خلق إسماعيل عليه السلام يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٩١) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٩٢﴾ الحق هناك يقول إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين فى وعودهم .

نبى الله إسماعيل عليه السلام **=====** ١٠٠

ولكن هذه صفة بارزة في شخصه ، والإنسان يمكن أن يصدق في موعد أولقاء أو قضاء مصلحة ، ولكن إسماعيل صدق في حياته التي هي أعلى شيء عند الإنسان فحينما أخبره أبوه أنه رأى في المنام أنه يذبحه ، لم يتردد لحظة وقال لأبيه : ﴿ أَفْعَلْ مَا تَوَمَّرْتُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ فهذا صدق وعد حقيقى لأن الإنسان يصدق الوعد فيما يملكه لكن أن يصدق الوعد في أمر يتعلق بحياته وهو أمر رآه غيره ولم يره هو ورآه فى رؤيا ، والرؤيا لا يثبت بها الحكم إلا عند الأنبياء ، فشجع أباه على تنفيذ ما رأى ووعدته أنه سيكون من الصابرين وأسلم له رقبتة ليذبحه .

والذى يزيد من عذاب الإبتلاء على الناس أنهم لا يرضوا به . لكن الذى يرضى بالقدر إما أن يرفعه الله عنه ، أو يبين للمقدور عليه خير هذا القدر . ومن هنا نعلم أن كل شيء ينزل علينا من قضاء الله لا رفع له إلا بالرضا ، فلا يرفع قضاء عن خلق إلا إذا رضوا به ، والرضا بقدر الله يكون فى كل شيء مثل الموت ، وأقضية الحياة التى لا تسر الإنسان ولا تسعده . فلو أن أحداً أقل منك كفاءة فى العمل ، ولكن جعله الله رئيساً عليك فلا تناصبه العداة ولا تحقد عليه ، لأنه لا أحد يأخذ ملك الله غضباً عنه فإذا لم تحترم هذا الإنسان فأحترم قدر الله فيه ، ولذلك يقول الرسول ﷺ : « اسمعوا واطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ ﴾ فهذا شيء عادى بالنسبة للأنبياء ولكنها عند إسماعيل عليه السلام خصلة كبيرة . فمن أراد أن يأخذ خصلة من خصال الأنبياء فليأمر أهله بالصلاة . واختص الأهل بهذا

١٠١

 نبى الله إسماعيل عليه السلام

الأمر لأنهم البيعة المباشرة للرجل التي إن صلحت صلح للرجل كل بيته
وصلحت له كل ذريته لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يذكروا ربهم خمس مرات
فى اليوم والليله فهذا لا يجعل للشيطان مجالاً للدخول بينهم . ولذلك
الرسول ﷺ يقول : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن
أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت
زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه بالماء » (١) .

ولأجل هذه الصفات المذكورة فيه عليه السلام فهو مرضى عند الله وهو
مرضى أيضاً لأن الله اختاره واصطفاه رسولاً (٢) .



(١) خرج الحديث

(٢) عن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله
عز وجل أصطفى كنانة من ولد إسماعيل وأصطفى قريشاً من كنانة وأصطفى من
قريش بنى هاشم وأصطفانى من بنى هاشم » أخرجه مسلم برقم [٢٢٧٦] .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين
ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة
من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » أخرجه البخارى برقم [٣٣٧١] .
وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله : « أول من فُتق
لسانه بالعربية المبينة لإسماعيل » صححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٢٥٨١] .

نبى الله إسماعيل عليه السلام ۱۰۲

الذبيح .. هو إسماعيل عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١١١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَكْتَابُتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٤﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١٥﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١١٦﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾ إِنَّكَ هَلَّا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٨﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٠﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢١﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الصفوات] .

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فبشره الله تعالى بغلام حلیم هو إسماعيل عليه السلام لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل فحين يتمنى رسل الله من الله الذرية فهي ليست كما نتمنى نحن فنحن نريدها ذكرى وعزوة لكن النبی يريد من ابنه أن يكون نموذجاً إيمانياً يرثه في حمل الفضائل وتطبيق منهج الله .
ولذلك زكريا يقول : ﴿ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴾
فقد عز عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جندياً من جنود بعث منهج الله في الأرض فقال يارب نحن سنموت فأدعوك أن تفر عينى بغلام يأتى بعدى ليقوم بهذا العمل .

ومعنى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لم يقل رب هب لى الصالحين لأنه أراد أن يهب الله له من ذريته من هو صالح ولكن من ضمن صلاح غيره فقال ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى ليس هو وحده الصالح ولكن معه غيره .

ومعنى ﴿يُعَلِّمِ حَلِيمٍ﴾ الحليم هو الذى لا يستفزه غضب ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاق نفسه .

وبشرى الله لإبراهيم بالغلام قبل أن يولد هذا الغلام لأن التبشير بشيء يأتى قبل مجيئه ومع ذلك ذكر وصفه معه فهو غلام وحليم لأن الحلم سيأتى معه وهو لا زال صغيرًا وهذا الحليم منه سيظهر فى موقفه من رؤيا الذبح حيث لم يعترض على أبيه لأنه سيدبحه ولكن سلم الأمر لله سبحانه .

هنا انظر إلى التعبير القرآنى فى قوله ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ﴾ فبعد البشرى لم يذكر شيئًا عن مجئ هاجر من مصر وحكاية السيدة سارة ولكن بعد البشارة ذكر مباشرة قصة الذبح ورؤيا إبراهيم عليه السلام لأنها يفهمها السامع فلا يذكرها القرآن هنا لأن المتحدث رب وقد ذكرت بعضها فى سورة إبراهيم وقصته ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ تدل على أن الغلام ولد وكبر وبلغ سن السعى مع والده .

ونحن نعرف أن الطفل لا يكلف بأمر إلا على قدر طاقته فى الحركة وعلى قدر عافيته وقوته فهو بلغ السعى ولكن مع والده لا مع غيره لأن عوده لم يشتد بعد .
﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فهو يقول لابنه أنه يرى فى المنام أنه مطلوب منه أن يذبحه ! .
فانظر إلى عظمة الرد من إسماعيل عليه السلام لم يقل له : يا أبت أفعل ما تشاء أو ما تريد ولكن قال له ﴿يَتَابَتِ أَفْعَالُ مَا تُؤْمَرُ﴾ .

أى أنا أطيع أمرك من باطن أمر ربي فافعل ما يأمرك الله به وهذا يدل على أنه عرف أن هذا الأمر من عند الله لأن رؤيا الأنبياء وهى ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ أى فكر فى هذا الأمر .

وقل لى رأيك فيه فالمطلوب منك شيئان : طاعتك لأبيك وطاعتك لرب
أبيك . فقال الابن ﴿ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .
ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .
كلمة ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى إبراهيم أسلم زمام حركته فى القتل إلى ربه ، أى
يارب سأقتله طاعة لك .

وهذا ابتلاء مركب فإبراهيم ابتلى فى شبابه بالرمدى فى النار فنجح فى
الاختبار ، لكن حين يشيب الإنسان ويكبر يكون حبه لابنه فوق حبه لنفسه ،
ولذلك لا يحب أحدًا أحسن منه إلا ابنه لماذا ؟ لأنه الوصل الأخير لحياته .
فإسلام إبراهيم أنه أخبر ابنه بما يرى ، وأنه مستعد للتنفيذ بعد اخبار ابنه .
وإسلام إسماعيل أمره لله مطيعًا أمره ، راضيًا بقضائه ، فرينا سبحانه حين
رأى طاعة الإثنين لأمر الله ، وأن إبراهيم ألقى ابنه على وجهه ، وأمسك
السكين ليذبحه .

وقالوا إن إلقاء إسماعيل على وجهه جاء باقتراح منه ، حيث طلب من أبيه
أن يلقيه على وجهه ويذبحه من عنقه ، حتى لا يرى وجهه خلال الذبح ،
فتأخذه عاطفة الأبوة ، وربما تعطله عن تنفيذ أمر الله ، فهو يساعده على تنفيذ
أمر الله تعالى .

ولكن ماذا حدث بعد أن ألقاه على وجهه وشرع فى ذبحه ؟

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٢٧﴾ وَتَلَدَيْنَهُ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ ﴿١٢٨﴾ قَدْ
صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٩﴾ [الصافات] .

هنا الواو فى ﴿ وَتَلَدَيْنَهُ ﴾ واو المعية مما يدل على النداء كان مصاحبًا
للحركة أى فى الوقت الذى هم فيه إبراهيم بالذبح ناداه ربه أن يتوقف بقوله :
﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتُوا الْمُئِينُ ﴾ .

قصة الذبيح ١٠٥

أى هذا امتحان قاس عليك - وكلمة المبين أى الذى يبين قوة عقيدة إبراهيم فى تلقى الأمر الصارم النفسى من الله - ومع ذلك يياشر تنفيذه دون أن يسأل ربه حكمته .

إن هذا الإبتلاء مركب أولا فقد ولده وموته
ثانيا : يمكن أن يقتله غيره لا إنه يؤمر بقتله بيده .
وهذا كله يأتى برؤيا منامية ، فيأتى الجزاء على قدر عينات الابتلاء ؛ ولذلك
كان تدخل السماء رحمة بهذا الشيخ الكبير وابنه .

وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴾

والذبح هو المذبوح وهو الكبش العظيم .

إذن .. أمره الله أن يرفع يده لأنه نجح فى الاختبار هو وابنه ، وفداه بذبح
عظيم وبعد أن كان سيموت ، جعله الله يعيش ، وأعطاه معه إسحاق أيضا
رغم كبر سنه ، وبشره بأن من وراء إسحاق يعقوب ليس هذا فقط ، ولكن الله
جعلهم أنبياء فنتيجة التسليم للابتلاء واحد جاءت بكل هذا الخير العظيم .
إذن .. الإسلام لله خير كله يقول الشاعر :

سلم لربك حكمه فلحكمة يقضيه حتى تستفيد وتسلما

واذكر خليل الله فى ذبح ابنه إذا قال خالقه فلما أسلما

بعض الناس يقولون إن إبراهيم أخاف ابنه وفزعه أياما حين أخبره بأنه
سيذبحه ، وكان يمكن أن يفاجئه بالذبح دون أن يخبره به ، نقول لهم :
لا هذا كلام غير منطقى لأن إبراهيم كان لا بد أن يفهم ابنه المسألة كلها ،
لأنه لو فاجأه بالذبح دون أن يخبره بأن هذا أمر من الله ، فإن الولد سيكره
أباه - فكان لا بد أن يشرح له المسألة ، حتى يقتنع بها ويصبر حتى يكون
الثواب لهما معا .

قصة الذبيح 106

ولذلك يقول ربنا ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .

ومعنى ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى إبراهيم وإسماعيل أطاعا أمر الله

ومعنى ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أى وضع جبته على الأرض أو على التل .

إن المعركة بين الأديان فى مسألة إسماعيل وإسحاق ، المسلمون يقولون الذبيح إسماعيل ، وغيرهم يقول الذبيح إسحاق ، والقول بأن الذبيح هو إسحاق مردود عليه بأدلة كثيرة :

الأول : أن مسألة الذبيح والفداء مكانها هناك فى الحجاز ولو كان الذبيح إسحاق لكان قد حدث فى الشام^(١) .

الثانى : قول النبى ﷺ أنا ابن الذبيحين وهما إسماعيل الذى فداه الله بذبيح عظيم وعبد الله الذى فداه عبد المطلب بمائة ناقة^(٢) .

الثالث : إن الحق سبحانه وتعالى ذكر قصة الذبيح ثم قال بعدها ﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت أرسل رسول الله ﷺ لى عثمان بن طلحة وقال مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله ﷺ قال إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن أمرك أن تخمرهما فخرهما فإنه لا ينبغي أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى .

قال سفيان لم تنزل قرنا الكبش « الذى ذبح فداء لإسماعيل عليه السلام » فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة .

(٢) روى ابن أبى حاتم عن معاوية أن رجلا قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ .

وهذه الأدلة من عندنا ، فرما لا يصدقها الآخرون ، لكن من فضل الله أنه ترك في كتابهم التوراة مواضع ، يستخلص منها الإنسان الذى يؤيد مواقف الإسلام .

وهذه الأشياء أعماهم الله عنها ، حتى يظل فى هذه الكتب ما يدل على الحقيقة فيها سواء كان مخالفاً أو غير مخالف .

ولذلك جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين فى سفر الخروج :
« وأوصى الله إلى إبراهيم أن أصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدمه قرباناً لي »

ونحن هنا نسأل متى كان إسحاق وحيداً ؟
مع أن إسحاق ولد وعمر إسماعيل أربعة عشر عاماً كما ورد ذلك فى الإصحاح ٤٢ حيث يقول :
« وولد إسحاق وعمر إسماعيل ٤١ سنة » .
فهذا دليل دامغ من عندهم ومن كتبهم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .



نبي الله لوط عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] لم يقل الحق هنا وإلى قوم لوط أخاهم لوطاً وذلك لأن لوطاً ، لم يكن من هذا المكان . فلوط كان هو وإبراهيم من مدينة بعيدة ثم جاء إلى هذا المكان فراراً من الإضطهاد ، هو وإبراهيم وفي هذه الحالة يكون طارئاً عليهم . ولذلك لم يقل أخاهم ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة ، فعرفوا أخلاقه وصفاته وأنسوا به لفترة من الزمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض .

ماذا قال لوط ؟ سألهم مستنكراً ومقرعاً ، إن العقل البشرى الفطرى يستنكر هذه العملية القذرة ، وهذا شيء لم يسبقهم إليه أحد ، ولكنهم فعلوه للشهوة والشذوذ عن الطبيعة البشرية ، وكلمة فاحشة هي التزيد فى القبح أى أن الشيء ليس قبيحاً فقط ، ولكنه زيادة فى القبح . فالذى يأتى أنثى بدون زواج تكون فاحشة ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصبح حلالاً ، أما إتيان الرجل ففاحشة بمعنى مركب لأنه ليس مخلوقاً لهذه العملية ولا يمكن أن يصير حلالاً أبداً . فهو فحش مركب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى من بداية ما يقال له أحد أى أنها بدأت بينهم وهذا إستنكار فظيع ، قال عمرو بن دينار : ما رؤى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . فالإنسان وهو خليفة فى الأرض يريد قوتاً ، ويريد إنجاباً ولذلك حين خلق الله الأرض قدر فيها أقواتها ليبقى الإنسان ، وخلق فيها الذكر والأنثى لبقاء النوع ، وعندما

نبي الله لوط عليه السلام ١٠٩

توضع الشهوة فى مكانها يتم الإنجاب ، وإذا عزلت الشهوة عن مكانها ، كان ذلك سبباً فى عدم بقاء النوع ، إذن .. تكون قد أفسدت فى الكون لأنك عطلت الإنجاب ، وعطلت عمارة الأرض .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨١] .

والإسراف هو تجاوز الحد، والله وضع لنا مصرفاً للشهوة وهى المرأة ، وجعلها وعاء للإنجاب فهى تعطينا الشهوة وتعطينا الإنجاب ، ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهى تجاوز للحد لأنها بعد عما شرع الله ، وانقياد لشهوة الإنسان فى غير ما أحل الله ؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من سورة الشعراء : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَتَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء] إستنكاراً لهذا الفعل الشائن الذى إنفرد به قوم لوط على سائر الناس ويقول لهم نبيهم لوط : لماذا تفعلون الفاحشة ، وعندكم حرثكم الذى أنعم به عليكم ربكم زوجاتكم .

فالله جعل للأزواج محلاً للاستنبات فى زوجاتهم ، قوم لوط تجاوزوا محل الاستنبات الحلال واستبدلوه بالموضع الحرام ، والعاذى الذى شرع له شىء يقضى إربته وحاجته فيه فتجاوزوه إلى شىء آخر حرام .

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : ٥٤] أى وأنتم تتعاملون بها وتتجاهرون مما يدل على أن الكل مجمع على هذه الفاحشة ، وأنه لم يعد هناك حياء أو أن المعنى : كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب

نبي الله لوط عليه السلام ١١٠

الفساد من عذاب وهلاك . ثم يقول بعد ذلك : ﴿ أَيُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥] فى ظاهر الأمر أنها تخالف
قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ لأنهم ما داموا يبصرون ويعلمون ويرون فكيف
يجهلون .

الجهل هنا ليس ضد العلم ، ولكنه مرادف السفه . فالناس يفهمون الجهل
على أنه عدم العلم ، مع أن الأمية هي ألا تعلم والجهل أن تعلم قضية مخالفة
للواقع . فالأمية خالى الذهن ، تقول له القضية فيأخذها و كفى ، لكن الجاهل
عنده قضية مخالفة فأنت تحتاج معه إلى عمليين : أن تنزع الباطل أولاً ثم
تدخل له قضية الحق وهذا شيء يحتاج إلى جهد كبير ، فالذى يتعب العالم
هو الجاهل لا الأمية .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] قول لوط
أشعر قومه بعقدة الذنب وفحش ما يحدث ، فقالوا : الحل أن نخرج لوطاً
وقومه من القرية لأنه جاء ليفسد علينا شيئاً نتمتع به ، وحتى فى علة الإخراج
لم يكن هناك أى منطق إلا أن لوطاً ومن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه
القرية وما يحدث فيها . والحق فى آية أخرى يقول : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٧] أى إذا لم تكف عن لومنا ونهينا عن
فعل الفاحشة ، لتكون من المطرودين خارج بلدتنا .

قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ﴾ [الأعراف : ٨٣] هذا دليل على
أن الحق سبحانه وتعالى قد أنجى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل
رسول . فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه .

نبي الله لوط عليه السلام ١١١

فزوجة لوط لم تدخل في الإنجاء ، لأنها كانت من الغابرين ، ومعنى الغابرين : أقام ، ومعناها : مضى ، وهذين المعنيين ملتقيان فما دامت لم تخرج مع لوط وبقيت في مكانها فقد بقيت في المكان الذي سينزل فيه العذاب . وما دامت قد بقيت في المكان الذي سينزل فيه العذاب فقد أصبحت من الماضين لأنها ستهلك . أصبحت تاريخاً .

كأن الله يخبر رسوله لوطاً بأن هذه الزوجة لم تكن أهلاً للزواج من نبي ، وخاتته في نبوته ، ستهلك مع العصاة المذنبين ، ستظل في الدار ولا تخرج معك ضمن من اتبعك من أهلك ، وسيجرى عليها ما يصيب غيرها من الهالكين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] وخيانة امرأة لوط كانت النسيمة فقد كانت تخبر الناس إذا نزل به ضيف تعطى إشارة لقومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال . فعرض النبي مُصان عن الزنا وغيره حتى لا يتبادر إلى الذهن المعنى القريب للخيانة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من الله لا يستطيع أن يفرض إيماناً حتى على امرأته ، لأن حرية الاعتقاد وحرية العقيدة قد كفلها الله للإنسان ، ليكون الحساب عدلاً في الآخرة . فالله ضرب المثل برسولين من رسل الله لم يستطيعا أن يرغما زوجتيهما على الإيمان . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ليرينا أن فرعون المتجبر مدعى الألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن به وتكفر بالله .

نبي الله لوط عليه السلام ١١٢

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْدِلَاتًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤] هل كان إبراهيم يجادلهم في تعذيب قوم لوط ؟ ويطلب إعطاءهم مهلة عسى أن يؤمنوا لأن قلبه رحيم ؟ الحق تعالى قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥] والحليم لا يعجل بالعقوبة ، وأواه يتأوه وهو من رقة القلب ، ومنيب أى يعود ويرجع ، فهو حلیم لا يحب العجلة فى العذاب ولذلك يقول يارب اتركهم قليلاً عليهم يتوبوا ويؤمنوا ، ومتأوه لله سبحانه وتعالى يرجوه أن يرحمهم ومنيب أى عندما يعرف الحق يلجأ إليه ويلتزم به . ولذلك عندما قالت الملائكة : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ [هود: ٧٥] .

فقد انتهى الجدل تماماً وما دام أمر الله جاء فله حكمة ولم يجادل ، حيث أن العذاب الواقع بهم لا جدال فيه ولا شفاعة ولا يرد ، لأنه أمر الله فلا يستطيع أحداً رده .

ويقال إن إبراهيم عليه السلام فى جداله مع الملائكة ، قال لهم : إذا كان فى قوم لوط خمسون يؤمنون بالله أتعذبونهم ! قالوا : لا ، قال وخمسة وعشرون قالوا : لا ، قال وعشرة قالوا : لا ، قال وواحد قالوا : لا قال إن لوطاً فيهم ، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] إلى هنا توقف الحديث بين إبراهيم والملائكة .

ويذهب الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط لتنفيذ مهمتهم ، ماذا حدث عندما وصلوا إلى لوط ؟ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَلَّمَآ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِيئِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا ﴾ [هود: ٧٧] .

نبي الله لوط عليه السلام 113

لماذا ؟ لأنه عندما رأت امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين صعدت إلى سطح البيت وأوقدت ناراً لتحدث دخاناً كثيفاً إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفاً قد وصلوا ، وأنهم حسنوا المظهر ويستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال .

فلوط حين وصل إليه القوم ، قال : هذا يوم عصيب يعنى يوم صعب لأنه يلاقى فيه أذى كثيراً . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ٧٨] . فلا أحد يخشى أو يمتنع لأن ما يفعلونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه . أقبل قومه على بيته بسرعة وإندفاع وفى أعداد كبيرة وهو يعلم نيتهم من سوابقهم . فقال لهم : ﴿ قَالَ يَفْقَهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] .

ومعلوم أنه لم يؤمن برسالة لوط عليه السلام إلا هو وبناته ، إذن .. فلم يكن المقصود بنتيه لأنهما لا يكفیان هذا العدد الكبير . إن لوطاً يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج ولذلك فقولته بناتى يعنى بنات القرية بدليل قوله : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أى أن زواجكم من البنات أطهر لكم مما ترتكبونه من فاحشة مع الرجال ، فالزواج شريعة الله والفاحشة مع الرجال إثم عظيم ، وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ الخزي هو الفضيحة أمام الناس وقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى رجل يقف مع الحق ويمنع هذه المهزلة . قوم لوط أرادوا أن يحاجوه بالباطل فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] . يعنى أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك وأنت تعلم أننا لا نريد البنات ولكننا نريد ضيوفك ذوى الهيئة الحسنة لنتركب معهم الفاحشة . فأحس لوط بالضيق الشديد والعجز فقال كما يقص نبي الله لوط عليه السلام

علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ زُكْرٍ شَدِيدٍ ﴾
أتمنى أن أجد من الأقوياء من ينصروني عليكم فأوى إليهم ليدافعوا عني .
عندما بلغ الضيق بلوط منتهاه ، تكلمت الملائكة ، فماذا قالت : ﴿ قَالُوا
يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَرًا إِنَّهُمْ مُّصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ
الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ أطلعوه على الحقيقة ، وهى أنهم لم يأتوا ضيوفاً ولكنهم رسل
من الله ، وأهل القرية لن ينالوا منهم شيئاً ولن يصلوا إلى لوط نفسه . ثم
أبلغوه أوامر الله بأن يخرج بأهله ليلاً ، دون أن تتجه أنظارهم أو قلوبهم إلى
ما تركوه إلا امرأته فإنه سينزل بها العذاب ، وأبلغو لوطاً عن موعد العذاب
بأنه الصبح .

ماذا حدث بعد ذلك لقوم لوط ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٤] المطر
عادة هو الذى يأتى بالخير والماء ولكن هذا المطر لم يكن خيراً ولم يكن ماء بل
كان حجارة إنهالت عليهم من السماء ، فأعتبر يامن تسمع هذه القصة بما
يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة الله ويصرون على المعصية
فينزل عليهم غضب الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُوبٍ ﴾ [هود: ٨٢] أى قلبت
رأساً على عقب ، وكون هذا الإنتقام ، جعل عاليها سافلها فلا بد أنه كان
إنتقاماً منظماً ومدبراً بدقة .

١١٥ _____ نبي الله لوط عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ مُسَوِّمَةٌ ﴾ [هود: ٨٣] أى معلمة كل حجر ينزل على صاحبه مثل الصواريخ الموجهة كل صاروخ متجه لهدف معين بدقة لا ينحرف عنها .
وقوله تعالى : ﴿ مَنضُودٍ ﴾ أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من الله سبحانه وتعالى متى أمر إنهمرت معدة من قبل وموجودة .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣] أى أن هذه الحجارة معلمة وموجهة ، ومساكن لوط قرية من الكفار يستطيعون أن يذهبوا إليها ليروا آثار عذاب الله ، فليحذر كل ظالم ، فإن عقوبة الله ليست ببعيدة عنه ولا هو بمنأى عنها .



نبي الله إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧٧﴾ وَبَدَّكُنَّا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ
إِسْحَقَ وَمِن دُرِّيَّتَيْهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الصافات] .
وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة ولما مروا بهما مجتازين
ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ
فَمَا لِيكَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴿١٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ
وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿١٨٠﴾ وَأَمْرًا تُهْتَمُّ
قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿١٨١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَلَيْسَ
أَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [مرد] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٨٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ
إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١٨٦﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ
أَنْ مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بُنِيتُورُونَ ﴿١٨٧﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْقَانِطِينَ ﴿١٨٨﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الحجر] .

وقال الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٩٠﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿١٩١﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿١٩٢﴾
فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩٣﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١٩٤﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿١٩٥﴾
قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الذاريات] .

نبي الله إسحاق عليه السلام

هذه الآيات قد تعرضت لقصة البشارة بإسحاق وبعض الناس يظن أنها تكرار نقول لا إنها قصة متكاملة تعطى كل أية منها لقطة لم تأت في الآية التي قبلها فإذا جمعت كل اللقطات تعطينا القصة كاملة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ [هود: ٦٩] ورسلنا جمع رسول والرسول بشر يرسله الله ليهدى الناس إلى منهج الله .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْبَشَرِ رُسُلًا وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَإِلَى الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ وَالضَّيْفِ هُوَ الَّذِي يَمِيلُ لِأَنَّ الَّذِي يَذْهَبُ عِنْدَ وَاحِدٍ فَقَدْ مَالَ إِلَيْهِ لِيَطْلُبَ قَرَاهُ أَوْ لِيَطْلُبَ جَوَارَهُ أَوْ لِيَطْلُبَ الْأَنْسَ بِهِ .

ولذلك يسمون الضيف الذي مال إلى أحد المنضوي

وضيف لفظ مفرد يطلق على الواحد والواحدة والإثنين والاثنتين وجماعة الذكور وجماعة الإناث فتقول جاءني ضيف فأكرمته جاءني ضيف فأكرمتها - جاءني ضيف فأكرمتها - جاءني ضيف فأكرمتهم جاءني ضيف فأكرمتهم .

فكلمة ضيف هي للجمع بدليل قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ ولذلك يقول الحق : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤] . إذن .. فالحق جل جلاله حين أرسل ملائكته إلى إبراهيم ، أرسلهم بالبشرى وهذه الكلمة تبين لنا أن الذي يأتي من السماء هو بشرى لأهل الأرض ، والبشرى هي الإعلام بخبر سار سيقع في المستقبل .

وعندما دخل الملائكة على إبراهيم قالوا سلامًا ، ونلاحظ هنا استخدام النصب بدلاً من الرفع ، لأن سلامًا دلت على أن هناك فعلاً نسلم سلامًا ،

والفعل يدل على التجدد ، بينما سلام يدل على الثبوت ، لك منا سلام ،
فإبراهيم حيًا بالأحسن ، الملائكة قالوا سلامًا « تجددى » وقال هو سلام
« استمرارى » ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيدٍ ﴾ [هود: ٦٩] ، ﴿ فَرَاغَ إِلَيْكَ
أَهْلِيهِ ﴾ [الذاريات : ٢٦] .

أى بمجرد أن دخلوا وسلموا أحضر العجل .
وكلمة « راغ » معناها : أنه تسلل خفية حتى لا يراه أحد ولا يشعروا
بخروجه حتى لا يهرجهم .

والعجل هو ولد البقرة ، وحنيذ معناها شوى ، على الحجارة فالشواء يشوى
مرة على اللهب ، ومرة يشوى على الفحم ، ومرة يشوى على الحجر ، بأن
يعرض الحجر للهب شديد حتى يحمر ثم يشوى عليه العجل - الشواء على
الحجر هو أنظف أنواع الشواء .

إن إبراهيم كان يحب الضيوف ، واليوم الذى كان لا يأتيه فيه ضيف
يحزن ، - ساعة رأى وجوها جديدة ، قدمت عجل بالطعام - وهذا أيضًا
يمثل الكرم لأنه عندما يأتيك ضيف لم تعرف كم ساعة مضت عليه وهو لم
يأكل فتأتى له بالطعام بعد أن يدخل عندك - فإن كان جائعًا أكل وإن كان
شبعان لم يأكل .

وهذه القصة انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون
بسرعة ، ولم يحثن عليهم أولاً فيقول نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء
وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتى سمين مشوى فقربه إليهم ولم
يضعه ويقول اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمرًا يشق عليهم بصيغة
الجزم بل قال ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل
اليوم إن رأيت أن تفضل وتتكرم .

١١٩

 نبي الله إسحاق عليه السلام

وهذا يدلنا على سلوك إبراهيم الإيماني ، عندما جاء الملائكة على هيئة بشر لم يطلبوا منه طعامًا ، ولكنه جاءهم بالطعام دون أن يطلبوه ، فإذا جاءك ضيف لا بد أن تأتيه بما يأكل وما يشرب ، فإذا امتنع عن الأكل تلح عليه كما قال لهم إبراهيم ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

قال أحد العارفين إنه عندما قال إبراهيم للملائكة ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قالوا لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمنه ، فقال إبراهيم مما علمه الله من حكمة النبوة : ثمنه أن تبدأوا ببسم الله وأن تنتهوا بقولكم الحمد لله ، فالثمن باسم الله أولا والحمد آخرًا فتكون قد أديت للطعام حقه .

وعندما رأى إبراهيم أيديهم لم تُمد إلى الطعام نكرهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠] .
لماذا وجل منهم ؟ لأنهم جماعة جاءوه وهو لا يعرفهم ، هذه واحدة ودخلوا عليه بغير استئذان ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا ﴾ [الحجر: ٥٢] .
فكأنه لم يقل : ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر: ٥٢] . إلا بعد أن أوجس منهم خيفة - والوجل اضطرب في النفس وقلق فيها من خوف ما يتوقع من المكارة .
فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام ، أنهم لا يأكلون خاف منهم ، ولكن هذا الخوف ظل حبيسًا من نفسه ، ولم يقم بأى فعل يظهر خوفه كأن يترك المجلس ويمشى أو ينادى على اتباعه أو يفعل أى فعل آخر ، ولكن الملائكة أحسوا بخوف إبراهيم فأرادوا أن يطمئنوه بأنهم لم يأكلوا - ليس لأنهم جاءوا يقصدون الشر - ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون - جاءوا لينفذوا مهمة كلفهم الله بها .

نبي الله إسحاق عليه السلام ١٢٠

فقالوا كما يروى لنا القرآن : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ ﴾
عندما قالوا لإبراهيم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٧٠] فهم أنهم
ملائكة مع أنهم كانوا فى هيئة رجال ، والملائكة يتشكلون بشكل الرجال ،
فجبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ على هيئة دحية الكلبي
﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ فكم
بشارة بشرها بها الملائكة ؟

البشارة الأولى : أن الملائكة لم يحضروا لعذاب قوم إبراهيم لأنهم لم
يرتكبوا مخالفات .

والثانية : أنهم جاءوا لقوم مجرمين هم قوم لوط الذين اتعبوا نبيهم وأفسدوا
فى الأرض .

والبشارة الثالثة : بشروها بغلام ، ومسألة الغلام كانت تتمناها من زمن
طويل ، لأنها عاقر ، وإن كان وقته قد فات ، لأنها كانت قد بلغت من العمر
مائة وعشرين عامًا ، بشروها بأنها بعد هذا العمر الطويل ، ستلد ابنا وأنها
ستكون جدة وسيكون لها ابن ابن هو يعقوب ، استقبلت البشارة الأولى
بالضحك ، والثانية بالإطمئنان ، والثالثة بالدهشة ؛ قالت كما يروى القرآن
الكريم : ﴿ قَالَتْ يَنْوِيلُنِي آئِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجِيبٌ ﴾ [هود : ٧٢] .

ساعة تقول : ﴿ يَنْوِيلُنِي ﴾ فإنك تفهم أن الفاجعة صعبة عليها - كيف
سيحدث لها أن تحمل وهى عجوز وزوجها شيخ كبير .
ودقة التعبير أن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول وكذلك الزوج يقوم بأمر
الزوجة ولا يحوجها لأحد .

١٢١ _____ نبي الله إسحاق عليه السلام

والبعل هو النخل الذى لا يحتاج فى زراعته أن يُسقى وإنما يكتفى بما يمتصه من الأرض وما ينزل من مطر السماء .
والشئ العجيب هو الذى يقع على غير انتظار ويخالف سنة من سنن الكون .

وإبراهيم عليه السلام فى سورة الحجر لم يقل عن زوجته إنها عاقر أو عجوز بل قال : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴾ [الحجر : ٥٤] ولم يذكر أن زوجته عاقر وعجوز ، ولم يأت بسيرتها حتى لا يهرجها ، ولكن امرأته حينما تكلمت جاءت بسيرة زوجها فقالت : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ .

ولكن الملائكة تبشرهم بسلام غلام ؛ ولكن هل الغلام يوصف بأنه عليم ؟ لا يوصف بهذا وهو غلام ، ولكنهم يبشرونه بأنه سيصير إلى مرتبة أن يكون عليمًا ، فكانهم أعطوه صفة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴾ أى بشرتمونى بالسلام العليم مع أن الكبر مسنى فهنا ﴿ عَلَىٰ ﴾ بمعنى « مع » فالكبر مصاحب لى فكيف ستبشروننى ؟

ولذلك جاء القرآن بـ ﴿ عَلَىٰ ﴾ هنا ليدل على أن خلق الله أعلى من قانون التكوين ، لأن الكبر كان يوحى أنه لا إيجاب ، ولكن لما أراد الله سبحانه ذلك فلا راد لمشيئته ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

فكان قانون الكبر لا يعطى ولدًا لكن هبة الله أعلى من هذا كله .

نبي الله إسحاق عليه السلام

إن السيدة سارة هي التي زوجت هاجر لإبراهيم ، ولكن لما أنجبت هاجر ولم تنجب هي حدث في نفسها شيء مما يحدث للنساء في مثل هذا الموقف . وأخذت تلح على إبراهيم أن يدعو ربه أن يرزقه بغلام منها فاستجاب الله دعاءه وأعطاه الولد .

ولذلك ردت عليها الملائكة : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

أى أن ما سيحدث هذا من الرحمن ومن البركة لماذا ؟

﴿ إِنَّهُ حَيِّدٌ تَجِيدٌ ﴾ .

○ ○ ○

نبى الله شعيب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا نَنقُصُوكُم بِالْمِيزَانِ إِنِّي أَنزَلْتُ إِلَيْكُمْ بِالْقِسْطِ وَالْمِيزَانَ وَالْقِسْطَ بِالْقِسْطِ ﴿٨٩﴾ وَيَقَوْمِ أَزِفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴿٩٠﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود] .
ومدين هو اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام .
وشعيب عليه السلام ، ككل رسول جاء إلى قومه أختير من أهله وعشيرته ،
ليكون معروفاً لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة .

وقوله تعالى : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ يعنى إياك أن تأخذ الأمر بـ « أفعَل ولا تفعل » إلا من الله سبحانه وتعالى فلا تكليف من أحد آخر لأن هناك إلهاً واحداً .

وحيثما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان ، فالذى يحكم البائع والمشتري هو المكيال والميزان ، فإنك إن كنت مشترياً فالمطلوب من البائع أن يعطيك حَقَّك ، ومن جانبك عليك أن تعطيه حقه ، فالقضية ليست قضية كتل يوزن بها ولكنها قضية حقوق الناس فيما بينهم . وساعة ترى مجتمع أختلت فيه قضية المكيال والميزان عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه ، وأنه أنصرف عن الحق . أى أنه مجتمع تضيع فيه حقوق الناس .

على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنزَلْتُ إِلَيْكُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من مال لحياتكم ، وما يغنيكم عن سرقة غيركم ، فاكتفوا بالخير الذى أمدكم الله به وليأخذ كل واحد منكم حقه .

وقوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ يَوْمٍ مُّحِيطٌ ﴾ أى عذاب يوم لن يفلت منه أحد فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه ، ولكن فى الآخرة لن ينفع شىء من هذا .

قوله : ﴿ أَوْفُوا بِالْكَيْالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ﴾ ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [هود: ٨٤] إذن .. فقوله : ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا ﴾ و ﴿ أَوْفُوا ﴾ الاثنان مطلوبان لأنه ليس المقصود هو المكيال ، وإنما الكيل بإطلاقه ، وليس المقصود هو الموزون ، ولكنه الميزان بإطلاقه ، فأعدل ولا تنقص ولا تزد ، وقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَبِئْسَ لِلْمُطَفِّينَ أَجْرًا إِذَا كَانُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٢﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ [المطففين] .

إذن .. فالمطلوب لا إفراط ولا تفريط لا زيادة ولا نقص .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود : ٨٥] .

البخس : هو الضرر إما بالنقص إذا كان للشىء حجم ، أو كم ، أو كيل ، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشىء وهذا من الظلم بل هو الظلم بعينه وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهى عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على السنة الرسل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فالإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها ، وأقل الصلاح أن تترك الصالح على صلاحه ، فإن استطعت أن ترقى به فأفعل .

وقوله : ﴿ يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، أى : إن كنتم تؤمنون بأن الله رقيب عليكم ، وأن الله قيوم ، وأنكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً دون أن يراكم ، فراقبوا الله فى أعمالكم ، وأقنعوا بما آتاكم حلالاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [مرد: ٨٦] أى : أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من النار ، بل كل واحد يحافظ على نفسه ؛ ولذلك فإن كل عمل عمله لا تنظر إلى قيمته الدنيوية ، بل احرص على قيمته فى الآخرة . وما دمت قد رضيت ببقية من الله لها بركة فهذا خير لك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشر ، ولا يعطيك إلا كل ما يؤذيك فى الدنيا وفى الآخرة . ماذا كان داء قوم شعيب ؟ الداء الذى كان منتشرأ فيهم علمناه من قول الله

تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء] أى : اجعلوا ما تكيلون به صحيحاً ، ولا تغشوا فيه ، ولا تكونوا من المخسرين ، والمخسر هو الذى يخسر الذى يقابله إن كان يشتري فهو يزيد فى وزن السلعة التى يشتريها ، وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى ، ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى : اجعلوا للناس أشياءهم .

إذن .. كل شىء ينقص بالأخذ منه أو بغصبه ، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذن صاحبه ، كل ذلك يسمى بخساً للشىء .

بماذا رد قوم شعيب على ما قاله شعيب لهم ؟ قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [الشعراء: ٨٧] وكلام قوم شعيب هنا على شكل تهكم ساخرين مستهزئين رداً على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل ، فى المعاملات وترك عبادة الأوثان التى توارثوا عبادتها عن آبائهم . وإنما خصوا نبي الله شعيب عليه السلام

الصلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التي دعاهم إليها ، لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونه في صلاته بأنها وسوسة خاطر وليست من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل .

بماذا رد شعيب عليه السلام على قومه ؟ وماذا قال لهم ؟ ﴿ قَالَ يَفْقَهُوْا أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْخُلِفَكُمْ إِلَّا مَأْتِيهِمْ عَنْهُمْ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] أى يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومنهج صادق من ربي ، وأعطاني الخير كله من علم ورزق وأعطاني قبل ذلك كله النبوة ، ثم جاء شعيب بالحجة الدامغة فقال : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْخُلِفَكُمْ إِلَّا مَأْتِيهِمْ عَنْهُمْ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة ، يأمر الناس أن يفعلوا شيئاً وهو يفعل عكسه ، فشعيب يقول الله سبحانه وتعالى اصطفاني بالنبوة وتلقيت الوحي منه وكلفني بإبلاغ المنهج ، وسأكون أول مطبق له ، ولن تجدونى أفعل أبداً ما أنهاكم عن فعله .

ثم يقول لهم : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : لا أريد إلا الإصلاح .. صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتي والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق في العمل ، فقد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة لله ، وفي هذه الحالة لا يأتيك التوفيق ، لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص لله .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ غير قوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فإذا قلت توكلت على الله ، قد تعنى أنك توكلت على الله وعلى فلان . ولكن قولك : عليه توكلت أى لا أتوكل على أحد غيره . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : أرجع إليه فالله سبحانه خلقنا من عدم فى البداية ، ثم إليه مرجعنا جميعاً فى النهاية . وما دامت المسألة أن التوفيق بيد الله ، وعليه التوكل وإليه العودة ، فأنت غير محتاج إلى غير الله عز وجل ، فاللهم إنى أستغفرك من كل عمل قصدت به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك أى دخلت فيه الدنيا ولو قليلاً .

يقول شعيب لهم : ﴿ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩] أى لا يجعلنكم تجرمون ، وتحملكم عداوتكم لى ، واختلافكم معى ، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم لوط من النعمة والعذاب . ويحذرهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ أى أن قوم لوط قريون منكم زمناً ومكاناً ولو أنكم فكرتم قليلاً لعدتم إلى الله تعالى .

ثم يقول شعيب لقومه : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] أى رغم كل ما فعلوه فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يتطلب منكم إلا أن تستغفروه من الذنوب التى سبقت ، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبداً ، والله تبارك وتعالى رحيم ودود ، لا يرد من يقف بيبابه ، رحمته سبقت عذابه ، ومغفرته تسع الذنوب جميعاً ، وهو سبحانه رحيم واسع المغفرة وودود محب لعباده .

نبي الله شعيب عليه السلام

عندما لفت شعيب قومه إلى أن الله سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم ويتوبوا إليه .. ماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١] ، أى : نحن لا نفهم ما تقوله ، والحقيقة إنهم لا يريدون أن يفهموا ، ونحن نرى أنك ضعيف لا تتحمل وقوفاً أمامنا ، ولولا أهلك لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ، أى : أنت لا تعز علينا فليس لك منعة عندنا ولا عزة ، فستطيع أن تأتي بك فى أى وقت وأن نفعلك بك ما نشاء وذلك علينا هين .

قال شعيب عليه السلام يذكر قومه بمن هو أقوى منهم : ﴿ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : ٩٢] أى أنكم تخافون عائلتي ، وهم عدة أفراد فتمتنعون عن إيذائى خوفاً منهم ، ولكنكم لا تخافون الله القادر على أن يهلككم ، بينما أنا رسول الله يحمينى الله بقوته وقدرته .

وقوله : ﴿ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أى لم تحسبوا له حساباً ولم تخشوه ، ثم يلفتهم إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهراً وباطناً ، فيقول : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شيء ، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطاً من خلقه .

ثم يقول لهم شعيب كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانِيكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] تلاحظ هنا أن شعيباً قد

١٢٩

 نبي الله شعيب عليه السلام

أخذ لهجة التهديد .. لماذا ؟ لأنهم خافوا من أهله ونسوا الله ، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة ، وهى قوة الله تعالى خالق كل شىء ، وهو بكل شىء محيط .

أى اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم ، وعلى قدر ما تستطيع الدنيا أن تعطىكم بأسبابها ، وأما أنا سأعمل على إبلاغ منهج الله ، ولن أسكت عن الدعوة وسوف تعلمون قريباً من يأتيه العذاب والخزى فى الدنيا والآخرة .
سبين لنا الزمن المستقبل من الذى سيأتيه العذاب والخزى ، ومن الذى سيكون له النصر .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوَعِدُونَ وَتَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف : ٨٦]
معناه لا تقدموا الغواية بطرق مختلفة الى الناس ، مستخدمين فى ذلك الغواية أو التهديد ، وكل قصدكم من ذلك هو أن تقنعوا الناس بعدم إتباع شريعة الله .
كأن يأتي إنسان ليقول لك : لماذا حرم الله الخمر ؟ مع إنها تجعلك مسروراً ومنسجماً ويظل يزين لك الخمر حتى تقع فى المعصية ، أو يقول لك إن الربا يزيد مالك وينميه ، فلماذا حرمه الله ؟ وهكذا يحاول الشيطان أن يبين للناس أن الطرق المعوجة هى التى فيها فائدتهم ، وينفر الناس من الطريق المستقيم ، مع أن سبيل الله هو الذى فيه الخير وكل ما حرمه الله هو شر كبير للإنسان .
وفى لفته أخرى يقول الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] الناس صالحين لعمل الخير وعمل الشر بحكم الإختيار المخلوق فيهم من الله . إذن فلا بد لأى منهج أن يرغب فى الخير ويرهب من الشر . والحق سبحانه وتعالى يذكر هنا الناس ويرغبهم فى الخير فيذكرهم بنعمة الله أنهم كانوا قليلين فى العدد فكثرتهم .
نبي الله شعيب عليه السلام

وهذا الجانب هو جانب الترغيب ويأتي بعد ذلك التهيب .. إذا لم تعبدوا الله سبحانه وتعالى طمعاً فى خيره ، فأعبدوه خوفاً من بطشه وانتقامه ، واذكروا ما حدث لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط الذين عصوا الله فأهلكهم بذنوبهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُزِيلَتْ بِهِءِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

قول الحق : ﴿ فَاصْبِرُوا ﴾ الأمر للأثنين معاً للمؤمن والكافر . فالصبر بالنسبة للمؤمنين هو لحملهم على الصبر ، لأن الكفارهم المترفون والعالون فى الأرض والمؤمنون يصيبهم أذى على أيدي الكفار والحق سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين : أن اصبروا على ما تلاقون لأن هؤلاء سيصيبهم من العذاب ومن الهوان الكثير ، وأنتم ستصبرون عليهم سنوات معدودة ولكنهم سيخلدون بعد ذلك فى النار ، وحين يعرف المؤمن ذلك تشتد عزيمته ويهون عليه كل ما سيلقاه ويقوى على الصبر ، فلا ييأس ولا يستسلم .

أما بالنسبة للكافرين ، فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا ﴾ معناه انتظروا قليلاً فما هى إلا فترة محدودة ثم يأتى أجلكم ، وتردون إلى الله ، وحينئذ تلقون جزاء كفركم وصدكم عن سبيل الله ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ أى : حتى يصبح الأمر كله لله بلا إختيار بشرى فى أن يفعل الإنسان أولاً يفعل .

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب عندما جاءهم هذا الترغيب وهذا التهيب من الله ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا نَبِيَّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ۚ ۱۳۱ ﴾

مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ [الأعراف : ٨٨] الملائكة الذين إستكبروا هم السادة والأعيان والمترفون الذين يقفون أمام كل دعوة حق ، لأنها ستسلبهم الميزات التي يتمتعون بها من أكل حقوق الناس وظلمهم ، ومعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين أنهم سيخرجونهم من المكان الذي تتوافر فيه كل متطلبات الحياة إلى مكان قفر لا يصلح للحياة . فكأن المترفين من الذين يقاومون المنهج قد أعطوا لشعيب ومن آمن معه خيارين : إما أن يعودوا كفاراً ، أو يخرجوا من القرية .

بماذا رد شعيب عليه السلام على القوم الكافرين ؟ ﴿... أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا... ﴿٨٩﴾ [الأعراف] .

دليل على أن المؤمنين يعرفون أن دين الله هو الحق . ولذلك إذا عادوا إلى ملة الكافرين يكونون قد افتروا الكذب لأنهم يعرفون الحقيقة ويقولون غيرها ، وقولهم : ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا﴾ أى أن اختيارنا كان إلى جانب الحق فنجونا .

أما قولهم : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف : ٨٩] .

فهذا القول منهم اعترافاً بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى فى كونه ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم بعد ذلك ماذا قال شعيب والمؤمنون بعد أن أعلنوا أنهم توكلوا على الله : ﴿رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَالِجِينَ﴾ [الأعراف : ٨٩] أى ربنا أحكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت لا تحكم إلا بالحق : ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَالِجِينَ﴾ .

نبي الله شعيب عليه السلام

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيْنَ
اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا اِنَّكُمْ اِذَا لَخِيْرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠] والخطاب هنا من أئمة الكفر
لأتباعهم لما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الذين مع شعيب . أى لمن أطعتم
شعيب فدخلتم فى دينه وتركتم ملة آبائكم ، إنكم حينئذ لخاسرون دينكم
الذى أنتم عليه ، وخاسرون دنياكم بفقدان مزاياكم التى تتمتعون بها بيننا من
المسألة والتبادل التجارى والرضا عنكم والإخلاص لكم وفقدان المكاسب
التي تحصلون عليها بالبخس وتطفيف الكيل والميزان وغير ذلك .

بعد أن فصل شعيب لقومه ما هو مطلوب منهم ماذا كان ردهم على نبيهم ؟
قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا اِنَّمَا اَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِيْنَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا اَنْتَ اِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَاِنْ نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِيْنَ ﴿١٤٦﴾ فَاَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ اِنْ
كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

فهناك اتفاق فى اتهام الرسل فى شيئين : بأنهم مُسْحَرِيْنَ ، وأنهم مثلهم ،
وما دام مسحرا فلن يسمعوا له لأنه مجنون ، وما دام بشر مثلهم فلماذا يتميز
عليهم بالرسالة ؟ وأنت بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين ، وإن كنت
صادقاً فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء ، فهم يستعجلون
نزول العذاب عليهم ، وهذا دليل على حماقتهم لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا :
اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليه ووقفنا لإتباعه ، ولكن
استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب واستعجلوا العقوبة .

ولكن ماذا كان رد نبي الله شعيب عليهم ؟ ﴿ قَالَ رَبِّ اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾
أى ربي يعلم أحوالكم ، ومطلع على سرائركم ، فإن الله سبحانه وتعالى يعلم
أن فى قلوبكم خيراً ، وأنكم ستندمون وتتوبون إليه ، سيؤخر عنكم العذاب

نبي الله شعيب عليه السلام ١٣٣

ويحفظكم منه ، وإذا علم أنكم مستمررون على كفركم وعنادكم فسينزل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والإستئصال . فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربي ، ولكنى أكل الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم . مضى كل جانب يرتقب .. شعيب والذين آمنوا معه يرتقبون نزول العذاب والخزى بالكافرين . والذين كفروا ينتظرون الفرصة المواتية ليقضوا على شعيب ومن آمن معه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ﴾ وكلمة ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ معناها معالجة أى أنه كان محشوراً فى العذاب فقضى الله له بالرحمة ، والرحمة هى : ألا يصيبك مكروه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ﴾ [٩٥] كَأَنَّ لَّهُمْ يَغْنَوُا فِيهَا ... ﴿ [٩٥] ﴾ [مرد] أى كأنهم لم يوجدوا فيها . تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون فيها من قبل .

وقوله : ﴿ كَأَنَّ لَّهُمْ يَغْنَوُا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ [مرد : ٩٥] أى أن الذى أخفى ثموداً ، وما فعلت ، وما حدث لها ، يخفى قوم شعيب ويعددهم عنا فى الدنيا والآخرة .

ويقول الحق تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴾ [الأعراف : ٩١] والرجفة : هى الهزة العنيفة التى ترج الإنسان رجاً ، وجاثمين : أى جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعاناً فى إذلالهم فهم استكبروا فى الأرض فأراد الحق أن يميتهم أذلاء .

وقول الحق : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنَّ لَّهُمْ يَغْنَوُا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٢] أى : أن القرية التى كانت غنية بمن

نبي الله شعيب عليه السلام

 ١٣٤

كذبوا شعيباً أى أقاموا فيها مدة طويلة ، كانوا هم الخاسرون ، أى : خسروا كل شىء ، جاه الدنيا ونعيم الآخرة .

ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ الله الكافرين بالعذاب ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٣] فكان شعيباً قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة : أنه قد أبلغهم رسالة الله ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم ، فهو لم يقصر فى حقهم . ولذلك فهم لا يستحقون الشفقة لأنهم أصروا على الكفر .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٨] الأيكة مفرد أيك والأيك هو الشجر الكثير الملتف والمثمر ، ثم يقول الحق : ﴿ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٩] وشعيب إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم ؛ وكذلك جاءت التثنية فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ فقد ضم إليها أهل مدين أيضاً وقوله ﴿ لِيَأْمُرَ مُبِينٍ ﴾ أى طريق واضح ، هذا الطريق الواضح يأتى به السائر ليصل إلى بر الأمان باتباع منهج الله .

وقد قال سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] لما استمر القوم فى تكذيبهم لرسولهم وتمسكوا بضلالهم وكفرهم ، عاقبهم الله بعذاب يوم الظلة ، وهو عذاب مشهور حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، وحجز عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة ، فصارت حياتهم لا تطاق من شدة الحر ، فالتمسوا غمامة تظلمهم رأوها قادمة فى الجو فهرعوا نحوها مسرعين ، فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم ناراً أحرقتهم وأبادتهم .



نبي الله يعقوب عليه السلام

هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام ، ومن نسله جاء أنبياء بني إسرائيل^(١) .

فالنبوة كانت في ذرية إبراهيم من ولديه إسماعيل وإسحاق كما قال تعالى :
﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

(١) قال ابن كثير : ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج من « رفقا » بنت بتوايل في حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين : أولهما اسمه : « عيصو » وهو الذي تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم . والثاني خرج وهو أخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل .
قالوا : وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر .
وقد دعا إسحاق ليعقوب أن يكون أكبر أخوته قدرا ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب من بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .
ودعا إسحاق لعيصو أن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم .
وذكروا أن عيصو تواعد يعقوب بالقتل إذا مات أبوهما . فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذي بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه وأن يتزوج من بناته ، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل .
فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء في موضع فنام فيه ، فرأى في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك .

نبي الله يعقوب عليه السلام

.....

= فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لمن رجع إلى أهله سالماً ليبنن في هذا المكان معبداً لله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره . ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنأ يتعرفه به وسمى ذلك الموضع « بيت إيل » أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك .

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان : اسم الكبرى « ليا » واسم الصغرى « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما وقد تزوج الكبرى ثم بعد ذلك تزوج الصغرى وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة وهذا وحده دليل على وقوع النسخ .

وقد ولدتا له أولاد كثيرة خلال فترة إقامته عند خاله والتى امتدت إلى عشرين سنة فطلب من خاله فى نهاية هذه المدة أن يسرحه ليمر إلى أهله وكان ذلك بوحي من الله تعالى أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعدته بأنه سيكون معه .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقتة الملائكة يبشرونه بالقدوم . وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة رجل فخشى يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن له وناشده عهدته ووعدته الذى وعدته به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لأخيه هدية عظيمة .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة رجل فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان وكان مشروعاً لهم . فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى . ورجع العيص ولحقه يعقوب بأهله قاصدين جبل « ساعير » ثم فر على أورشليم فضرب هنالك فسطاطة وابتنى فسماه « إيل » إله إسرائيل وأمره الله بينائه ليستعلن له فيه وهو بيت المقدس اليوم الذى جددته بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى عملها بوضع الدهن عليها من قبل .

نبى الله يعقوب عليه السلام

والقرآن نص على نبوة يعقوب ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ
وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وأثنى الله عليه بقوله : ﴿ وَذَكَرَ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ ﴿٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٦﴾ وَإِلَيْهِمْ عِنْدَنَا لِمَنْ
الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة ص] .

ونبي الله يعقوب الذي ابتلاه الله كثيرا فحاول أبناؤه قتل أخيهم يوسف ،
وتعذب يعقوب كثيرا وصبر على ابتلاءات الحق ؛ لأنه يعلم أن الابتلاء كان
طريقا ليصطفيه الله .

ولقبه إسرائيل وهي مأخوذة من كلمتين من العبرية « إسر » يعني عبد
مصطفى مختار و « إئيل » يعني الله ، أى : أن الكلمة بترجمتها هي صفي الله
أو عبد الله ، وقد أخذ نبي الله يعقوب هذا الاسم ؛ لأنه ابتلى . بلاء كبيرا
استحق به أن يكون حفيا لله .

ولم يذكر القرآن شيئا عن حياة يعقوب الخاصة سوى ما ذكره عن فقدان
ابنه يوسف وما جرى في ذلك من أحداث سنعرفها كلها في قصة يوسف
عليه السلام .

= وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية « حبرون » التي في أرض كنعان
حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه أبناه
العيس ويعقوب مع أبيه الخليل إبراهيم في المغارة التي اشتراها من قبل .
قصص الأنبياء لابن كثير [٢٥٩-٢٦٤] .

نبي الله يعقوب عليه السلام 138

لقد أشار القرآن الكريم إلى وصية يعقوب لأبنائه لتكون علمًا لبنيه على مر الزمان والأيام ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] .

إن الوصية : هي أمر يطلب شيئًا نافعًا يطلبه الإنسان في آخر وقت له في الدنيا . لماذا ؟

لأن آخر وقت للإنسان في الدنيا هو وقت الصدق لأن الإنسان قد يغش الناس جميعًا طوال عمره ، لكن لحظة الاحتضار فإن الإنسان لن يغش أحدًا ، لأنه مقبل على الله سبحانه وتعالى ؛ لذلك فإن الإنسان يقول في وصيته كلمة الحق .

لأن الوصية حين يوصى بها الإنسان وهو في حضرة الموت ، إنما تكون خلاصة لتجاربه العقديّة في الإيمان ، يعطيها في آخر فرصة من فرص الحياة لمن يحب .

ولذلك يوصى إبراهيم بنيه ويعقوب بالإسلام وأن يحافظوا عليه حتى الموت ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، فمعنى ذلك أن الأبناء عليهم أن يفهموا أنه ليس باستطاعة أحد أن يضمن عمره ، فالموت ميعاده ليس في يد أحد . إن النهي عن الموت ليس في مقدور أحد ، أما النهي عن عدم الموت إلا وهم مسلمون ، فمعنى ذلك أنه أمر بالألّا يفارق أحدهم الإسلام .

إذن .. وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهم بعدم الموت إلا بعد أن يكونوا مسلمين ، معناه ألا يفارقوا الإسلام لأن إبراهيم ويعقوب لا يملكان من أمر الموت شيئًا ، لذلك فهذا الأمر إلى أبنائهم معناه : أن يصطحبوا الإسلام طوال الحياة .

١٣٩

 نبي الله يعقوب عليه السلام

وبعد ذلك نجد يعقوب يسأل أبناءه عن عبادتهم بعد موته . ﴿ أَمْ كُنْتُمْ
شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا
نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] . إن ذلك هو إقرار من الأسباط من بنى يعقوب إنه لله
واحد ، إنها الملة التي أرادها الحق سبحانه للخلق ملة واحدة هي ملة الآباء
إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .

○ ○ ○

أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام من الأنبياء الذين قص الله علينا قصصهم في القرآن ، وقد ذكر اسمه في القرآن الكريم أربع مرات قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَايَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [سورة ص : ٤١] .

﴿ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى دعاه لأن النداء بالنسبة لله دعاء .

والضر : ابتلاء فى جسده بمرض أو غيره - وقالوا إن الأنبياء لا يمرضون مرضاً ينفر الناس منهم .

ومعنى الضر هو الإيذاء فى الجسد أما الضرر فهو أى إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد .

أيوب لما أصابه الضر صبر - ولكن ألم المرض جعله يدعو ربه أن يكشف عنه ضره ، لأن الإنسان لا يتشجع على الله ، أى لا يعمل نفسه فتوة أمام الله ؛

ولذلك الإمام على لما دخل عليه واحد يعوده وهو يتألم من المرض ويتأوه ويقول آه - قال له الرجل أتتوجع وأنت أبو الحسن ؟ قال له : أنا لا أتشجع على الله .

﴿ وَأَذَكَّرَ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

المس هو الإلتقاء إلهين الخفى ربما دون اللمس .

وقالوا فى قصته إنه مرض مرضاً أثر فى إهابه أى جلده فكان كما قالوا : الشيطان يحوم حوله ويقول له : إن الله قد بعثك رسولاً ، ثم فعل بك هذا ، ثم تركك وهو يستطيع أن يشفيك بـ ﴿ كُن ﴾ وهو يعذبه هذا الألم الجلدى وهو اجس الشيطان ، هل الشيطان يحس ؟ لا الذى يمس ويصنع كل شىء هو الله فكيف يكون هذا ؟ لأن هناك سبب ومسبب فكيف مسه الشيطان بعذاب ؟ ذلك بوسوسته له فجعل خواطره تنشغل شيئاً بالوسوسة فكان الحق سبحانه وتعالى أراد من أيوب أن يتنبه أن هذه الوسوسة ما كان لها أن تمر بخاطره ، فلما نادى ربه ودعاه حتى يقطع عن نفسه وسوسة الشيطان وهى تحتاج لمدافة ، والمدافعة تحتاج لقوة ، وقوته مرهونة بمرضه الذى هو فيه فهو لا يريد أن تضعف قوته بالوسوسة ، فيكفى المرض .

استجاب الله له حين ناداه وكشف عنه الضر ﴿ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّهِ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

فهو كان يشتكى من الضر فأمره الله تعالى ﴿ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [سورة ص : ٤٢] .

فالمسألة تحت قدميك مثلما تقول لشخص هذا الأمر تحت رجلك .

أيوب عليه السلام ١٤٢

والركض : هو القذف بشدة وسرعة مثلما تقول ركضت الفرس أى ضربته
برجلى من أسفل حتى يجرى .

فلم يقل فركض فخرج له الماء ، كل هذا انطوى بمجرد الأمر طلع الماء هنا
مغتسل وفيه شراب ، لأن مرضه كان مرضًا جلديا ترك بشورًا فى جلده البثور
لها تشويه فى الجلد .

فالأطباء حاليا أول ما يعالجون البثور بالمراهم وغيره ، ونقول له إنك عالجت
ظاهر المرض ولم تعالج سببه ، فالله قال له فى الركضة الواحدة ستشفى البثور
الظاهرة ، والأسباب التى جعلت البثور تأتى عندك .

فالمغتسل البارد للظاهر وهو البثور والشراب ينهى الأسباب التى جعلت
البثور تظهر^(١) .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ [ص : ٤٣] .. قيل يبدو أن بعض الأهل عندما رأوا
حاله هكذا ابتعدوا عنه فأعدناهم إليه عندما رأوه صحيحًا فجأة ، فهى مسألة
معجزة .

أى أتينا معهم آخرين بعددهم وهم الذرية والأتباع وغيرهم ﴿ رَحْمَةً مِنَّا
وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

ذكر : يدل على أنه لما صبر أتاه الله بالفرج بأن يكون جسمه سليمًا ،
وأسباب المرض الذى عنده وأهله يعودون إليه ثلاثة أشياء الجسم يصبح سليمًا
- الباطن يخلو من الأسباب التى تظهر البثور - وأهله الذين ابتعدوا عنه عادوا

(١) أخرج البخارى [٩٧٢] وابن حبان فى صحيحه [٩٢٤٦] وأحمد فى المسند
[٤١٣/٢] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عريانا فر عليه
جراد من ذهب فجعل يحثى فى ثوبه فنادى ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟
قال بلى ياربى ولكن لا غنى عن بركتك » .

أَيُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٤٣

له مرة أخرى ، والله سبحانه يحب من العبد أن يدعو ليكشف عنه الضر .
إذن .. فلماذا يتليه ؟

حتى يجأر إلى الله بالدعاء - ولذلك تقول الملائكة : يارب عبدك ضج من
الدعاء لك وأنت لم تجبه ، فيقول إن من عبادي من أحب دعاءه فأنا أبتليهم
ليقولوا يارب ما وضع الرحمة ولماذا ؟ رفقا بعواطفه فرجما عز عليه أن من كان
حواله تركه فأعدنا له أهله لأن له سابقة ود وحب وحنان .

﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَغْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُثُ ﴾ [ص : ٤٤] .

« الضغث » هو الحزمة من الحشيش أو الحزمة من شماريخ النخل « البلح »
وكلمة ﴿ فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُثُ ﴾ تلفتتا إلى أن هناك يمين .

قالوا إن الشيطان ذهب إلى زوجته ، وقال لها أطلبي من أيوب أن يقول أنا
شفانى الشيطان وسأشفيه حالا ، ولأنها مستشرفة إلى أن يبرأ قالت له لقد
جاءنى خاطر بكذا فقال لها إنه من الشيطان استمعينه ثم تأتى لتقوليه لى ؟
والله الذى لا إله إلا هو لأجلدك مائة .

إذن .. يوجد يمين وهو يريد أن يبر به ويضربها مائة .

فقال الله له خذ حزمة من الحشائش فيها مائة عود أو مائة من شماريخ البلح
واضربها بها ضربة واحدة فهذه تجعلك تبر فى اليمين .

﴿ نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ٣٠] أى : الذى عملناه له جزاء له
على صبره ، ولأنه رجع إلى ربه حتى جعل الله له شيئاً يرضيه بأنه خفف عنه
حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، أى الذى سيصيب زوجته ليبر بقسمه فلم
يتركه يجلدتها ، ولكن خفف عنها بأن يضربها بحزمة الحشيش مرة واحدة .



نبي الله يوسف عليه السلام

هو : الكريم بن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» (١) .

وسئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال : « أتقاهم » فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» (٢) .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] . ورؤيا يوسف تتميز بإعجاز ، فقد رأى الشمس والقمر يجتمعان معاً ، مع أن القمر والنجوم لا يجتمعون مع الشمس فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا ، وشيء آخر فى هذه الرؤيا أن يوسف رأى أحد عشر كوكبا وعرف عددها وميزها من دون الكواكب التى تملأ السماء ، وهذا هو الإعجاز الثانى فى الرؤيا ، وهو قد رآها أولاً ثم رآها مرة ثانية وهى تسجد له ، وهو سجد تكريم وليس سجد عبادة .

ولكن الأب الممتلىء قلبه حناناً خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه ؛ لذلك أسرع يقول له : ﴿ يَبْنَؤُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيْنِ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] .

(١) أخرجه البخارى [٣٣٩٠] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما .

(٢) أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ، ومسلم [٢٣٧٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهما .

رد يعقوب عليه السلام وهو يقول : ﴿ يَبُئِي ﴾ يوضح العاطفة وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف خاصة وهو صغير السن ، ومن قبل قال يوسف لأبيه يعقوب : ﴿ يَتَأْتِي ﴾ وكلا القولين دليل على قوة العاطفة التي تربط بينهما ، وكلما أصاب الإنسان شيء مفزع أسرع إلى من يحبه ليقص عليه ما حدث .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَبُئِي لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ ﴾ ، أى يعقوب يقول ليوسف : أنا مأمون عليك ، ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك إذا رويتها لى أرشدك للصالح فيه وإذا رويتها لأخوتك حقدوا عليك ، ولو أن يوسف رواها لأخوته لعرفوا تفسيرها ولزاد حقدهم عليه وكرهيتهم له . وقوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ ﴾ معنى الكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته . إذن .. فلا يكيد إلا الضعيف أما القوى فإنه يواجه .

والله سبحانه وتعالى قال عن النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] ، ومعنى ذلك أن كيد بعضهن أعظم لأن ضعفهن أعظم ، ولذلك فالضعيف إذا تمكن من خصمه قضى عليه .

والله تعالى قال : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ ﴾ إذا قلت يكيدوك أى يفعلوا بك شراً وإذا قلت فيكيدوا لك أى أنهم سيفعلون شراً من جهتهم ولكنها ستكون خيراً لك ولمصلحتك ولذلك يقول الحق : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، أى لصالحه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] والعداوة بين الشيطان والإنسان معروفة منذ خلق الله آدم .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

نبى الله يوسف عليه السلام ١٤٦

إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿يوسف: ٥﴾ و ﴿يَجْنِيكَ﴾ ، أى : ينزل عليك من حمايته ما يعطيك الأمان ويحفظك من كيد أخوتك ، وتمم النعمة ليس بنعم الدنيا ، ولكن بالنعمة الكبرى بأنه سيكون رسولاً ، وهذه النعمة هى الرسالة لا تسلب منه أبداً ؛ وإن كان الله تعالى سيتم نعمته عليه بأن يصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة .

ومعنى تأويل الشيء معرفة معناه وما سيؤول إليه ، فالرؤيا ليست علماً بشرياً يستطيع أحد أن يعلمك تأويل أو تفسير الأحلام فالرؤيا لا يفسرها إلا إلهام من الله سبحانه وتعالى أو شفافيه خاصة ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة »^(١) . وقوله : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى الله أعلم حيث يجعل رسالته وحكيم كل ما يفعله يتم بحكمة إلهية بالغة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمَسْأَلِينَ ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ آيَاتٌ ﴾ والآيات جمع آية . والآية هى الأمر العجيب اللافت للنظر ولو أن الإنسان نظر فيه لوجد فيه أشياء كثيرة ، وآيات معناها موعظة ، وقيل : عبرة ، وقيل : بصيرة ، وقيل : عجب . تقول : فلان آية فى العلم والحسن ؛ أى عجب .

إن كلمة : « آية » ترد فى القرآن بثلاثة معان : آيات الكون وآيات هى المعجزات التى يؤيد الله سبحانه وتعالى بها رسله لتثبت صدق بلاغهم عن الله ، وآيات القرآن وهى التى تحمل لنا أحكام المنهج .

(١) أخرجه البخارى [٦٩٨٩] ، ومسلم [٢٢٦٣] .

فمن أمثلة الآيات الكونية قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥٠] والآيات الكونية هي الرصيد الموجود في الإيمان ساعة تراها تلفتك إلى عظمة الخلق ودقة صنع الله تعالى وتجعلك تؤمن ان هذا الكون لا يمكن إلا أن يكون خالقه إلهاً عظيماً قادراً حكيماً . إنها الطريق الأول للإيمان بالتأمل في عجائب الكون وما خلق الله فيه من إعجاز .

أما الآيات التي يؤيد الله بها رسله فهي آيات تخرق قوانين الكون ، مثلاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَنْزِلُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] والله سبحانه وتعالى هو خالق النار وهو الذي أعطاها خاصية الإحراق ، فعندما يشاء يسلبها هذه الخاصية فلا تحرق وينجي إبراهيم من النار ، وهذه الآيات التي أيد الله سبحانه وتعالى بها رسله دليلاً على صدق بلاغهم عن الله . أما آيات القرآن الكريم فافقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] هذا معنى الآيات في القرآن الكريم يحملن منهج الله إلينا .

قول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّالِيْنَ ﴾ والآيات الموجودة في قصة يوسف من آيات العجائب التي تثبت القدرة لله تعالى وأنه سبحانه الخالق والفاعل المسيطر ، فيوسف ألقى في الجب لينتهي أمره ، ولكن إلقاءه في الجب جعله الله سبباً لكي يأخذه عزيز مصر ليربي في أعز بيوت مصر ثم يصير له شأن في الحكم .

نبي الله يوسف عليه السلام ١٤٨

ولقد جاءت قصص الأنبياء سلوى لرسول الله وتثبيتاً له ، فقص الله عليه قصة يوسف وما فعله به أخوته ، ثم كيف نصر الله يوسف وجعله حاكماً وجاء أخوته ليحتموا به ويعيشوا في ظلال نفوذه . فإذا كان محمد ﷺ كذبه قومه فله سلوى فيما فعله إخوة يوسف مع أخيهم ، وإذا كان الوقت يمر بلا نصر حاسم ، فيجب ألا نتعجل نصر الله فيوسف عليه السلام جاءه النصر بعد أربعين سنة من إلقاءه في الحب .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٨] يقسم أخوة يوسف فاللام دلت على القسم ، والمعنى والله ليوسف وأخوه أحب إلى أيينا منا . فالقسم يأتي ليؤكد هذا الحب . والسبب في حب الأب ليوسف وأخيه لأنهما صغيران ، وهذه مسألة أوجدها الله في قلوب البشر دون اختيار منهم حتى في الحيوانات ، مادام الابن صغيراً وضعيفاً وفي حاجة إلى الرعاية فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر . فالصغير الضعيف يتوجه إليه الحنان أكثر وهذه نراها في واقع الحياة . وأخوة يوسف لم يكونوا يعرفون الفرق بين حب العاطفة وحب العقل ومن هنا وصلوا إلى نتيجة خاطئة أن أباهم كان يجب أن يحبهم أكثر ، والنتائج الضارة الباطلة لا تنشأ إلا من مقدمات فاسدة باطلة .

ثم ماذا فعلوا ؟ بدأوا يتآمرون على يوسف وقالوا : ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحُلُ لَكُمْ وَجَهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] . إذن .. فهم يقدر أنهم سيفعلون ذلك ثم يتوبون فيقبل الله توبتهم ويكونوا قوماً صالحين ولكنهم لم يقولوا لنا من يضمن لهم أن يعيشوا إلى أن يتوبوا !! قال ابن كثير : فأضمرنا التوبة قبل الذنب .

١٤٩ نبي الله يوسف عليه السلام

وقوله تعالى : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ آيِكُمْ ﴾ فهم يريدون أن يقولوا إن وجه أبيهم سيصفو لهم بالحب والحنان بعد ذلك ، كأنهم يقولون عندما تنتهى من قتل يوسف أو طرحه أرضاً نرتاح مع أينا وينتهى كل شيء .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا نَقْتُلُكَ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : ١٠] الجب : هى البئر المطوية التى تحفر لكى يتجمع فيها الماء من باطن الأرض . وغيابة الجب : هى فجوة من الجب حتى لا يراه أحد ، وكلمة غيابة أى المنطقة الخفية من الجب^(١) .

ولكن كونهم يريدون أن يخفوه ، ولا يراه أحد لا يتلائم مع قولهم يلتقطه بعض السيارة . ذلك لأن الشر يتناقص عند الأخيار ؛ لذلك بدأوا بالقتل ثم قالوا اطرحوه أرضاً أخف من القتل ، ثم قالوا ضعوه فى غيابة الجب على الأقل يجد ماء ، فالشر عند الأخيار يتناقص .

والله تعالى لم يقل لنا من الذى قال : ﴿ لَا نَقْتُلُكَ يُوسُفَ ﴾ وإنما قال : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ لأن الله لم يردنا أن نكره الآخرين فجعلها مجهولة^(٢) . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا يَتَّبِعَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَلْأَعْيُنُونَ ﴾ [يوسف : ١١] وما داموا قالوا لا تأمنا فكأن هناك محاولات

(١) فى تفسير بن كثير [٤٥١/٢] . قال ابن كثير : غيابة الجب هو أسفله ، قال قتادة وهى بئر بيت المقدس .

(٢) فى زاد المسير [١٤٢/٤-١٤٣] . قال ابن الجوزى : أنه يهوذا ، وقول آخر : أنه سمعون ، وقول ثالث : أنه روبييل وهذا قول قتادة وابن إسحاق .

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه فى الحب تقوية لقلبه وتبشيراً له بالسلامة .
والثانى : أنه أوحى اليه بالذى يصنعونه به ، فعلى هذا يكون الوحي قبل إلقائه فى الحب إنذاراً له .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] أخوة مكروا بأخيهم وأخذوه وألقوه فى غيابة الحب وهم يعلمون أن أباه يحبه وكان لا يأمنهم عليه فكيف يواجهونه ؟ لابد أن يواجهوه بإنفعال نفسى كاذب مستوراً بظلام الليل حتى لا يكتشف الأب بما أودعه الله من نور فى قلبه الإنفعال المصطنع على وجه أولاده ولذلك جاءوا وقت العشاء ليكون ، وبكاؤهم كان بكاء مصطنعاً .

ولذلك فإن الحق تعالى يقول : ﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكٌ وَابْتُكِنَ ﴾ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿ [النجم] ، فكما أن الموت والحياة يختص الله بهما فكذلك الضحك والبكاء .

بعد أن تأخر أخوة يوسف إلى أن جاء وقت العشاء ليستروا انفعالاتهم فى الظلام ماذا قالوا ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أخوة يوسف ذهبوا يتسابقون ، وتركوا يوسف عند متاعهم ليحرسه لأنه صغير السن ، ولا يستطيع أن يتسابق معهم ، وهم بذلك قد خالفوا اتفاقهم مع أبيهم لما قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ ﴾ فأين الحفظ فى أن يتركوه وحده عند متاعهم ؟ وذلك يجعل منه عرضة لأن تفتك به وحوش الصحراء وهم بدلاً من أن يجعلوه يرتع تركوه وحده عند أمتعتهم .

نبي الله يوسف عليه السلام 152

أولاد يعقوب أحسوا حتى والليل يسترهم أن أباهم يعرف أنهم يكذبون لذلك ظهرت ريبتهم من أنفسهم وأقرأ قولهم لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ وهذا ينطبق عليه المثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى ، وهم فى تخبطهم حاولوا أن يتهموا أباهم بأنه لا يصدقهم وفى هذا محاولة لمداراة الإثم الذى يشعرون به .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف: ١٨] ودم كذب يعنى : دم مكذوب ولكن الدم لا يكذب وإنما الذى يكذب هو من أتى بالدم من شاة ذبحها ولطخ بدمها قميص يوسف ، فهم عندما ذبحوا الشاة لطخوا القميص من الخارج كما أنه لو أن الذئب أكل يوسف فلا بد أن يكون قد مزق قميصه بأنيابه ومخالبه لكى يصل إلى اللحم ولكنهم جاءوا بقميص يوسف سليماً غير ممزق .

يعقوب ساعة رأى قميص يوسف وهو غير ممزق وملطخ بالدم من الخارج قال لأولاده كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨] ، ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ بمعنى : سهلت أو يسرت أى أن أنفسكم يسرت لكم الكذب والصبر المطلوب هنا هو الصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى ولا جزع ولا نواح ولا هلع .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] كأن الصبر شاق على النفس فيعقوب لا يستطيع أن يصدق ما يقوله أولاده وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجمع الناس ويقول لهم : أبنائى كذابون لقد أخذوا أخوهم يوسف ولم يعودوا به فابحثوا لى عن يوسف تماماً كالرجل الذى

١٥٣ نبي الله يوسف عليه السلام

قالوا له : ابنك قتل أخاك فالمعونة من الله في مثل هذه الحالة أن نطلب منه أن يرزقنا الرحمة والصبر من قسوة ما حدث ولا نتجه بذلك إلى خلق الله لأن الخالق موجود .



اللَّهُ ينجي يوسف

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ [يوسف: ١٩] ،
﴿ سَيَّارَةٌ ﴾ معناها : قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان ولذلك فهي
تعرف دروب الصحراء وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هناك جباً فيها ماء .
والوارد هو الذى يرد الماء ليأتى به لبقية القافلة . والدلو : هو الجردل ،
و « أدلى » أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء وهذا لقوله : ﴿ فَأَدْلَى
دَلْوَهُ ﴾ وارد الماء حين ألقى دلوه وجده ثقيلاً بشكل غير عادى فنظر داخل
البئر ليرى ماذا حدث ؟ فوجد غلاماً قد تشبث بدلو الماء . غلام جماله يلفت
الأنظار فما كان منه إلا أن قال : ﴿ يَكْبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ﴾ [يوسف: ١٩] ، فهو
يريد من أفراد القافلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة إنه غلام .

ثم يقول الحق : ﴿ وَأَسْرُوهُ بِيضَاعَةً ﴾ [يوسف: ١٩] أى أخفوه وسط أمتعتهم
خوفاً من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم ولذلك أخفوه كأنه
بضاعة وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة . ويقول الحق : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠] شرى تأتى بمعنى
باع وأخذ الثمن والمعنى أنهم باعوه بثمان بخس والبخس هو النقص ولماذا
باعوه بثمان بخس ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة خوفاً من أن
يأتى ذروه وأهله ويأخذوه منهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ ﴾ أى لم يكونوا يرغبون فيه ولا فى الإبقاء عليه .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ
أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف: ٢١] من هنا نعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم

يشتره لنفسه بل اشتراه لامرأته ربما لأنها لم تكن تنجب ، وكانت هذه المسألة تحزنها . وعندما نعلم أن الرجل اشتراه لامرأته ، تعطينا لقطة كبيرة عن دخول الفساد فى البيوت مع التبنى والخدم الذين بلغوا الحلم سواء من الرجال أو النساء وهم وراء هذا الفساد ، فبمجرد أن يكبر المتبنى أو العبد لابد أن يفصل بينه وبين النساء فى البيت لأنه قد كبر وأصبحت له شهوة .

فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء » فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرايت الحمى قال ﷺ : « الحمى الموت » (١) والحمى : هو قريب الزوج أو قريب الزوجة مما لا يشك فى دخوله . قول الذى اشتراه من مصر لامرأته : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ ، المثوى هو : الإقامة أى أعد له مكاناً طيباً ليقيم فيه فسيكون فيه منفعة عندما يكبر أو نتحذه ولداً وهذا دليل على أن الزوجة لم يكن لها ولد قال : ﴿ عَسَوْا أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْفَعَهُمْ وَلَدًا ﴾ ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٢١] أى بعدما كان ملقى فى الجب بدون قميص يلبسه وإخوته له كارهون أخذه عزيز مصر وقال لزوجته أكرمي مثواه وقوله : ﴿ مَكَّنَّا ﴾ أى أكرمناه وهبنا له بيت عزيز مصر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُمُ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : ٢١] وتأويل الأحاديث هى الرؤى التى يراها النائم وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر . هذا الحديث يرينا أن الإنسان لا يصلح حكماً على الأحداث : فأخوة يوسف أرادوا به شراً فألقوه فى الجب ولكن الله جعل هذا

(١) أخرجه البخارى [٥٢٣٢] ، ومسلم [٢١٧٢] .

الشر الظاهري من أسباب الخير العميم الذي سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر . ولو علم اخوته أنهم بسبب إلقاءهم له في الجب سيرتفع شأنه ما ألقوه أبداً ، ولذلك يقال : لو علم الظالم ما أعدّه الله للمظلوم لضن عليه بالظلم .
وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١] لأنه لا قوة في الأرض ولا في هذا الكون تستطيع أن ترد أمراً لله تبارك وتعالى .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .
لا يعلمون ماذا ؟ لا يعلمون أنهم لا قدره لهم في هذا الكون ولا قوة لهم إلا بما شاء الله . فالله سبحانه وتعالى الذي لا إله إلا هو قال للأرض كوني فكانت وقال للسماء : كوني فكانت وقوله سبحانه : كن نافذ في كونه .
ويقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ والبلوغ هو الوصول إلى الغاية وقوله : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني وصل إلى غايته من النضج والاستواء فكأن مهمة الإنسان في الكون تبدأ حين يبلغ أشده ويصبح صالحاً أن ينجب مثله ويقول تعالى : ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ما هو الحكم ؟ هو الفصل بين قضيتين ، بين خصمين متعارضين حق وباطل ، وما دام الله أعطاه العلم فهو يقدر أن ينقل ما تعلمه لغيره .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إذن .. فكل إنسان يدخل في مقام الإحسان أى يعبد الله كأنه يراه يعطيه الله ثمرة إحسانه بأن يمهده بحكمة وعلم والحق يقول ذلك فى معرض الحديث عن نبي فالحكم ليس له خصوصية للرسول ولكنه عام لكل محسن فمن أحسن يعطيه الله حكماً وعلماً لأنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وصف يوسف عليه السلام بأنه بلغ أشده معناه أنه أصبح فى كامل فتوته وآتاه الله الأخلاق والعلم ، وكانت امرأة العزيز تنظر إلى جماله وهو صغير نظرة إعجاب ثم لا شىء لأنه صغير السن ، ولكن عندما بلغ أشده أبتداً خيالها يسرح فى أكثر من اتجاه وهذا هو النزوع . فكل عملية شعورية يتعرض لها الإنسان العاقل لها إدراك ووجدان ونزوع ، وامرأة العزيز وصلت إلى عملية النزوع . فالإنسان إذا نظر للشىء وأدرك جماله فهذا إدراك وإعجاب ثم ، يحدث الوجدان وهو أن تجد نفسك مشدوداً إلى جمال هذا الشىء ثم بعد ذلك تأتى عملية النزوع بأن تمد يدك لتأخذ هذا الشىء ، حينئذ يتدخل الشرع ويقول لك لا هذا ليس من حقت .

هذا بالنسبة لجميع المخلوقات ما عدا المرأة والرجل ، فالله سبحانه وتعالى رحمة بنا جاء من أول الأمر ، ومنع النظر لأن النظرة تؤدى إلى الإعجاب ، والإعجاب يؤدى إلى النزوع ، والنزوع يؤدى إلى المعصية قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور] وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴿ ٦١ ﴾ [النور] وامرأة العزيز نظرت إلى يوسف وأعجبت به وبجماله ، هذا الإعجاب قادها إلى النزوع فراودته عن نفسه ، ولو أنها امتنعت عن إدراك الشىء أولاً أى أنها لو كانت محجوبة عنه أو هو محجوب عنها ما حدث كل هذا .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَرَاودَتْهُ أَلْوَىٰ هُوَ فِي يَتِّيٰهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : ٢٣] ما هى المرادة ؟ هى المطالبة برفق وليس فى خداع يستر ما تريده ممن تريده منه فإذا كانت المسألة سهلة فالمرادة تنتهى إلى شىء وإذا كانت المرادة غير سهلة كأن تراوده وهو يتأبى أى يمتنع تنتهى إلى مقاومة ومشاجرة . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّقَتْ

الله ينجى يوسف ١٥٨

الْأَتُوبَ ﴿﴾ معناها أنها غلقت باباً وراء باب مما يدل على أنها مدركة تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ؛ ولذلك فهي حريصة على أن تخفى ما ستفعل .
 وقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى أنها تهيأت له فانتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح فى الطلب ، يوسف عندما رأى هذا قال :
 ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣]
 والمعاذ هو ما تستجيره وأنت لا تستجير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقتك فتستجير بمن ينجذك ممن هو أقوى منك . وكلمة « معاذ الله » عند المؤمن إذا قالها فلا بد أن الأمر عسيب .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾
 إذن .. فيوسف لم يوافق على ما تريده ، وطلب المعونة من الله وقوله :
 ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أى نجاني من الجب ومن شر إخوتي وهيألى مكاناً رغداً لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه ، وأن أجعل نعمه عليّ وسيلة لمعصيته خصوصاً أن زوجها - العزيز - قد أكرم يوسف .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى أن الله تعالى يجازى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء فلا يفلح من ظلم .

قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] وقال
 تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] .

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهَا وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّيَ ﴾ الهَمُّ : هو حديث النفس بالشئ قد يفعل الإنسان أو لا يفعل
 والعبارة جاءت فى أمر المراودة هى راودته وهو ممتنع إذن فهناك مفاعلة : اثنان يتصارعان على شئ أحدهما امرأة العزيز ﴿ هَمَّتْ يَدُوهَا ﴾ والطرف الآخر وهو يوسف ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فبالنسبة لامرأة العزيز حدثتها نفسها أنها تريده
 الله ينجى يوسف

وعندما تكلم الحق عن يوسف قال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ،
لو حللنا هذه العبارة تكون ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمم بها ولو
حرف امتناع للوجود .

نقول : لولا زيد عندك لأتيتك فأنا لم آتتك لوجود زيد عندك . بالنسبة
ليوسف نقول : لولا أن رأى برهان ربه لهمم بها ولولا معناها : أنه لم يهمم بها
والامتناع حدث لأنه رأى برهان ربه فكأن العبارة : لقد همت به ولولا أن
رأى برهان ربه لهمم بها ؛ ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمم بها وتنتهى المسألة .
الحق سبحانه وتعالى : يقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ولم يقل :
ولقد همت به ولم يهمم بها . نقول أن الله سبحانه يريد أن يثبت فحولة
يوسف وأنه لم يمتنع عنها لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف . فيوسف كامل
الرجولة يمكن أن يهمم بها ولكن الذى جعله لا يهمم بها أن برهان ربه فى
داخله وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهمم بها .

وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ويوسف والنسوة اللاتي
دعتن عندما لمنها . والشاهد الذى شهد أنها هى التى راودته والعزيز نفسه
كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يفعل شيئاً .

أما يوسف فقال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف : ٢٦] وهى اعترفت بعد
ذلك أنها راودته عن نفسه وقالت : ﴿ أَلَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ
وَإِنَّمَا لِمَنِ الْقَصْدَيْنِ ﴾ [يوسف : ٥١] ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف : ٥٢]
أى أنا التى راودته عن نفسه فاستعصم من الخطيئة ولم يقع فى المعصية .
وتقول كذلك أنى لم أقل عليه كلاماً يخالف الواقع ولقد جاءت آيات الله
كلها تبرئ يوسف فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن
نفسه وأنه أستعصم ولم يقع فى الخطيئة .

الله ينجى يوسف

 ١٦٠

والنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ قُلْ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ،
والله تعالى صرف عنه كيدهن وما دام الله قد صرف عنه كيدهن فالشيطان
لا يستطيع أن يوسوس له لأن الشيطان لا يدخل في معركة مع عباد الله المخلصين
ولا يقترب منهم . وقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ لَا تُغْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ [ص] ، أى الذى يعبد الله مخلصاً له الدين
لا يقربه ولا يغويه ولقد قال الله تعالى عن نبيه يوسف : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ
عَنهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحة يوسف وقال : ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ
مِنْ دُبُرٍ فَكَدَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿ [يوسف : ٢٤] .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ
مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] والفحشاء هى الزنا ، فما هو السوء ؟
السوء هو : المرحلة السابقة للفحشاء هى فكرة الهم وما يصاحبها إذن فامرأة
العزير راودته عن نفسها وبمجرد أن راودته أسرع إلى الباب فجرت خلفه لعلها
تسبقه وتمنعه من فتح باب الحجرة . وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَأَسْتَبَقَا
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف : ٢٥] ثم حسم الله تعالى القضية
حتى لا يكون هناك مجال لاجتهادات بشرية فقال : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴾ تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على
المعصية لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أى أن كل واحد منهما يريد أن يصل
إلى الباب قبل الآخر ، والسؤال هنا : أن كل واحد منهما يريد أن يسبق

الله ينجى يوسف ١٦١

الآخر إلى الباب لماذا ؟ هي المرادة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب ؟ لتمنعه من الخروج وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب .
هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف أستنبط الحقيقة .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب إذن فهو يريد الخروج . وهى تجذبه بقوة من قميصه لتعيده فقطعت القميص من الخلف . امرأة العزيز حين رأت زوجها أمامها عند الباب وكل الشواهد تؤكد أنه كانت هناك مرادة بينها وبين يوسف أرادت أن تبرئ نفسها وتلصق التهمة بيوسف وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يغريها على الفاحشة وهى التى صدته لذلك قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] فهى من غيظها من رفض يوسف لمرادتها له وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأنه يسجن أو يعذب .

وهنا رد يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف : ٢٦] ، إذن .. فهى ادعت أنه حاول أن يعتدى عليها وهو قال إنها هى التى حاولت أن تغريه على المعصية وعرضت عليه نفسها . العزيز هنا لم يتصرف تصرفاً أهوج بحكم العاطفة وكان من الممكن أن يفعل ذلك فى ثورة غضب ويقتل يوسف ولكنه استمع لشاهد من أهل زوجته حتى لا يظلمها ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة .

الحق يقول : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى من قرابتها وقيل أنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره وكان من قرابة المرأة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهِيَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [يوسف : ٢٧] .

الله ينجى يوسف

وبدأ الشاهد بالاحتمال الأول وهو صدق امرأة العزيز وكذب يوسف ، فهو في هذه الحالة يكون هو المقبل عليها وهي التي تحاول الفرار منه والدفاع عن نفسها . فهي إما من المقاومة تقطع له القميص من الأمام ، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يطأ هو نفسه على قميصه من الأمام فيمزقه . إذن .. فالاحتمال الوحيد لأن يكون يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها ، أن يكون قميصه ممزقاً من الأمام ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى إن كان قميصه ممزقاً من الخلف فلا بد أنها هي التي راودته عن نفسه ، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق ، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليه وهي تدافع عن نفسها .

هذه هي الحجة التي قدمها الشاهد لتفصل بين قولين متعارضين : قول يوسف وقول امرأة العزيز ، إذن .. فالشاهد أصدر حكمه أولاً قبل أن يرى القميص وأعطى الافتراضين ، والدليل على كل منهما ورتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على آخر .

ثم كان الحكم : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك فى الخفاء وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم .

حينما عرف العزيز أن امرأته أرادت أن تخونه مع يوسف وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما قص علينا القرآن : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩] أى أن العزيز

طلب من يوسف ألا يتحدث في هذا الأمر أبداً حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس . وقال لزوجته : لقد أذنبت وكنت من الخاطئين فاستغفري لذنبك .

لكن كيف خرج الخبر من القصر ؟ ربما يكون الخدم في القصر حينما سمعوا الضوضاء تصمتوا فعرفوا القصة هذا احتمال واحتمال كبير ، وأياً كان الأمر المهم أن الخبر خرج من القصر قصر العزيز إلى نساء المدينة بطريقة ما وأبلغ إليهن . وأقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَدَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٠] ، ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ قال العلماء إنهن خمسة : وهن امرأة ساقى العزيز . وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه .

قصة واقعية تناقلها النسوة فيما بينهن في بيوتهن وأن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه أنها بفعلها هذا في ضلال مبين . أدركت حينئذ أن هذا مكر بها وأن قول نساء المدينة ليس غضبة للحق ولا كرهاً في الضلال الذي وقعت فيه إنهن أردن شيئاً آخر هو إذلال كبرياء امرأة العزيز ونشر فضيحتها بأنها وهى امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه . امرأة العزيز تتذلل إلى خادماها وتقدم له نفسها وهو يرفض إنها عملية صعبة ومهينة ، وحين تسمعها امرأة العزيز لا يمكن أن تسكت ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] ،

(١) فى حديث الإسراء الطويل الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : « ... فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير » أخرجه مسلم [١٦٢] .

الله ينجى يوسف ۱٦٤

إنها أرسلت لهن دعوة بالحضور إلى القصر في ضيافتها ، وأعدت لهن المتكأ وهو الشيء الذي يستند إليه الإنسان في الجلسات الطويلة . وأتت كل واحدة منهن سكيناً وهذا يعنى أنها خططت أن ترد على المكر بمكر أشد . والإنسان حين يستخدم السكين لا بد أن يكون متنبهاً إلى ما يفعل ، لأنه لو ضاع إنتباهه أو انتقل إلى شيء آخر فستقطع السكين يده ، وهذا ما كانت تهدف له امرأة العزيز .

كانت امرأة العزيز تهدف إلى أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة فيقطعن أيديهن^(١) . ولذلك قالت ليوسف : ﴿ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] يقال أكبرت الشيء بأن تكون قد تخيلته قبل أن تراه على صورته ، ولكن حين تراه تجد أن الرؤية أكبر كثيراً من التخيل ، بمعنى أنك تخيلته فى صورة حلوة ووجدته آية من آيات الجمال .

يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أى وجدن صورته فوق كل تخيل بحيث أصابتهن حالة من الانهيار والذهول ، مما رأين أمامهن فنسين أن فى أيديهن سكاكين يقطعن بها الطعام فقطعن أيديهن بدلاً من أن يقطعن الطعام . وقلن : ﴿ حَشَّ لِلَّهِ ﴾ أى تنزيه لله أن يخلق مثل هذا الجمال الأخاذ فى ، يوسف ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يغضب ربه .

وقولهن : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال ، فكأنهن قلن لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم فلا بد أن يكون هذا ملكا . فالإنسان عندما يرى بشراً فيه من صفات الجمال والكمال الكثير فإنه يقول هذا ليس إنساناً هذا ملك . هكذا رآته نساء المدينة فوجدت امرأة العزيز الفرصة لتبرر ما فعلته وترد على كيدهن فقالت كما يقص علينا القرآن

الله ينجى يوسف ١٦٥

الكريم : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لَمْتَنِي فِيهِ ﴾ [يوسف : ٣٢] أى فذلك الذى وجهت
إلى اللوم أننى راودته عن نفسه وها أنتن ترين ماذا فعل جماله فى نفوسكن .
يقول الحق حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فبعد أن
كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها وتدعى عكسها ، بأن يوسف هو الذى
راودها عن نفسها اعترفت بالحقيقة لماذا ؟ لأنها فى المرة الأولى كانت فى
وضع الاستنكار ، ولكن بين النسوة اللاتي قطعن أيديهن وقلن هذا ملك
كريم ، وجدت المرر لفعالها ، لأنها لم تسمع لوماً أمام الانبهار الذى
استقبلت به النسوة يوسف .

ولذلك قالت : ﴿ فَأَسْتَعْصِمُ ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة وكلمة
استعصم تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس فهل وجد يوسف مشقة ؟
نقول إن الله تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة
وأنه لم يمنعه الإيمان . ولذلك جاهد نفسه ليمنعها .

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود فقالت : ﴿ وَكَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ
مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢] هنا امرأة العزيز
تخلت عن حيائها وتحفظها تماماً وقالت : لئن لم يفعل ما أمره به فسأسجنه
وأجعله من الصاغرين أى ذليل مهين . فهى توجه كلامها للنساء . أنتن أكبرتن
يوسف وأنا سأجعله ذليلاً مهاناً إذا لم يفعل ما أمره به أى : إذا لم يوافقنى
على ما أطلبه منه . ويلاحظ أنها قالت ستسجنه وتجعله ذليلاً ولم تقل أنها
ستطرده مثلاً أو تبعه لغيرها لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن
يخرج من القصر وأنه لن يراه أحد إلا هى فلو أنها قالت أنها ستطرده
أو ستبيعه لسارعن لشرائه وأخذه .

يوسف لم يجد في هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات إلا أن يستغيث بالله قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] ونجد يوسف هنا أنه استعان بالله منهن جميعاً فهن لم يراودنه لأنفسهن إذا كان غير ممكن وهو عند المرأة فى بيتها لكن قد يكن أعن المرأة على مطلوبها .

يوسف ينجى ربه قائلاً : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يوسف دعا الله باسم الربوبية ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ ثم استغاث بالله من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة ، وهو فى سن خطيرة سن البلوغ والرجولة ولذلك فهو يستغيث بالله بأن يصرف عنه كيد النسوة ، لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن وبقية مما يردن به سيميل إليهن فى هذه الحالة ، ويكون من الجاهلين .

الله تعالى استجاب له ، لأنه لجأ إليه مضطراً لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به ، فإما أن يصرف الله سبحانه وتعالى عنه كيدهن ، وإما أن يقع فيما لا رغبة فيه لذلك يقول الحق : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤] سميع لدعوات الداعين له والعليم بأحوال المتعجبين إليه .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] .

عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف تأمرن عليه ليدخل السجن وكان دخول يوسف السجن دليلاً على استبقاء حركة الحب له فى نفوس

(١) أخرجه البخارى [٥٠] ، ومسلم [٩] .

النسوة . فلم يقلن اقتلوه لأنه كان لديهم أمل في أن يقيدن حركته في السجن
سيجعله يفكر في أن يقبل ما سبق أن رفضه ، وربما الذل الذي سيراه في
السجن بعد العز الذي كان يعيشه في قصر العزيز يلين من عناده .

ثم تنتقل اللقطة إلى يوسف وهو في السجن ، يقول الحق سبحانه وتعالى :
﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا
نَرْنٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦] .

وفي السجن تقترب النفوس من بعضها ، الفتيان رأى كل منهما رؤيا ،
وطلب أن يفسرها له يوسف ، وهنا نعلم أنهما قد مكثا مع يوسف فترة طويلة
لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة ، بل لا بد من طول العشرة التي
جعلتهم يلجأن إلى يوسف في كل أمر يهمهما ، لأنهما رأيا في يوسف
الإنسان السوي حسن الخلق .

فكل منهما رأى حلمًا ، أحدهما رأى أنه يعصر خمرًا ، والثاني رأى أنه
يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل منه الطير ﴿ إِنَّا نَرْنٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هي
سبب سؤالهما له في الرؤيا التي رأياها ، وهذا يدل على أن الإحسان ظاهر في
يوسف عليه السلام والإحسان هو : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن
تراه فإنه يراك » . ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وجد أن هذين
الشخصين عندهما بداية إيمان ؛ ولذلك قرر أن يعطيها حاجتهما قبل أن
يأخذ حاجته منهما أولاً .

ونلاحظ هنا أن يوسف لم يتحدث عن الرؤيا التي رآها السجينان ، لقد
أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم دون أن يجييهما على ما سألاه لأنه

الله ينجي يوسف

 ١٦٨

لو أجابهما أولاً لانصرفت أذهانهما عن الانتباه إلى ما يقول من ترغيب في الإيمان وتنفير من الكفر ، وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧] .
وكأنه يقول لهما إنه يعلم أشياء كثيرة غير التي يشاهدها ظاهرة عليه ، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية فقال : إن هذه ليست من عندي ولا خصوصية لي ، لأن هذه علمها عند ربي لأنى تركت ملة من لا يؤمنون بالله واتبعت ملة آبائي المؤمنين الموحدين ؛ إبراهيم ، وإسحاق ؛ ويعقوب ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴿٣٨﴾ .
يقول الحق تعالى : ﴿ يَصْحَجِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] . لقد نقلهما يوسف من حاجتهما الشخصية إلى قصة التوحيد وعبادة الإله الواحد ، فهل خير لكم أن تعبدوا آلهة متفرقين أم أن تعبدوا إلهاً واحداً هو الله سبحانه وتعالى ؟! والحق سبحانه حين يضرب لنا المثل على وحدانية الألوهية بالنسبة لعبيده يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] .

الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً لعبد مملوك لمجموعة من الرجال ، وعبد مملوك لسيد واحد ، العبد الذى له عدة أسياد ليسوا متفقين ، بل هم متشاكسون هذا يأمره بشيء وهذا يأمره بضده ، وهو محتار لا يعرف يرضى من ، أو يسمع كلام من أو يتبع من ، والعبد الذى له سيد واحد يكون مرتاحاً لأنه لا يوجد إلا هو الذى يقول فيسمع له ، ويأمر فيطاع ، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى .

وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى اتخذتموها أنتم ،
أى أنتم صنعتم هذا الكفر . إذن .. فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق وهم
أطلقوا أسماء على غير مسميات .

إذن .. فكفرهم تقليداً لآبائهم ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أن الله لم
يطلب منكم ذلك وليس لكم حجة ، ثم يقول : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ
إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] أى لا حكم فى هذا الكون إلا لله ،
وما يبلغه الرسل من أحكام يبلغونها عن الله ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَيْتُمْ ﴾ ، أى الدين
الحق .

ثم كان تأويل الرؤيا أن قال لهما : ﴿ يَصْجِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى
رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ ﴾ [يوسف : ٤١] .
هذا تفسير الرؤيا التى قصها الرجلان على يوسف : أحدهما تظهر براءته
ويعود إلى القصر ويسقى سيده خمرًا ، أما الآخر وهو خباز فتثبت عليه التهمة
فيصلب وتأتى الطير لتأكل من رأسه . ويقال أن أحدهما كان ساقى والآخر
خباز والذى سيرا هو الساقى .

وتتابع حكاية يوسف مع صاحبيه فى السجن إذ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : ٤٢] . قال العلماء عن
هذه الجملة إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين لأن الأنبياء
عملهم مع الله مباشرة لا بواسطة الخلق وما دام يوسف مستقبلاً عن الله فلا بد
أن يتجه إلى الله مباشرة ولا يطلب الوساطة من البشر ولذلك حينما قال ذلك ماذا
حدث ﴿ فَأَنْسَنُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

الله ينجى يوسف

 ١٧٠

والبضع من ثلاثة إلى عشرة وقد حددها العلماء بأنها سبع سنين . فلما ظن يوسف أن الساقى ناج قال له اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسى أن يذكر مولاه الملك بذلك .

يُعلمنا ربنا كيف يُجرى الأحداث لتتم أقداره دون أن يشعر أحد ماذا حدث ؟ الذى حدث أن الملك رأى فى منامه رؤيا أفزعته فجمع الملك حاشيته وقص عليهم منامه الذى رآه فماذا قال ؟ قال : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُّونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٣] الرؤيا المنامية تتعارض مع الفكر السليم فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين ؛ لذلك طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه ؟ ﴿ قَالُوا أَضْفَعْتُ أَخْلَطٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ ومعنى ﴿ أَضْفَعْتُ أَخْلَطٍ ﴾ أى : أحلأط وقالوا أى مختلفة مع بعضها البعض والضعف هو حزمة حشائش مختلفة الأجناس . والمعنى أنه يوجد اضطراب فى الرؤيا ولا علم لنا بالتأويل .

قال الحق تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِزَعُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف : ٤٥] ، إذن .. الساقى الذى قال له يوسف إنك ستسقى الملك خمراً سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها الملك والحيرة التى عليها القوم وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف وقال ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يعنى : ابعثونى إلى من سيروى لنا معنى هذا الحلم وأرسلوه وأسرع إلى يوسف فماذا قال ؟

قال كما يقص علينا القرآن : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٦] وقوله : يوسف أيها الصديق تدل الله ينجى يوسف ١٧١

على أنه جربه فى مسائل متعددة وكان فيها صادقاً ، وأنه صادق فى كل أقواله فكأن الصدق يلزم يوسف فى أقواله وأفعاله . وقوله : أفنتا أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحكم كى ننقله إلى الملك لأنه أنزعج . والفتوى المطلوبة فى أن البقر الهزيل يأكل السمين وهذا ضد طبيعة الأشياء وهذه الفتوى التى جاء يطلبها ليست لنفسه ولكن لمن أرسلوه وهو الملك وحاشيته لذلك قال :

﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لماذا قال : ﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ ﴾ ولم يقل : لأرجع لأن الساقى وقد أثر فيه كلام يوسف عن التوحيد والعبودية لله يعلم أن الأمور ليست بيده وهو ليس متيقناً أنه سيعود إلى الملك فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ، فكأن الصدق يلزم يوسف فى أقواله وأفعاله . وقوله : أفنتا أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحكم كى ننقله إلى الملك لأنه أنزعج . والفتوى المطلوبة فى أن البقر الهزيل يأكل السمين وهذا ضد طبيعة الأشياء وهذه الفتوى التى جاء يطلبها ليست لنفسه ولكن لمن أرسلوه وهو الملك وحاشيته لذلك قال :

﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لماذا قال : ﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ ﴾ ولم يقل : لأرجع لأن الساقى وقد أثر فيه كلام يوسف عن التوحيد والعبودية لله يعلم أن الأمور ليست بيده وهو ليس متيقناً أنه سيعود إلى الملك فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ، وذلك إيمان منه بقدر الله مع الإنسان واحتياط أخر منه فى الأداء يقول : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهب أنه رجع إليهم فمن يضمن له أنهم سيستمعون إليه ويستوعبون ما يقول ؟ وأقر قوله سبحانه : ﴿ وَلَا نَقُولَنَّ لِشَأْنٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿١٦﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف]

الله ينجى يوسف

 ١٧٢

وساعة تقول إن شاء الله تكون قد لزمت قدرك وأعطيت المسألة لمن يملك الأمر حقيقة (١) .

يوسف عليه السلام أبلغ الساقى تفسير الرؤيا فماذا قال له : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ [يوسف] . يوسف عليه السلام قال : أنهم سيزرعون سبع سنين يواصلون خلالها الزراعة ﴿ دَابًّا ﴾ أى لا يوجد كسل . ونتائج هذا الزرع أتركوه فى سنبله أى لا تتصرفوا فيه بالتجارة ولا المبادلة ولا بأى شىء أخر وخذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام على أن يكون ذلك أقل ما يمكن بقدر الإمكان . ثم يأتى من سنوات الزرع والرخاء سبع شداد أى جذب وقحط سبع سنوات كلها شدة لا تعطىكم شيئاً من القمح فإن لم يكن عندكم من الحصيلة الأولى بقية فستموتون جوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أى من العرق والعمل فى المحاصيل وما حفظتموه فى سنوات الرخاء .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ كلمة حصن معناها الامتناع وهنا بمعنى الإحراز يقولون : بنوا حصناً ليحتموا فيه إذا هاجمهم الأعداء ، بحيث يمتنع على أعدائهم النصر وتمتنع عليهم الهزيمة وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصِنَاتُ

(١) عن أبى هريرة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة غلاماً يقاتل فى سبيل الله فقال الملك : قل إن شاء الله فلم يقل ونسى فأطاف بهن ولم تلد إلا امرأة نصف إنسان ، قال النبى ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحدث وكان أرجى لحاجته » أخرجه البخارى [٤٢-٥٢] واللفظ له ، ومسلم [١٦٥٤] .

مِنَ النِّسَاءِ ﴿ [النساء : ٢٤] أى الممتنعات عن الفجور . ويقول تعالى ﴿ أَلَتِي
أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا ﴾ [الحريم : ١٢] أى امتنعت عن التفريط فى عرضها ، كل هذا
معناه الإمتناع والإحراز .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾ ،
هذا خارج عن الرؤيا لأن الرؤيا ﴿ سَبَّحَ بِقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبَّحٌ عِجَافٌ
وَسَبَّحَ سُبُلَكَ حُضْرٍ وَأُخْرَ يَابِسْتِ ﴾ [يوسف : ٤٦] انتهت الرؤيا عند هذا
الحد . كلمة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي ﴾ هذه نبؤة من يوسف ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ أى
ينزل عليهم الغيث والمطر وهو من الإغاثة والغوث ﴿ يَعْرِضُونَ ﴾ أى يعصرون
الأشياء التى تعصر كالعنب والسَّمْسَمِ وَالزَّيْتُونَ وَقِيلَ : أراد حلب الألبان وقيل
هى من العصرة وهى المدجأ والمناجاة .

يقول الحق : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ
فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠]
وهكذا رفض يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن الذى هو فيه إلا إذا
برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعاً بما فيهم الملك وطلب يوسف أن
يسأل الملك النسوة كيف راودن يوسف عن نفسه . فبراعة الساحة أمرهم
بالنسبة لكل إنسان وما دام بريئاً فلا بد أن تعلن براءته ويعرفها الجميع ، لم يرد
يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة رغم أن الله سبحانه
وتعالى يعلم براءته لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعاً لأنه رسول والرسول قدوة
سلوكية ولكى يؤدى رسالته ويتبعه الناس لابد أن يكون قدوة سلوكية
لا تشوبها شائبة .



اعتراف النسوة ببراءة يوسف

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ [يوسف : ٥١] والخطب : هو الحدث الهام الذى يتناقله الناس . وكان الملك حين خاطب النسوة بلهجة شديدة لأنه اعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عملية خطيرة تدل على انعدام القيم ، فأسرعن ينفين التهمة عن أنفسهن فقلن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ ونلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف ، أى برأن يوسف ولم يبرئن أنفسهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً ليوسف من أن يفعل ما يفضب الله وقلن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءاً أبداً بالنسبة لهؤلاء النسوة أو غيرهن .

وكانت امرأة العزيز جالسة مع هؤلاء النسوة ولم يشر إليها القرآن إلا عندما تكلمت وقالت ﴿ أَكُنَّ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْفٰئِدِيْنَ ﴾ حصحص الحق بيان الحق بعد كتمانها أى ظهر وبرز . امرأة العزيز قالت : إنه لم يعد هناك مجال للستر أنا راودته فعلاً وهو صادق . مما يدل لنا على أن الجدوة الإيمانية تتوهج ، وأنه قد ينسى الله ولكن عندما ينتهى الخاطر السىء يعود إلى توازنه الكمالى ، وربما جعل من الزلة الأولى وسيلة للإحسان فيما هو آت .

تقول امرأة العزيز : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخٰئِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٢] يعنى حتى يعلم يوسف أننى فى غيبته دافعت عنه وقلت وأن الجريمة لا تفيد ولا بد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين .

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٧٥

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيْٓ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوْءِٓ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓٓ إِنَّ رَبِّيٓٓ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ۝ ﴾ .

يعنى أنا لا أريد أن أبرئ نفسي كذباً لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس ولذلك قال القرآن الكريم ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓٓ إِنَّ رَبِّيٓٓ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ۝ ﴾ ومعنى غفور : أى للذنوب ، ورحيم : أى يمنع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الذنب .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيْٓ ﴾ من تمام قولها أم لا ؟ بعض العلماء قالوا : إنه من قول يوسف عليه السلام عندما أبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا وهو من باب هضم النفس وعدم التزكية بها ، مع أنه علم هو وغيره والناس أنه برئ وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِيٓ بِهٰذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِيٓ ۝ ﴾ [يوسف : ٥٤] أى أجعله خالصاً لى دون غيرى وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفسية لهم دون غيرهم ولما التقيا قال له الملك ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ أَمِيْنٌ ۝ ﴾ [يوسف : ٥٤] أقالها الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر ؟ لا لا بد أنه جلس وتحدث معه ووثق من علمه ووثق من أمانته وحفظه ولذلك يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمُوْهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ أَمِيْنٌ ۝ ﴾ دليل على أن الملك اختبر يوسف مرة وربما مرات ووثق فى علمه وأمانته . ومعنى ﴿ مَكِيْنٌ ﴾ أى ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ، ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من امره ، أو على ما يكله إليه من ذلك .

اعتراف النسوة ببراءة يوسف

 ١٧٦

حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك قال : لو طلبت منه الآن شيئاً لأعطانيه وأنا سأطلب منه ما يتعلق بتفسير الرؤيا ، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض لأنقذ الناس من المجاعة ، وأحفظ لهم حياتهم فقال : ﴿ أَجْمَلِنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [يوسف : ٥٥] وكان الطلب تأكيداً لثقة يوسف في أن رؤياه ستتحقق في سبع سنين رخاء ، وسبع سنين جدياً . وأنها محتاجة إلى حكمة في إدارة شئون البلاد في سنى الخصب ، تضمن ألا يحدث إسراف في الاستهلاك ، وفي سنوات الشدة تضمن أن كل محتاج سيجد طعامه ، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف وأمانة تعطيك العدل بين الناس وخبرة تضع كل شيء في موضعه تماماً ؛ لذلك طلب يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليهم . وطالب الولاية في الإسلام لا يولى ولكن الظروف الاستثنائية تتطلب أن من له الحكمة أو الخبرة أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر ، ومثال ذلك قائد سفينة تلاعبت بها الأمواج وقائدها لا يعرف ماذا يفعل فيأتي واحد من الركاب ويقول له : اترك الأمور لي فأنا خبير في هذه الناحية ، حينئذ لا بد أن يتركها له حتى تنتهي العاصفة ويعود الهدوء ويترك إدارة السفينة لقبطانها . إذن .. فالإنسان لا يطلب الولاية إلا إذا أحس أنه يعرف وجه الخروج من الأزمة وفي طلب يوسف شجاعة فكونه يتقدم إلى العزيز ويطلب الولاية هذه شجاعة منه .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [يوسف : ٥٦] مكننا ليوسف كيف ؟ بأن الله تعالى علمه تأويل الأحاديث ، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه لم يفسرها إلا يوسف ، ومكنه بأمانته وحسن خلقه ، ومكنه بأن أبطل كيد أخوته الذين تأمروا عليه وألقوه

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٧٧

فى الجب لىباع عبداً لىس هذا فقط بل إن يوسف ابتلى من كل من أحبوه عمته وأبیه وامرأة العزیز . و حکایة عمته إنها كانت تحبه جداً، وربته وهو صغیر بعد أن ماتت أمه ، وأراد أبوه أن يأخذه منها ، ولكنها لم تصبر على فراقه ، ففكرت كيف تبقى على يوسف عندها ، وكان هناك حزام يتحزم به إبراهيم ، اسمه منطقة إبراهيم ، والحزام كان عند عمه يوسف ، وكان المبدأ أن من يسرق شيئاً يعاقب بأن یصبح عبداً لمن سرقه . عمه يوسف ألبسته منطقة إبراهيم تحت ثوبه وعندما جاءوا لىأخذوه قالت إنه سرق .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ .
تدل على سعة مساحة الأرض التى مكن منها يوسف ويتبوا منها حيث يشاء : أى يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء . أى يصنع فى الدنيا ما يشاء لتفويض الأمر إليه ، وهذا التمكين هو رحمة للناس لأنه فى كل منطقة سيذهب إليها سيرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها . هذا بالنسبة لأمر الدنيا أما بالنسبة لجزاء الآخرة قال سبحانه : ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .
يعدل ميزان حركة الحياة الذى لا يستقيم بالحديث عن الآخرة فقط دون أن يعطى للحياة قوامها الذى يضمن سير الأمور فيها على نحو تحقيق مصالح الخلق ، ويقول له إن أجرك فى الآخرة سيكون خيراً من أجرك فى الدنيا .
نعود إلى أخوة يوسف فمنذ أن ألقوه فى الجب لم نعرف ماذا فعلوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ . جاء أخوة يوسف لطلب القوت لأنها مجاعة ولا يوجد طعام

اعتراف النسوة ببراءة يوسف

 ١٧٨

إلا فى خزائن يوسف ولا يصرف منه إلا بأمر يوسف ؛ يوسف عرفهم لأنهم لم يتغيروا ولكنهم لم يعرفوه لماذا ؟ لأنه كان صغيراً وأصبح رجلاً ولأنه كان على خزائن الأرض فكانت هذه تعطيه هبة ولأن كل همهم الحصول على الطعام فلم يدققوا فيه .

يقول الحق : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَاءِ تَرَوْتَنِي أَتِي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف : ٥٩] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ ﴾ الجهاز هو ما يحتاج إليه ومنه جهاز المسافر والقمح هنا هو ما جاءوا للحصول عليه .

وقال لهم يوسف : ﴿ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ ﴾ ، وكان العقل يقتضى أن يقولوا : من الذى أعلمه أن لنا أخاً من أينا ؟ لم يتنبهوا إلى هذا لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو همهم الأكبر .

قول يوسف عليه السلام : ﴿ أَلَا تَرَوْتَنِي أَتِي أَوْفِي الْكَيْلِ ﴾ أى أعطيتكم حقكم فى الكيل وزيادة ولو جئتم بأخيكم من أياكم فسأزيد الكيل لكم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ إخبار يؤكد أن أخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده ، وأن الله سبحانه وتعالى جعلهم يأتون وينزلون عنده ، ليقول لهم أحضروا إلى أخاكم من أياكم . ثم يتبع ذلك بقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُونَ ﴾ [يوسف : ٦٠] أى إن لم تأتونى بأخيكم من أياكم فلا يوجد لكم كيل عندى ولا تقربوا هذه الناحية أبداً لتحصلوا على الطعام .

المسألة بالنسبة للأخوة ليست سهلة فهو خيرهم بين أن يأتوا بأخيهم أو لا يأخذون الكيل وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم بعد ما فعلوه اعتراف النسوة ببراءة يوسف

بيوسف حتى يسلمهم أخاه الصغير لذلك قالوا : ﴿ سَتُرَوُّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف : ٦١] سترأود : أى ستفاهم مع أيينا لأن هذه مسألة صعبة والمرادة أخذ ورد ، أنت تقول وهو يرد عليك ثم ترد عليه .
وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ يعنى سنذهب ونحضره معنا .

ماذا فعل يوسف ؟ ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٦٢] البضاعة هى ما جاءوا به ثمناً للقمح يوسف قال لرجاله : أعطوهم القمح وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها وضعوها فى رحالهم بحيث لا يرونها إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم لماذا ؟
﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليردوا ثمن ما أخذوه .

الحق سبحانه يقول : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَمُرُّوْنَ لِحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : ٦٣] منع منا الكيل : أى فى المستقبل بعد هذه المرة لأن العزيز قال لنا : إن لم تحضروا أحاكم ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴾ أى إذا أردتنا أن نأتى لك بالقمح فالكيل لنا ممنوع إلا إذا أخذنا أخانا معنا . ورد الأب المتاع قائلاً : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] قول يعقوب : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ دليل على موافقة يعقوب على أن يذهب أخو يوسف معهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبغىٰ هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ [يوسف : ٦٥] وجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم التى أخذوها معهم ثمناً للقمح ردت إليهم فقالوا : ماذا نريد ؟ هذه اعتراف النسوة ببراءة يوسف

١٨٠

بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل وكانوا قالوا لأبيهم : قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته .
يقول الحق سبحانه على لسان يعقوب : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦] أى لن أرسله معكم حتى تحلفوا لى بالله إنه لن يحدث له شىء وسيعود معكم ثم جاء الاحتياط من يعقوب ، أى أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم ، وفى هذه الحالة فقط سيكون ما حدث قدراً لايد لكم فيه . وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى الله وفعلاً أخذ منهم العهد والميثاق وأشهد الله عليهم كما يقص القرآن الكريم علينا : ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر وبحنان الأبوة وقف يعقوب يودع أبناءه ويودهم بنصائحه قال يعقوب : ﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧] يعقوب أراد أن يقى أولاده من شر الحسد ^(١) فقال لهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة .

(١) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » . أخرجه مسلم [٢١٨٨] . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق » .
أخرجه البخارى [٥٩٤٤] ، ومسلم [٢١٨٧] .

وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم ودخلوا من أبواب متفرقة : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨] أى أنهم حينما أطاعوا أمر يعقوب لم يكن ذلك لينجيهم أو يمنع عنهم قدراً من أقدار الله ، فالأمر كله لله ، ولكن خاطراً ورد على نفس يعقوب فقضاها وهو أنه خاف أن يحسدوهم ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى ما قاله لأولاده كان عن علم علمه الله له ، علم خاص بيعقوب . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن أكثر الناس يعزلون الأسباب عن المسبب ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا .

يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩] كان يوسف متشوقاً إلى أخيه الذى لم يره منذ سنوات طويلة وقد كان شقيقه من أب واحد وأم واحدة . وأراد يوسف أن يطمئن أخاه لأنه لم يكن يدرى شيئاً عن قصة يوسف والبئر لأنه كان صغيراً ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ دليل على أنهم كانوا يعاملونه معاملة مهينة ، حقداً منهم عليه كما حقدوا على يوسف لحب أبيه له .

= وعن عائشة رضی اللہ تعالیٰ عنہا قالت : « أمرنى رسول اللہ ﷺ أن نسترقى من العين » . أخرجه البخارى [٥٧٣٨] ، ومسلم [٢١٩٥] .
وعن أسماء بنت عميس رضی اللہ تعالیٰ عنہا قالت : يا رسول اللہ إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم فإنه لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » . رواه الترمذى [٢٠٥٩] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٦٨٢] .

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٨٢

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : ٧٠] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام وكل ما طلبوه وجعل السقاية فى رِجل أخيه . والسقاية والصواع هو الوعاء الذى كان يشرب فيه الملك وكان إناء من فضة ، وكانوا يكيلون به الطعام ، ثم أذن رجل من الحاضرين : إنكم لسارقون بصوت عال وهذا معنى أذن . لقد كانوا جالسين بعيدين عن الإبل فلما سمعوا المنادى تنبهوا وأقبلوا يسألونه ماذا ضاع ؟ ﴿ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [يوسف : ٧١] ﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعًا أَلْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٢] والذى سيأتينا به لن نعاقبه بل سنعطيه حمل بعير زيادة .

والسرقة اتهام قبيح ، ولذلك أسرع أخوه يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئاً ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ فهم أمناء لا يسرقون وما جاءوا من بلدهم إلى هنا للسرقة . فاحتال يوسف ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : ٧٤] وهذا قصد يوسف أن يترك أخوته يحددون العقوبة على أخيهم ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

ماذا فعل يوسف ؟ أمر رجاله أن يبدأوا أولاً بأمتعة أخوته والإبل التى جاءوا بها . يقول الحق ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ . لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولاً : لانكشفت الحيلة لكنهم أخرجوا ما فتحوا كان وعاء أخيه ثم يقول الحق : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ ۱٨٣ اعتراف النسوة ببراءة يوسف

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿١﴾ ، أى أن الله سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه وأعطاه من العلم ما جعله ينتصر على أشقائه ، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴿ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ يقصد به شقيق يوسف حيث سيعيش عيشة رغدة مع أخيه وفى نفس الوقت سيكون مع نبي الله يوسف فيزداد علواً فى الآخرة بتطبيق منهج الله الصحيح .

قال الحق سبحانه وتعالى على لسان أخوه يوسف : ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ٧٧] قالوا : إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر !! لماذا ؟ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل « أم يوسف وأخيه » لقد سرق أخوه الأكبر من قبل وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يخاطبونه . فأتار هذا الاتهام فى نفس يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه . ورسول الله ﷺ يقول : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع »^(١) ولقد حدث يوسف فى نفسه بهذا الكلام ﴿ تَصِفُونَ ﴾ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف وأنه لا حقيقة فى ذلك .

قال الحق حكاية عن أخوة يوسف : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٧٨] حاولوا استعطاف يوسف وقالوا : إن لهم أباً شيخاً كبيراً ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم بدلاً منه فخذ أحدهما مكانه بجريمة السرقة التى حدثت واركه يعود إلى أبيه .

(١) رواه أبو داود [٤٧٨٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠٠٠] .

رد عليهم يوسف : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ ۚ
إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا لَكَ ﴾ [يوسف : ٧٩] أى لا أريد إلا الحق ولو أخذت إنساناً
بذنب إنسان آخر أكون من الظالمين حينئذ علموا أنه لن يجدى النقاش
ولا الرجاء مع يوسف .

الحق تعالى يقول : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ
تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي
يُوسُفَ ۖ ﴾ ، فلما يأسوا من نقاش يوسف جلسوا فى مكان ليس معهم فيه
أحد وبدأوا يتهامسون وقال كبيرهم أنكم عاهدتم بموثق من الله أن حكاية
يوسف لن تتكرر . ثم قال كبيرهم : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ
يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فكبيرهم قال : إنه سيقى فى المكان الذى
فيه أخوه حتى يأذن له أبوه أن يعود بعد أن يقتنع ببراءته أو أن يحكم الله له
بأن يسلموه أخاه فيأخذه ويعود لأبيه فإذا لم يحدث هذا فسيبقى فى هذه
الأرض حتى يموت والله هو خير الحاكمين .

ثم قال لأخوته : ﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا
شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [يوسف : ٨١] أى قولوا
لأبيكم : إن ابنك سرق وهذا ما حدث وما كنا لنعلم أنه يسرق .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] والقرية التى كنا فيها وهى مصر والمعنى : اسأل
أهل القرية والقافلة التى كانت معنا حتى الجماد أو الحيوان إليهم ذلك لأنه نبي
والأنبياء قد سخر لهم الجماد والحيوان بما يحدث فيهم من المعرفة . وأولاد
يعقوب أخذوا يكررون أنهم صادقون لأنهم كذبوا من قبل ذلك بالنسبة
ليوسف وكان هذا موجوداً فى عقل يعقوب ولذلك لم يصدقهم بل قال :

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٨٥

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف: ٨٣] ، و ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ بمعنى سهلت ويسرت وزينت ، ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أى تخفون شيئاً دبرتموه ولا أعرفه ثم يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، أى ييوسف وأخوه بنيامين والأخ الكبير . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ العليم الذى لا يغيب عن علمه سبحانه شىء . والحكيم فيما يجرى علينا من أقدار .

لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا ، ماذا كان موقفه منهم ؟ ﴿ وَقَوْلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] تولى عن أولاده أى تركهم ولم يواصل معهم الحوار ليخلوا بنفسه لأنه يتحسر على يوسف وأخيه وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق الله لأنه قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وساعة تسمع : يا أسفا ويا ويلتاه فهى تعنى أشد الحزن والتندم وقوله تعالى : ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ الإنسان إذا امتلأت عيناه بالدموع تحدث غشاء على سواد العين فيبدوا أبيض وقوله تعالى : ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبيته .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا تَأَلَّوْا تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥] وهم أولاد يعقوب قالوا : ستظل تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تموت؟! والحرض : هو الأشراف على الهلاك أى أنهم قالوا : إن يعقوب من حزنه على يوسف سيشرف على الهلاك ثم يكون من الهالكين فعلاً . وهنا رد يعقوب عليهم : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] أى لا شأن

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٨٦

لكم بي واطركونى لحالى ، فهو يعرف أن التضرع إلى الله فى وقت الضرر والأزمة عبادة .

ثم يقول يعقوب لأولاده : ﴿ يَبْنَىْ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾
ف قوله تعالى : ﴿ فَتَحَسَّسُوا ﴾ أى استقصوا ونقروا واستخدموا كل حواسكم من بصر وسمع وغيره لتصلوا إلى نبأ أو حقيقة من أمر يوسف .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه للكرب . وقال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، وقيل الروح : الفرج وقيل : الرحمة ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفى الطافة .

﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أى الذين لا يؤمنون بالله لأن هؤلاء لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية فإذا ما تخلت عنهم هذه الأسباب يملاً قلوبهم اليأس فينتحرون أو يصابون بالجنون أما المؤمن فيقول : لى رب هو خالق الأسباب سيفتح لى طريق الخلاص ، فالأسباب أعطاها لنا الله ولكن بقى خالق الأسباب يفعل ما يشاء فيأتى لك الشىء بلا أسباب ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾ وقد تسعى فى شىء وتفشل فيأتيك شىء آخر من غير حساب . فالؤمن إذا أتته المشاكل التى لا يجد لها حلاً فإنه لا ييأس لأن هناك إلهاً هو فوق هذه الأسباب كلها يستطيع أن يقول للشىء كن فيكون .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] أى أصابنا الجوع والحاجة ويقولون أنهم جاءوا ببضاعة مزجاة : أى مدفوعة الثمن ويزجى : يعنى يدفع ولكن هذه البضاعة رغم أنها مدفوع ثمنها إلا أنها رديئة ليست جيدة . وهم يستعطفون يوسف ألا يعطيهم ثمناً قليلاً مقابل هذه البضاعة المزجاة .

فيقولون له : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى لأنهم يعانون المجاعة يطلبون كيلاً وافياً من القمح ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ فإن لم يكن هذا الكيل يساوى البضاعة التى يحملونها فليكن الباقي صدقة . وإنك لن تأخذ الجزء منا حتى نقول : لا تملكون شيئاً لتعطونه ولكنك ستأخذ الجزء من الله سبحانه وتعالى . والبعض قال هؤلاء أولاد نبي فكيف يأكلون الصدقة ؟ نقول هذه خاصة بآل محمد ﷺ (١) .

يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثناياه ، وكانت مميزة بحيث أن كل من يراها يعرفه فلما رأوا ثناياه بدأوا يدركون الموقف : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] بمجرد أن قالها ﴿ قَالُوا أُوَيْسُكَ لِأَنَّتَ يُوسُفُ ﴾ [يوسف : ٩٠] أى أنهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها ، ولم ينكر يوسف عليه السلام بعد أن رأى الحال الذى وصل إليه اخوته ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَكَذَا أَخِي ﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه وبنبهم يوسف إلى أن اخاه دخل معه فى (١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : أخذ الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما تمر من تمر الصدقة فجعلها فى فيه ، فقال النبى ﷺ : « كخ كخ » ليطرحها . ثم قال أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة » أخرجه البخارى [١٤٩١] .

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٨٨

النعمة ثم أعطاهم حيثيات النعمة ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، أى حيثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى الله دائماً ولا يفعل ما يغضب الله ويجعل نقمة الله تحل به ، فإذا ابتلاه الله فإن عليه التقوى والصبر ، فإذا ما اتقى الإنسان وصبر فلا بد أن تكون عاقبته أحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة ولذلك فإنه لا يوجد إنسان يقابل الأحداث بالتقوى والصبر إلا جازاه الله بالفرج والخير العميم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١] أى أن الله تعالى قد ميزك علينا جميعاً ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَأَيِّ حَالِنَا وَقَدْ أَنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ كُنَّا خَاطِئِينَ . وهناك فرق بين خاطئين ومخطئين . والخاطيء : هو الذى يعلم منطقة الصواب ويخطيء عن علم وعمد . أما المخطيء : فهو يقصد الصواب لكنه يخطيء . ﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ ﴾ وهذا قسم مثل والله ، وبالله ﴿ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا ﴾ أى فضلك علينا ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ اعتراف بالذنب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] الشريب : معناه اللوم العنيف وقالوا فى هذا المعنى : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عفو جميل ﴿ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ ﴾ بعدما أعتزتم بذنوبكم وتبتم ورجعتم إلى الله . ثم قال : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَيْ يَأْتِ بِصَبْرٍ وَأَتُونَ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣] . إذن .. فلا بد أنه عرف أن أباه يربط عينيه من الحزن . ويقال إن الأخ الأكبر قال ليوسف : أيها العزيز إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك وجئت عليه بالدم الكذب فدعنى أكفر عن ذنبى وأحمل القميص الذى فيه الشفاء إلى أبى .

١٨٩ اعتراف النسوة ببراءة يوسف

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أى يأتى إلى يوسف وقد زال عنه الضر والمرض ويأتيه مبصرًا .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : ٩٤] . قوله ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ تدل على أن شيئاً كان متصلاً وفصل ، وقوله : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أى أنه شم الرائحة التى كانت فى القميص ، وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ أى تتهمونى بالتخريف لكبر سنى . وعندما سمع أولاده قوله بأنه يشم ريح يوسف ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْعَكِيدِ ﴾ [يوسف : ٩٥] أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٦] أنظر إلى دلائل النبوة ؛ وكيف أن النبى يحس بالأشياء قبل الناس ، ثم يأتى الواقع فيؤيد ما يقول . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩٧] كأن ذنوبهم كثيرة وهم معترفون بخطيئهم ماذا قال يعقوب : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٨] لم يقل : سأستغفر الآن إنما قال سوف أى بعد مدة . وتكلم العلماء كثيراً حول : ﴿ سَوْفَ ﴾ والراجع أن يعقوب آخر بنيه إلى وقت السحر وقت إجابة الدعاء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... ﴾ ﴿ وَقَوْلِ الْحَقِّ : ﴿ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ ﴾ دليل على

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٩٠

حرارة اللقاء لأن الفراق استمر عمراً طويلاً ، يوسف مشتاق إلى أبيه ، والأب مشتاق إلى أبنه .

وقوله : ﴿ أَبَوَيْهِ ﴾ رغم أن أم يوسف ماتت ذلك إن العادة كانت إذا ماتت الأم يدعون الخالة أما ويجعلونها في مقام أمهم . ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ السجود هنا هو شكر لله لأنه جمع شملهم وهداهم ، أو هو اعتذار ليوسف على ما بدر منهم نحوه ونحو أخيه ، أو هو تعبير عن الفرحه بجمع الشمل ، أو أن هذا كان من شريعتهم ثم حرم أو نسخ ؛ المهم أنه لم يكن سجود عبادة الذي لا يكون إلا لله وحده . وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة . قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، يسترجع يوسف البداية يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والكواكب تسجد له فأسرع يقص على أبيه هذه القصة ، فقال الأب هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم فلا تقصها على أخوتك . وهكذا يعيدنا فى آخر القصة إلى أولها . ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث . قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ وهذا إحسان إلى أخوة يوسف بعد أن عاشوا فى البدو وجاء بهم إلى قصر العزيز حيث مصر ذات الحضارة العريقة .

اعتراف النسوة ببراءة يوسف ١٩١

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ،
 الشيطان هو الذى وسوس لأخوة يوسف وأن الوسوسة كانت نزغاً وليست
 استقراراً على سوء . فكأن الشيطان شىء سطحي سريع الزوال خاصة إذا
 انتبهت وطلبت العون من الله ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ
 بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ، ثم يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لَطِيفٌ ﴾
 لطيف : يعنى هو المدير الذى لا يخفى عليه شىء واللطافة هى أن يكون
 الشىء دقيقاً جداً رغم أن له حيز .

ثم يتوجه يوسف إلى ربه ويقول : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ
 تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
 مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] يوسف عليه السلام يقول :
 ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ ﴾ أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف
 الملك ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكاً فى الأرض قهراً عن الله سبحانه بل حتى
 الظالم والمفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة الله تبارك وتعالى .
 ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ لأن الله علم يوسف أن يفسر الرؤى ففسر
 لمن معه فى السجن وفسر للملك والله سبحانه وتعالى حين يعلم يوسف ذلك
 فهذه ليست عجيبة لأنه سبحانه فاطر السموات والأرض أى أنه خالق كل
 شىء ويعلم أسرار خلقه ﴿ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى ناصرى ومعينى
 لأنه نصره على كل العقبات التى واجهته فى حياته ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ لأن
 الدين عند الله الإسلام ﴿ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى بأهل الجنة أو آبائه
 إبراهيم وإسحاق ويعقوب .



نبي الله أيوب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] .
 وقوله : ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ أى دعاء لأن النداء بالنسبة لله دعاء ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

والضر إبتلاء فى جسده بمرض أو غيره وقالوا إن الأنبياء يمرضون مرضاً ينفرد الناس منهم . ومعنى الضر : هو الإيذاء فى الجسد . أما الضرر : فهو إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أعطى له إجابة دعائه وزاده أشياء لم يطلبها فى دعائه وهذا كله رحمة من الله وذكرى لكل عابد لأن العابد الذى يخلص عبادته لله ، عليه أن يعلم أنه إذا أصابه مكروه ولجأ إلى الله يرفع عنه هذا المكروه ويعطيه نعماً فوق ما طلب (١) .

(١) ورد ذكره عليه السلام فى أربع آيات من القرآن الكريم :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَيُونَانَ وَآدَمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ رَبِّ انصبروا ربهم أعلم بما هم صنع ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .
 وقوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .
 وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : ٤١] .
 وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثاً وتسعين سنة ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً ، خر عليه رجل جراد من ذهب =

١٩٣ نبي الله أيوب عليه السلام



= فجعل يحثى فى ثوبه فنادى ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال بلى يارى ولكن لاغنى عن بركتك . أخرجه البخارى [٣٣٩١] .

وهو صاحب البلاء المشهور فى جسده ، لما أشتد به البلاء أخرجه أهل القرية التى كان فيها إلى كناسة خارج القرية ، فمكث أيوب عليه السلام مطروحاً على كناسة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهرأ ما يسأل الله عز وجل أن يكشف ماله إلى أن أقبل على ربه يستغيثه ويتضرع اليه ، فرحمه ربه ودفن عنه البلاء ورد عليه أهله وماله ومثلهم معهم ، وقال له الحق تعالى : ﴿ اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] فاغتسل به ، فعاد كهيئته قبل البلاء فى الحسن والجمال . ورد خبره فى تاريخ الطبرى [٣٢٢/١] وما بعدها وتفسير أبى كثير [١٨٥/٨٣/٣] .

نبي الله أيوب عليه السلام ۱۹۴

نبي الله ذى الكفل عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

وقال الله تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة « ص » ﴿وَأَذْكُرْ عِنْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ .

فالظاهر فى ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً ، وإنما كان رجلاً صالحاً ، وحكماً مقسطاً عادلاً . وتوقف ابن جرير فى ذلك .. فالله أعلم .

وروى ابن جرير عن أبى نجیح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الجماهر أنبأنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتاده ، عن كنانة بن الأحنس قال : سمعت الأشعري ، يعنى أبا موسى

(١) أخرجه الطبري فى التفسير [٧٤/١٧] وابن أبى حاتم كما فى الدار المنثور [٦٦١/٥] .

رضى الله تعالى عنه وهو على المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان رجلاً صالحاً يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل^(١) .

○ ○ ○

(١) أخرجه الطبري في تفسيره [٧٥/١٧] وعبد الرازق في تفسيره [١٨٨٢] وعبد بن حميد وابن المنزر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور [٦٦٤/٥] وفي سننه ابن بشير في عداد الضعفاء ، وقتاده يرويه تارة منقطعاً عن أبي موسى ، وتارة يجعل بينهما كنانة بن الأحنس ، وهو في عداد المجهولين .
قصص الأنبياء لابن كثير [٣١٤-٣١٧] .

١٩٦ **=====** نبى الله ذى الكفل عليه السلام

نبي الله يونس عليه السلام

هو يونس بن متى نبي الله عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل نينوى من العراق إلى مائة ألف أو يزيدون وكان قومه يعبدون الأصنام فبعثه إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم وتوحيده (١) . وسميت السورة باسم يونس لأن قومه هم الذين آمنوا قبل أن يروا مقدمات العذاب فأنجاهم الله سبحانه وتعالى ، وأسمع إلى قول الحق : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان وضرر تركه وتأخيره وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب (٢) ، ومعناه أنه لو كانت هناك قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب لنجاها الله كما نجا قوم يونس ، ولكن لم يوجد قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب إلا قوم يونس هم القرية المستثناة من العذاب (٣) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] . والنون هو الحوت ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْلَبًا ﴾ أي صاحب الحوت وهو يونس بن متى سماه الله ذا النون لأنه حبسه في جوف الحوت الذي التقمه ، وقيل مغاضبًا لربه ، وقيل مقاضبًا لقومه ، والأول أصح (٤) .

(١) تاريخ الطبري [١١/٢-١٢] .

(٢) تفسير القاسمي [٣٣٢٠/٩] .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي [١٤٣/٣-١٤٤] .

(٤) لسان العرب [٦٤٨/١-٦٤٩] .

ولكن لماذا غضب يونس بن متى ؟ قالوا : لأن قومه كذبوه وحذروهم من تكذيبهم لمنهج الله وعقابه ، ولكنهم عصوا وتمردوا وتأخر عنهم عذاب الله ، فلما تأخر العذاب عنهم خاف أن يكذبوه فترك قومه ومشى ولم يكن يعلم أن القوم تابوا .

ذا النون خرج مغاضباً : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ أى اعتقد أن الله سبحانه وتعالى لن يضيق عليه فأرض الله واسعة ، وظن أنه سيجد مكاناً آخر يكون أهله أكثر للدعوة وأقل عداوة له ؛ ولكنه مرسل إلى هؤلاء وكان لا بد أن يتحمل الأذى منهم ، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة والتعنت كان شديداً من أهل هذه القرية « نينوى » فمعنى : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى ظن أن الله لن يضيق عليه ويتعبه بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة من قومه الذين تركهم فيسعد بطاعتهم بدليل أنه نادى فى الظلمات : ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فهو يريد من الله أن ينفس عنه كربته (١) .

وقول الحق : ﴿ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (٢) ، معناه أن هذه الدعوة ليست خاصة بيونس فقط ، ولكن الله سبحانه وتعالى ينجى بها كل من قالها

(١) فتح القدير للشوكانى [٤١٩/٣-٤٢٠] .

(٢) عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له » .

أخرجه الترمذى [٣٥٠٥] وأحمد فى المسند [١٧٠/١] وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٧٨٥] صحيح وصححه الشيخ شاكر [١٤٦٢] .

من المؤمنين ، فأى مؤمن يقع فى كرب أو يصيبه هم فيقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فإن الله تعالى يفرج عنه ما هو فيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكل من يصيبه غم ثم يتجه إلى الله ويقرأ هذه الآية لا بد أن يذهب الله غمه لأنه سبحانه قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى مثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين .

عندما غضب يونس عليه السلام غادر القرية واستقل سفينة ليذهب بها إلى بلد آخر ، ربما يكون أكثر قبولا لدعوته ، وحينئذ رأى قوم يونس عواصف ورياحا شديدة وانقلابا فى الطبيعة فذهبوا إلى علمائهم فقالوا لهم : إن هذه بداية عذاب سيصيبهم به الله سبحانه وتعالى لما فعلوه مع نبي الله يونس . وقالوا لهم : اذهبوا لترضوا يونس قبل أن يحل عليكم العذاب فأمنوا وبدأوا يردون المظالم إلى أهلها حتى قيل إن الرجل كان يهدم جدار بيته لأن به حجرا سرقة من جاره ويعيد لجاره الحجر .

أما قصة الحوت ؛ فعندما ركب يونس السفينة وتلاعبت بها الأمواج قالوا : لا بد من تخفيف الحمولة حتى تنجو السفينة من الغرق وأجروا القرعة فحددت القرعة يونس عليه السلام فألقوه فى البحر والتقطه الحوت ولفظه الحوت على الشاطئ ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَالْقَمَّةُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿۱۲۱﴾ فَلَوْلَا أَنَّمْ كَانَ مِنَ الْمَسْبُوحِينَ ﴿۱۲۲﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿۱۲۳﴾ [الصفات] . أى أن الذى نجاه هو كثرة تسبيحه وكثرة ذكره لله سبحانه وتعالى ، وأثبت عليه شجرة على الشاطئ لتحيمة من حرارة الشمس .



نبي الله موسى عليه السلام^(١)

يقول تعالى ﷻ سورة القصص : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : ٣] . هذه السورة اختصت بموسى وفرعون ، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون ، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء ؛ وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القمة ، والقمة هي ادعاء الألوهية ، فجعلها الله سورة وسماها سورة القصص ، وقال فيها الحق سبحانه : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ لم يقل : تتلوا عليك من خبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال : ﴿ مِنْ نَبَأِ مُوسَى ﴾ ؛ لأن النبأ أمر مهم ، وهل هناك أهم من أن يأتي موسى ليرد واحد عن ادعاء الألوهية ؟ فهي مسألة مهمة حقا ، قال الله فيها ستتلوا عليك بالحق ، وسماه الله القصص ، لماذا ؟ لأن القصص من قص الأثر ، فقد كان العرب قديما يتبعون آثار الأقدام ، فإذا حدث شيء وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل ، يسيرون وراء أثر القدم ، ويعرفون إلى أين ذهب ، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة الخ^(٢) .

(١) نبي الله موسى هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن ، والفرعون هو : الوليد بن مصعب ملك مصر ، وفي اللسان : فرعن : الفرعنة : الكبر والتجبر .
لسان العرب [٣٢٣/١٣] .

(٢) وقد اهتدى أعرابي من قصاصى الأثر على وجود الله القدير حينما أعمل عقله وقال :
البعر يدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ألا يدل هذا الكون على إله خالق قدير .

من ذلك قصة الرجل الأعرابي الذى شرد منه جمل ، وأخذ يبحث عنه فلقى رجل فقال له : عم تبحث ؟ قال : عن جمل لى شرد منى ، فقال له الرجل : هل جملك أبتز الذيل - أى مقطوع الذيل - ؟ قال : نعم قال له : هل به رجل عرجاء ؟ قال : نعم . قال : هل جملك أعور ؟ قال : نعم . فلما ذكر الرجل كل هذه الأوصاف فى الجمل ، أمسك به الأعرابي وقال : إذن أنت أخذت جملى . واقتاده إلى القاضى متهما إياه بسرقة الجمل .

فلما سأله القاضى وأنكر أنه أخذ الجمل ، قال له القاضى : إذن من أين عرفت كل هذه الصفات عن الجمل ؟ فقال الرجل : كنت سائراً فى الطريق فوجدت بعراً متجمعاً على غير عادة الجمال ؛ لأن ذيل الجمل يفرق بعره يمينا ويساراً عندما ينزل منه ، ولكنى وجدت هذا البعر متجمعاً فى أكوام صغيرة ، فعرفت أن صاحب هذا البعر جمل مقطوع الذيل .

فقال له القاضى : وكيف عرفت أن الجمل أعرج ؟ قال الرجل : لأنى وجدت أن للجمل قدماً غائرة فى الرمل ، والأخرى قد لامست الرمل ملامسة خفيفة ، فعرفت أنه أعرج . فسأله القاضى ، وكيف عرفت أنه أعور ؟ قال الرجل : لأنى وجدته يترك الخضرة فى جانب ويأكل من جانب واحد فعرفت أنه يرى بعين واحدة .

فهذا هو قص الأثر الذى نتكلم عنه . فمعنى ﴿ تَحَنُّنٌ نَّقْصٌ ﴾ أى : نقول لك أشياء هى الواقعة بالفعل^(١) .

(١) ﴿ تَحَنُّنٌ نَّقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصِصِ ﴾ أى : نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد ، وكأنك حاضر .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٦] .

٢٠١ نبي الله موسى عليه السلام

يدوبون في المجتمع القبطي . والناس يفهمون أن كلمة قبطي معناها نصراني ، وهذا خطأ ؛ لأن القبطي معناه المصري القديم ، لكن لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية ، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس ، ولكن ما هو السبب في أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا في خدمة الرعاة الذين أراحو حكم الفراعنة ، وتولى الملك ملوك الرعاة ، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل ، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتولى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله ويضبطهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل لماذا ؟ لأن بنى إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة .

هنا تجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر في القديم والحديث سماهم فراعين ، فهناك الآية التي نقرأ فيها قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ وهنا في قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر : فرعون ، لكن في قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للفراعنة ، ولكن ذكر لقب الملك ، وهذا من إعجاز القرآن ؛ لأنه في أيام يوسف كان الذى يحكم مصر هم ملوك الرعاة ، لكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة فمن الذى أخبر محمداً ﷺ بذلك ؟ إنه سبحانه الذى علمه ما لم يكن يعلم ، وأخبره بما لم يكن يدري .

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعاً تستبد شيعه بشيعه أخرى ، فشيعه الأقباط استبدوا ببنى إسرائيل ؛ انتقاماً لما فعلوه من مساعدة الرعاة الذين احتلوا مصر ، واستولوا على الحكم فيها ، وساعة يفرق فرعون بين الناس ويقسمهم إلى شيع متنافرة ، فهذا العمل منه ينفى أن يكون إلهاً ؛ لأن الإله يكون المخلوقون كلهم بالنسبة له سواء ، لكن الذى يحرض طائفة

٢٠٣

نبي الله موسى عليه السلام

على أخرى ليس ياله ، بل هو شئ مذموم ، يقول الله فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (١) [الأنعام : ١٥٩] لأنهم لو كانوا متمسكين بالدين لكانوا شيعة واحدة أو طائفة واحدة ؛ لأن الدين واحد ، لكن لأن كل واحد من الذين فرقوا دينهم يريد لنفسه سلطة زمنية ، تجده يكون لنفسه طائفة أو جماعة أو طريقة ؛ ليكون كبيرا عليها . فساعة ترى جماعة اختلفت وتفرقت إلى عشرين جماعة فاعلم أنهم مخطئون . لماذا ؟ لأن الإسلام - كما قلنا سابقاً - كالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، والكل محتاج إليه فحين يتلون بلون يصبح مثل العصائر ، وتتفرق الرغبات فأنت تحب المانجو وهذا يحب الفراولة وذاك يحب التفاح أو البرتقال ، وتتفرق الأمة ويضيع الدين فمادام أصبح للدين لون فلا فائدة فيه ، ولذلك لما أخبر محمد ﷺ أن الأمة ستختلف على كذا طائفة وسألوه : فأيهم على حق ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي (٢) فالطائفة التى على الحق واحدة ، وهى التى تقتدى بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

(١) نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث النبى ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث النبى ﷺ أنزل عليه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُوا شِيْعًا ﴾ أى فرقا ، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه . تفسير ابن كثير [١٩٦/٢] .

(٢) روى ابن ماجه عن أنس عن النبى ﷺ : « إن بنى إسرائيل افرقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفرق على اثنين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٢٧] .

نبى الله موسى عليه السلام ٢٠٤

ففرعون كان يستضعف طائفة من رعيته وهم بنى إسرائيل ؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غزوا مصر ، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين .
والإفساد : أن تأتى إلى شئ صالح فى ذاته فتفسده ، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحي النساء فهذا فساد كبير ، لماذا ؟ لأن هناك شيئاً اسمه استبقاء الحياة ، وآخر اسمه استبقاء النوع ، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع ، فهو يقتل الأولاد ؛ خشية أن يناله منهم شر ، لكن النساء يستبقينهن للخدمة والإذلال ؛ لأنهن ليست لهن شوكة ، ولا خطر منهن على ملكه .

والقرآن الكريم قال عن فرعون فى هذه الآية : ﴿ يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنََاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤]
ونجد القرآن قد شرح هذه الحكاية فى ثلاث آيات :

فى سورة البقرة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

الآية الثانية : فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يَقِيلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٤١] .

والآية الثالثة : ذكرها الله تعالى على لسان موسى لقومه ، حيث يقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٦] .

٢٠٥

 نبي الله موسى عليه السلام

فحين جاءت القصة من الله سبحانه مباشرة قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ .

وفى الآية الثانية قال : ﴿ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤١]
فهنا تكلم عن ذبح وقتل ، ونحن نلاحظ أن واو العطف جاءت على لسان موسى فى قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٦] فلماذا لم تأت هذه الواو عندما جاء الكلام من الله سبحانه مباشرة ، وجاءت عندما كان الكلام على لسان موسى عليه السلام ؟ قالوا : لأن موسى يعدد على قومه نعم الله عليهم ، وأنت حين تعدد فضائلك على ابنك مثلاً فتقول له : ألم أشتري لك بدلة جديدة ؟ ألم أشتري لك حقيبة ؟ ألم أحضر لك حذاء وكراسة وقلما ؟ ألم أشتري لك دراجة تذهب بها إلى المدرسة ؟ ألم أدفع لك المصاريف ... إلخ .

فأنت تعدد فضائلك عليه أو توضح له كثرتها ، لكن حين يكون الكلام من الأعلى لا يذكر النعم الصغيرة ، فموسى حين تكلم أراد أن يوضح نعم الله على قومه ، فذكر يسومونكم سوء العذاب ، وعطف عليها يذبحون ، لكن حين يتكلم الحق سبحانه لا يمتن إلا بالشئ الأصيل من النعم .

وفى الآيتين اللتين جاء الكلام فيهما من الله تعالى مرة قال : ﴿ يُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ وفى الآخري قال : ﴿ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ فلماذا قال فى الأولى : ﴿ يُدَّبِحُونَ ﴾ وفى الثانية : ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ .

قالوا : لأن عازهاق الحياة له وسيلتان إما الذبح وإما الخنق ، فذكر الوسيلتين ، ولا بد أن هذه حدثت وهذه حدثت أيضاً ، إذن عندما عطف ﴿ يُدَّبِحُونَ ﴾

نبي الله موسى عليه السلام 206

على ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾^(١) كان الكلام على لسان موسى ، وموسى يريد أن يعدد نعم الله على قومه ويبين أنها كثيرة فقال : ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ لكن ربنا حين يمتن ، لا يمتن بالنعم الصغيرة ولكن يمتن بالنعم الأصيلة الكبيرة ، فتذيع الأبناء واستحياء النساء ، هو نفسه سوء العذاب . والسوم^(٢) معناه أن تطلب الماشية المرعى ولا تأخذها نحن إليه؛ بل نتركها في الخلاء تلتقط رزقها ، ولذلك يسمونها السائمة؛ لأنها هي التي تذهب لتبحث عن رزقها ، لكن الماشية التي نربطها نحن ونحضر لها ما تأكله لا تسمى سائمة ، إذن معنى يسومونكم أى يطلبون لكم العذاب أى سيتفننون فيه ، إذن فرعون كان مستعليا ومفسدا في الأرض ، وفرق أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم وينكل بهم ، والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا ، ليعدل سلوكه ويحسن الأمور ، ويأخذ بيد المستضعفين ، ولو أن المتسلط على المستضعفين لم يستعل ولم يتأب على طاعة الرسول والانقاد للحق ، لكانوا جميعاً مع بعضهم يعيشون رعية .

(١) ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى يكلفونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأسوأه ، وقيل : يصرفونكم في العذاب مرة هكذا ومرة هكذا كالإبل السائمة في البرية ، وذلك أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولاً وصنفهم في الأعمال فصنف بينون وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يخدمونه ، ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليه الجزية . تفسير البغوى [١/٩٠] .

(٢) سامه الأمر سوما : كلفه إياه . وقال الزجاج : أولاه إياه ، وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر والظلم . قال أبو إسحاق ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ يولونكم . وقال الليث : السوم أن تجشم إنسانا مشقة أو سواها أو ظلما ، وقال شمر : ساموهم : أرادوهم به . وقيل : عرضوا عليهم . لسان العرب [١٢/٣١١] .

٢٠٧ نبي الله موسى عليه السلام

يقولون : إن الثورين حين يأتون للإنتقام من مفسد وأعوانه ، إنما جاءوا لينتقموا من هؤلاء المفسدين وينصفوا المظلومين . فكان يجب عليهم أن يمنعوا المفسد من الإفساد ؛ لأن منعهم له من الفساد فيه اعتدال الكون ، وبعد أن يقضوا على الفساد لا يفضلوا فئة في المعاملة والقرب على فئة ، ولكن اعدلوا بين الجميع وبذلك تأمنوا من غضبهم أو حقدهم عليكم ؛ لأن الحقد يأتي من تقريـك لجماعة أو طائفة وإبعادك لأخرى ، لكن يجب عليك بعد أن أبطلت الفساد أن تمنع المفسد أن يفسد فهذا إصلاح ، ثم تأخذهم جميعاً فى كنفك ورعايتك وتحتضنهم حتى تأمن حدوث الثورة المضادة .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ العلو : هو الطغيان والتجبر والتكبر . وبلغ من ادعائه العلو أن ادعى الألوهية .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى : طوائف يخدم بعضها بعضا ، ويسخر بعضها لبعض وجعل الأمة الواحدة طوائف يكون لها عند الفاعل ملحظ ، هذا الملحظ أنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور ؛ لأنه إن استقرت بينهم الأمور ، ربما تفرغوا إلى شئ ضده فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوباً من كل واحد منهم .

والله سبحانه وتعالى قضى ألا تدوم هذه الحال ؛ لأنه لن يفلح ظلم ، ولا يموت ظلم فى الكون حتى ينتقم الله منه ويرى المظلوم آثار هذا الظلم الذى وقع عليه . فربما رحمه ، وحسبك من حادث بامرئ أن ترى حاسديه بالأمس راحمين له اليوم .

نبي الله موسى عليه السلام ۲۰۸

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾^(١) [ق: ٣٨] فمن عدل الله سبحانه وتعالى أنه من على المستضعفين بفضله ، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط ، ولكن جعلهم أئمة ، وليسوا أئمة في مكان آخر غير الذي كانوا مستضعفين فيه ولكن في نفس المكان بعد أن أورتهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾^(٢) [القصص: ٦] كلمة نمكن ، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذي يحدث فيه الحدث ؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه ، فمعنى نمكن أى نجعل الأرض مكانا لممكن فى الأرض وقد كان فرعون ممكناً فى الأرض ، يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها والله سبحانه أعطانا ذلك فى لقطات متعددة من القرآن الكريم ،

(١) قال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع ، وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أى من إعياء ولا تعب ولا نصب .
تفسير ابن كثير [٢٢٩/٤] .

(٢) ﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ بأن يكون هذا الغلام الذى احتزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيته وتدله وتنفده ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلى ، هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .
تفسير ابن كثير [٣٨٠/٣] .

نبي الله موسى عليه السلام

فنبى الله يوسف ففسر الرؤيا للملك وفرح به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] فمعنى مكين هنا أى لك مركز ثابت ، ولا ينال أحد منك شيئاً .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٥٦] أى : أعطيناه سلطة فيأخذ خير الشيء ويصرفه للآخرين .

ومعنى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أن هامان هو وزير فرعون ، وكلمة : ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جنود وحرس خاص ، أو أن المعنى أن هامان يزاوّل سلطانه من باطن فرعون لأن فرعون لا يزاوّل سلطانه إلا بواسطة وزرائه ، فالجنود يأخذون أوامره من هامان ، فالمسألة واحدة . أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون ؛ لأن هامان كان مركز قوة فى بلاط فرعون ولذلك كان هامان قوى الشخصية أمام فرعون ، ويرفع رأسه أمامه ، ونحن نسمع المثل الشعبى الذى يقول : « حتعمل ده على هامان »^(١) أى أنك لا تستطيع أن تضحك على هامان لأنه مثلك ، فالله تعالى أراد أن يرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء المستضعفين . يريهم الشيء كانوا يحذرونه ويخافونه . ما هو هذا الشيء ؟ الذى كانوا يحذرونه ويخافونه هو النبوة التى جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتى من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بنى إسرائيل ، فلما عبروا له الرؤيا قالوا : أنه سيأتى أحد من جهة بيت

(١) مثل شعبى : يضرب لمن لقى مثله فى خصلة من الخصال .

والمثل العربى : على أختك تطردين ، وقيل فى فرس عادات لرجل فركب أختها يطلب عليها .
المستقصى فى أمثال العرب [٤١٢/١] .

المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على الملك أو أن الكهنة قالوا لفرعون :
إن طفلا سيولد هذا العام يكون ذهاب ملكك على يديه^(١) .

فالحق سبحانه أراد أن يرى فرعون وجنوده ما يحذرونه منه . من هؤلاء
المستضعفين ، ويرون هذا الذى يحذرونه بأعينهم ، وحين ننظر فى المسألة نجد
أن فرعون عرف برؤيا منه بواسطة الكهنة ، أنه سيأتى وليد سيكون ذهاب
ملكه على يديه ، فخاف على ملكه وأخذ حذره واحتياطاته فقرر أن يقتل
الغلمان الذين يولدون والذى يأمر بقتل الغلمان يجلس على شط النهر ، فىرى
تابوتا عائما وفيه طفل فيأخذه جنوده إليه ، ويقوم بتربيته دون أن يخطر على
باله أن هذا الوليد يمكن أن يكون هو قاتله والمتسبب فى زوال ملكه ، ودون
أن يفكر لماذا ألقى أهل هذا الطفل به فى هذا التابوت ووضعوه فى ماء النيل ،
فكيف ينسى كل هذه الأشياء مع أنه يدعى الألوهية وأنه يعرف كل شئ ؟
إذا كان الكهنة قالوا له : إن ذهاب ملكه سيكون على يد طفل يولد من
بنى إسرائيل فى عام كذا ، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سينجو من القتل ويكبر ،
ثم يكون على يديه زوال ملك فرعون ، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء ، مع
أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل ، فهو سيقتل غير الذى

(١) وهذا مما تلقاه القبط من بنى إسرائيل ، من أنه سيوجد منهم غلام يكون سبب
هلاك وذهاب دولة فرعون على يديه ، فقد كان بنو إسرائيل يدرسون ذلك من قول
تحليل الله إبراهيم عليه السلام ، حين ورد مصر وجرى له مع جبارها ما جرى ،
حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ومنعها بقدرته وسلطانه ، فبشر
إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من ذريته من يكون هلاك مصر على يديه .
وكانت القبط تحدث بها عند فرعون .

تفسير ابن كثير [٣/٣٨٠] .

نبي الله موسى عليه السلام **=====** ٢١٢

سيكون ذهاب الملك على يديه ، وطالما أفلت هذا الطفل من يده فهو إذن ليس إلهاً ؛ لأنه لم يعرف ذلك لا بألوهية ولا حتى بعقله وذكائه فهذا عجب ؛ لأن الله أنقذ هؤلاء المستضعفين وأبان لفرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين ، ما كانوا يحذرونه ويخافونه من أن ذهاب ملكهم وهلاكهم سيكون على أيديهم .

والعجيب أن فرعون هو الذى يربى من سيكون سبباً فى هلاكه وزوال ملكه ويتربى فى داخل قصر فرعون وعلى يديه ، ويأتى به الله من بيت أهله الفقراء إلى قصر فرعون حتى يتربى فى العز والنعيم ، ويصبح قرّة عين لإمرأة فرعون فحكمة الله جعلت فرعون يربى قاتله وهادم ملكه فى منزله ، فانظر إلى هذا التخفيل من فرعون وطمس بصيرته ، مع أنه يدعى الألوهية ، وذلك حتى نفهم قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنكَ اللَّهُ يَجُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّخْتَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] . ولذلك أم موسى أوحى الله إليها بقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص : ٧] . إن الوحي على إطلاقه إعلام خفى ، لكن الوحي الشرعى هو إعلام من الله لرسوله بمنهجه لخلقه ، والوحي إلى أم موسى هل كان نفثاً فى الروح والهيام يجوز ؟ هل كان بواسطة رؤيا . يجوز . أو كان بواسطة ملك كلمها وأرشدتها إلى هذا الفعل ؟ يجوز .. المهم أن الذى أوحى بذلك إلى أم موسى هو الله سبحانه وتعالى ، أوحى إليها بماذا ؟ الأمر الأول : أرضعيه .

الأمر الثانى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ .

ومن النواهي : ﴿ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ ، وهناك خبران وبشارتان :
﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

آية واحدة جمعت بين أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين ، وفي إجاز معجز .
هل هذا الأمر يتقبله العقل ؟ لا . لأنه لا توجد أم يمر على ذهنها أو تفكيرها
مثل هذا الخاطر أن تلقى بابنها في البحر خوفا من خطر يهدده . لا توجد أم
تتقبل فكرة نجاة الابن من موت محتمل إلى موت محقق ، بل ومؤكد ، لكن
أم موسى أخذت الوحي بكامله ، أرضعت الابن ثم ألقته في البحر وصدقت
وعد الله بأنها سوف تسترد الابن ويكون موسى نبيا لأن الوحي هو الخاطر
المقدوف في قلب الإنسان ولا يجد له الإنسان معارضا من ملكات النفس ،
لكن لو وجد الإنسان ما يعارضه من ملكات النفس فإن هذا الوحي غير وارد
من الله وإنما من الشيطان .

ومعنى ﴿ أَنْ أَرْضِعِي ﴾ أى : من مدة أمانك عليه أما إذا خفت عليه من أى
شئ فألقيه فى اليم .

أم تلقى ابنها فى اليم الذى يأتى على بالها فى هذه اللحظة أنه سيضيع
أو يغرق ، أو يتعرض للخطر ؛ فلذلك طمأنها ربها وقال لها : ﴿ وَلَا تَخَافِ
وَلَا تَحْزَنْ ﴾ ، أى : لا تخافى عليه لأنه سيذهب إلى تربية خير من تربيتك
أنت فى هذا البيت الفقير لأنه سيتربى عند الملوك ، ولا تحزنى للفراق ، فأنت
مطمئنة إلى أنه سيعيش أحسن عيشة وسيتربى أحسن تربية ، ولكن لأنه بعيدا
عنك فلا تحزنى على فراقه لأن هذا الفراق سيعوضك خيرا ويعوض الدنيا
كلها خيرا لأنه سيقضى على طاغية ويحيى منهجاً لخلق الله فى الأرض .

نبي الله موسى عليه السلام

ظلت أم موسى ترضعه عدة أشهر فى أمان بعيدًا عن العيون وكان قد رأى واحد من رعية فرعون قابلة - داية - خارجة من بيت أم موسى فوق فى ذهنه أن أحدًا بالبيت فى حالة ولادة فأبلغ رجال فرعون وجاءوا ليفتشوا البيت . فلما أحست أمه بالخطر خافت عليه فلفته فى قطعة قماش ، ولم تجد ما تخبئه فيه إلا الفرن وكان مسجورًا - مشتعلًا - بالنار ومن لوعتها وخوفها عليه لم تنتبه إلى أن الفرن فيه نار إلا بعد انصراف الجند ولم يجدوا شيئًا فتذكرت أنها وضعت فى الفرن فارتجفت عليه وذهبت لترى ما حدث له فوجدت النار بردًا وسلامًا عليه ولم يحدث له مكروه . فاطمأنت إلى أن الله حافظ هذا الوليد ولن يحدث له سوء وأن وعد الله حق .

وقصة الوحي إلى أم موسى قد وردت فى القرآن مرتين .. فظن البعض أن القرآن يكرر الآيات بدون داع لذلك ، وقصدوا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يُوْحَىٰ ۖ ۝١٨٠ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... ۝١٨١ ﴾ [طه] .

والوحي هنا جاء فى وقت الخوف ، وكلمة : ﴿ أَقْدِفِيهِ ﴾ دليل على الاستعجال واللهفة لأنه ليس هناك وقت للعواطف .. ثم أمر الله سبحانه البحر أن يلقي التابوت إلى الساحل أمام قصر فرعون ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ ، فكان الوحي فى الآية الأولى تمهيد لما يحدث لتستعد نفسيا للعمل ، لكن الآية الثانية جاء وقت الحادث كأنه يقول لها أسرعى وضعى الولد فى التابوت واقذفيه فى اليم .

بعد ذلك قال سبحانه : ﴿ يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوِّي لَمْ ﴾ [طه : ٣٩] عدو لي ؛ لأنه ادعى الألوهية ، وعدو له ؛ لأنه سيقف أمام دعوته ويناصبه العداة وكون فرعون يأخذ موسى ويربته في قصره ، فهذا دليل على أن الله تعالى إذا أراد شيئاً ، جعل أعداءه والكافرين به يقومون بهذا الشيء ، ويساعدون فيه دون أن يدروا ، وهم على تغفيلهم وجهلهم ، وإلا فهل يتصور أحد أن فرعون الذي كان يقتل الأطفال ؛ لأنهم قالوا له : إنه سيولد غلام يكون هلاكك على يديه ، بعد ذلك يجد طفلاً يقذف به البحر إلى قصره ، فيأخذه دون أن يفكر من الذي وضع الطفل في البحر ، ولماذا لم يفكر أن هذا الطفل هو الذي سيقتله ؟ ولكن هذا مراد الله وليس مراد البشر وتجد زوجة فرعون تقول له كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَكَأَنَّ لَا نَفْسُ تُغْنِي عَنِّي أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذْهُمُ وُلَدًا ﴾ [القصص : ٩] ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩] فلما رآه فرعون ورأته امرأته ، وقع في قلبيهما حبه ، فهناك محبة بأسباب الله ، ومحبة بدون اسباب ، ولكن الله أرادها .

واقراً إن شئت قول الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] فقلب الإنسان يريد أن يفعل شيئاً ولكن الله لم يرد ذلك ، فيحول بين مراد القلب وينقله إلى شيء آخر ، وهذا ما حدث مع فرعون ، فهو وامرأته أخذوا موسى ؛ ليكون لهما قرة عين وأحباة واهتما بتربيته ، فهذه محبة وليست عداوة ، ولكن في النهاية آل الأمر إلى أن يصبح هو العدو . فرعون مع أنه ادعى الألوهية ، إلا أنه لم يعرف أنه يربى عدوه الذي سيقضى عليه ؛ لأنه كان مغفلاً . بعض الذين لا يفهمون القرآن يقولون : القرآن يقول : ﴿ يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوِّي لَمْ ﴾ ثم يكررها فيقول : نبي الله موسى عليه السلام

﴿ فَأَلْقَطَهُمْ آءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٩] مع أنهم التقطوه ليكون لهم ابنا وليس عدوا ، وهؤلاء يجهلون أن الآيتين ليستا مكررتين ؛ لأن إحداهما تصف جانباً من عداوة فرعون لموسى ولربه؛ فالعداوة هنا من فرعون ﴿ يَاخُذْهُ عَدُوًّا لِي وَعَدُوًّا لِمَنْ ﴾ لكن فى الآية الأخرى ﴿ فَأَلْقَطَهُمْ آءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فهنا العداوة من موسى . فمرة تكون العداوة من فرعون ومرة تكون من موسى؛ لأن العداوة حين تكون متبادلة من الطرفين ، تكون عداوة شرسة وتستمر ، ويحاول كل طرف التغلب على الطرف الآخر ، ولكن إذا كانت العداوة من طرف واحد سريعاً ما تهدأ وتنتهى؛ لأن الطرف المعادى يستفز الطرف المسالم فيتحمله ويصبر عليه ، فلا بد أن يخجل بعد ذلك ويسكت ، لكن العداوة تكون شرسة حينما تكون موجودة عند الطرفين ، عداوة من فرعون لله ولموسى ، وعداوة من موسى لفرعون ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ أى ليست موجبات ذاتك يا موسى ولكنها تفضل منى عليك .

ومعنى ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ^(١) أن الذى يريه فرعون ، ولكنه يريه على عين الله ، فإن تعرض لشيء فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه ، ولذلك

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ وقرأ أبو جعفر : ﴿ وَلِئَصْنَعَ ﴾ بسكون اللام والعين والإدغام . قال أبو عبيدة : على ما أريد وأحب . قال ابن الأنبارى : هو من قول العرب : غذى فلان على عيني ، أى : على المحبة منى .

وقال غيره : لتربى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا رباها؛ وصنع فرسه : إذا داوم على علفه ومراعاته ، والمعنى : ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ . زاد المسير [١٩٨/٥] .

﴿ نبي الله موسى عليه السلام ﴾ ٢١٧

مرة كان فرعون يداعب موسى وهو صغير فجذبه موسى من لحيته ، فغضب فرعون وكاد أن يقتله وتوجس فيه شرا ، فأخذته منه امرأته وضمته إلى صدرها وقالت له : إنه طفل صغير لا يعقل ولا يعرف التمرة من الجمرة ، فلم يقتنع فرعون وجاء لموسى بجمرة وتمرّة فجعل الله يد موسى تمتد إلى الجمرة ؛ حتى يصرف فرعون عن مراده ، فأخذ موسى الجمرة ووضعها على لسانه فأصابته بلثغة (١) فيه تسببت في عقدة لسانه (٢) ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ﴾ أي أن فرعون وحاشيته سيربون موسى ولكن لو حدث منهم أي اعوجاج أو تصرف مخالف في هذه التربية ، فإن الله سيحفظه ويرعاه .

(١) اللثغة : أن تعدل الحرف إلى حرف غيره . والألثغ : الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل : هو الذي يجعل الراء غيناً أو لاماً ، أو يجعل الراء في طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل : هو الذي يتحول لسانه عن السين إلى الثاء ، وقيل : هو الذي لا يتم رفع لسانه في الكلام وفيه ثقل ، وقيل : هو الذي لا يبين الكلام .
لسان العرب [٤٤٨/٨] .

(٢) لما جاء موسى إلى قصر فرعون قالت امرأة فرعون : خذه ﴿ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَكَأَنَّ ﴾ قال فرعون : هو قرة عين لك ولا لي . قال عبد الله بن عباس : لو أنه قال وهو لى قرة عين إذا لآمن به ، ولكنه أبقى ، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيتته فنتفها ، فقال فرعون على بالدباحين هذا هو ، قالت آسية : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَسْتَحْدِمَهُ وَكَذَا ﴾ إنما هو صبي لا يعقل ، وإنما صنع هذا من صباه ، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني ، أنا أضع له حلياً من الياقوت وأضع له جمرًا ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ، وإن أخذ الجمر فإنا هو صبي ، فأخرجت له ياققتها فوضعت له طستا من جمر ، فجاء جبرائيل فطرح في يده جمرة ، فطرحها موسى في فيه ، فأحرق لسانه ، فهو الذي يقول الله عز وجل : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿ [طه] .
تاريخ الطبري [٢٧٤/١] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢١٨

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذ تَمْشَىٰ أُخْتُكَ فَسَقَتْ أَهْلَكَ فَسَقَتْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ
فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ
وَفَتْنَاكَ فُنُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ﴾ [طه : ٤٠]
أم موسى حينما ألقته في اليم ، قالت لأخته : قصيه - أى تتبعى أثره -
فلما حملة البحر إلى قصر فرعون المطل على النيل ، والتقطه آل فرعون ،
حرم ربنا سبحانه وتعالى عليه المراضع .

قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴾ [القصص : ١٢] فكلما أتوا له
بمرضعة رفض أن يرضع .

فقالت أخته لهم : أنا أدلكم على مرضعة ترضعه لكم . فوافقوا وجاءت أمه
لترضعه وبذلك أعاده الله إلى أمه .

فقول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِطًا ۗ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي
بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠] أى بلغ
من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول : هذا ابنى . لولا أن ربط الله على قلبها ،
فالله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين ؛ لأن الإيمان يمنعك من الضار
ويجلب لك النافع ؛ وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لك ، فهذا ابنك حقا ،
وأنت ملهوفة عليه ، لكنك لو أظهرت ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلونه
في الحال ، فالله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حيا ، ولكن أم موسى مع
تثبيت الله لها ، وصبرها على فراق ابنها ، لم تطق أن تترك وليدها فى الماء
تتقاذفه الأمواج ، فأمرت أختها أن تراقبه من بعيد حتى تأتيها بالخبر .

٢١٩

 نبي الله موسى عليه السلام

يقول تعالى : ﴿ فَأَلْقَطَهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
 وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [القصص : ٨] « اللقط » أو « اللقطة » ^(١) :
 هي أن تجد شيئاً بدون طلب له ، أن تكون سائراً في الطريق مثلاً وتجد شيئاً
 دون أن تبحث عنه ، فاللقطة أن تجد شيئاً لم تطلبه ، و « اللقيط » هو الرضيع
 الذى تجده ملقى فى أى مكان فى الشارع ... إلخ . فآل فرعون التقطوا موسى ،
 أو وجدوه أمام قصرهم على الشاطئ فأخذه .. لم ؟ قالت زوجة فرعون :
 ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلِكَ ﴾ [القصص : ٩] وجاءت بحيثية أخرى وهى أنهما ليس
 عندهما أولاد ذكور ، فيكون لهما ولداً مع ابنتهما الوحيدة .

إذن .. علة الالتقاط عندهم يكون قرّة عين لامرأة فرعون ، ويصبح ولداً
 يسند البنت . هذا علة الالتقاط عندهم ، فهل علة الالتقاط ظلت وبقيت كما
 أرادوها هم ؟ لا ؛ لأن الله أراد شيئاً آخر ، فهم فى الحقيقة التقطوه ،
 لا ليكون لهم قرّة عين أو يكون لهم ولداً ، ولكن التقطوه ليكون لهم عدوا ،
 فهم أرادوا شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ، فقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَطَهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ
 لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فالحزن - بفتح الحاء والزاي - معناه ، مثل العدم
 والعدم ، وسقم وسقم ، وبخل وبخل ... إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [القصص : ٨]
 فقد أخطأوا فى أخذ موسى وتريته ليكون لهم قرّة عين ، مع أنه سيكون

(١) اللقط : أخذ الشيء من الأرض . واللقطة : اسم الشيء الذى تجده ملقى فتأخذه .

لسان العرب [٣٩٢/٧] .

واللقيط لغة : ما يلقط من الأرض . ثم استعمل للصبي المطرود .

وفى الشرع : مولود طرحه أهله خوفاً من الفقر ، أو فرار من التهمة بالزنا .

تيسير القديرى فى الفقه الحنفى [٦٣] .

٢٢١ **=====** نبي الله موسى عليه السلام

عليهم وبالا وهلاكاً فالتقاط موسى وتربيته في قصر فرعون لا يتناسب والمقدمات التي عرفوها ، حيث إنهم كانوا يعرفون أن وليداً سيخرج إلى الدنيا تكون نهاية ملك فرعون على يديه ، وهذا الرضيع الذي وجدوه ملقى في البحر في تابوت ، لم يفكروا في أن أهله فعلوا ذلك ، لينجوه من قتل فرعون ، ولم يدر بخلدهم أن يكون هذا الرضيع هو الذي سيكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يديه ، بل من فرط جهلهم أنهم أخذوه واعتنوا به ، وفي قصر فرعون ذاته . لم يسعفهم سحرهم ولا ألوهية فرعون المزعومة كيف ؟ ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

يقول تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيبٌ ﴾ ^(١) [القصص : ١٢] فالتحريم هنا ليس كتحرим بعض الأشياء التي حرّمها الله علينا ؛ لأن هذا الطفل لم يبلغ سن التكليف ، ولكن المعنى : منعناه من أن يقترب من أية امرأة تأتي لترضعه ؛ حتى يبحثوا له عن مرضع فتأتي أمه لترضعه ، وهذا كله بقدر الله . والمراضع جمع مرضع ، واللغة فيها مرضع ومرضعة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج : ٢] . والمرضع هي التي من شأنها أن ترضع ، أى أن في ثديها لبناً لكن المرضعة : هي التي يكون ثديها في فم طفل ترضعه ، فالمرضع صالحة لأن ترضع ولكنها

(١) قال ابن كثير : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ أى تحريمًا قديراً وذلك ؛ لكرامته عند الله وصيانتة له أن يرضع غير ثدى أمه ؛ ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ؛ لترضعه وهي آمنه بعد أن كانت خائفة .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٨] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٢٢

لا ترضع الآن ، فالذهول عن التي ترضع أى أن طفلها يكون ملتقماً ثديها وتذهل عنه .

فلما رأت أخت موسى أنه لا يرضع من أحد قالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ فلما قالت ذلك ، سمعها هامان فسألها إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الطفل ، قالت : لا ، ولكنهم ناصحون ، محبوبون للملك ومخلصون له (١) .

فرده الله إلى أمه ، قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٣]
فرده الله سبحانه إلى أمه كى تفرح وتقر عينها به ولا تحزن على فراقه ، ولتعلم بجزئية بشرها الله بها فتحققت ، وأن ما بشرها الله به سيتحقق كما تحقق جزء منه ، حينما امتثلت لأمر الله بوضعه فى التابوت ، وإلقائه فى اليم . ووعدها سبحانه برده إليها وجعله من المرسلين ، فوفى الله بما وعد به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] الأشد : هو القوة ، وهو أن يصل الإنسان إلى قمة نموه ونضجه الجسمى ، وهو ما بين ثمانى عشرة سنة إلى عشرين سنة ،

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس : لما قالت لهم ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم ، فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخاصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٨] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٢٣

ربنا أراد أن يكرم واسطتك ، فجعله يذهب ليتوسط في الساعة نفسها التي
قضى الله فيها ، فيكون قضى الله المصلحة معه لا به .

لما ضرب موسى الرجل فمات ، حزن وقال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ عرف أن هذا العمل من فعل الشيطان ؛ لأنه عدو مضل
واضح الضلال ، فاستغفر ربه وأتاب إليه .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ
الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصر: ١٦] ساعة يخطئ الإنسان ويفعل ذنبا ويعرف أنه
أذنب لا يكابر فيه ، بل يبادر على الفور ويقول : أنا ظلمت نفسي وحاكمك
الحق يارب فاغفر لي .

لما غفر الله تعالى لموسى وقبل توبته^(١) ، عاهد موسى ربه ألا يكون ظهيرا
للمجرمين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا
لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى يارب ، بما أنعمت على بالمغفرة وعذرتنى وتبت على ،
أعاهدك يا ربى أننى لن أكون معينا للمجرمين .

وأصبح بعد هذا الحادث خائفا يترقب قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ
خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصِرُّ بِالْأَمْسِ يَسْتَصِرُّهُ قَالَ لَمْ يُؤَمِّرْكُم بِهَذَا لَأَكُونَ
مُؤْمِنًا ﴾ ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ : أى يرقب انفعالات الناس المقبلين عليه ؛ لأنه يخشى
أن يؤذوه انتقاما للقبطى الذى مات فى المشاجرة .

(١) أخرجه مسلم [٢٧٥٩] . عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب
مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

لما أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب انفعالات الناس المقبلين عليه؛ خشية أن ينتقموا منه ، وجد الرجل الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يستصرخه .
 كلمة استصرخ من الصراخ ، ونحن نعرف أن الصراخ استنجاد؛ ليخلصك من مأزق ، فمثلاً لو أن إنسانا كان فى بيته ، وفاجأه لص أو شب حريق فى بيته ، تجده يصرخ طالبا النجدة ، فالصراخ استنجاد لمن ينقذه؛ ولذلك نجد فى قول الحق سبحانه وتعالى عن إبليس وأتباعه : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنشد بِمُصْرِخِيكَ ﴾ .

لما وجد موسى الرجل الذى طلب نصرته بالأمس يستصرخه قال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨] أنت تريد أن تغوينى لأكرر خطأ الأمس ، ومع ذلك حن لنصرته ولم يترك خصمه يفتك به ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩] .

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسعى إلى موسى ليحذره ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ أَلَمَلَأٌ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠] ، فكأن الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون وقومه ، ولم يجد موسى بدا من الخروج ، ولكن كان ذلك لحكمة أَرادها الله سبحانه وتعالى .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢١] أى خرج من المدينة متخفيا ؛ خشية أن يراه أحد ؛

نبي الله موسى عليه السلام ٢٢٦

لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئا ، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحداً ؟ أراد موسى أن يهرب من مصر كلها ، ويتوجه إلى بلاد مدين ، قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ فَتَلَوَّىٰ بِاللَّغْوِ قَوْلًا كَثِيرًا وَذَكَرَ إِلَهُهُنَّ الَّذِينَ لَبَّسُوا لِقَاءَ رَبِّكَ أَنَّكَ إِلَىٰ بِطْنٍ يُحْدَوْنَ عَنِ الْبَحْرِ مَرْجُؤًا مُّجُتَافًا فَادْنُ بِنُحْيٰكُم مِّنَ الْبَحْرِ مَرْجُؤًا مَّخْفًّى فَدَّخَلْنَا بُرُوجَنَا فَأَنزَلْنَا فِيهَا صُفْرًا كَالْبَحْرِ آسِفًا تَجَرَّيْتَ فَصَفْرًا وَأَنزَلْنَا فِيهَا رَبِّكُمَا نِسَاءً لَّيْلَىٰ وَرَبِّيَّةً أُمَّاتَئِمْ مِّن قَبْلِ هَٰؤُلَاءِ نِسَاءَ مُوسَىٰ لَمَّا ظَلَمَ فَكَلَّمْنَا سَوَءًا وَذَكَرْنَا لَكَ بِآيَاتِنَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [القصص : ٢١] .

كلمة ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ فَتَلَوَّىٰ بِاللَّغْوِ قَوْلًا كَثِيرًا ﴾ أى : جهة ، ولكنه أراد الهرب ، خشية أن يفتك به فرعون وملؤه ، فسلك هذا الطريق فقادته إلى بلاد مدين ؛ لأن الله أراد له ذلك ؛ لأنه لو كان يقصد بلاد مدين بالذات لما قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ فكأنه رأى أمامه طريقا فسار فيه ؛ لأنه لم يكن عنده وقت التفكير إلى أى بلد يذهب ، وأى طريق يسلك .

والقضية التى تشغل العالم الآن هى قضية الجنسين : الرجل والمرأة ، وهذه القضية هى رأس الحربة التى توجه دائما للإسلام ، لماذا؟ لأنهم يريدون أن تظهر المرأة مفاتها وتختلط بالرجال ، فى سن المراهقة أقوى أوقات ثورتها ، فيشغلون الناس بها ، القرآن أتى ليوضح هذا فى قصة موسى ، وهو مهاجر من مصر هربا من القتل ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ فَتَلَوَّىٰ بِاللَّغْوِ قَوْلًا كَثِيرًا وَذَكَرَ إِلَهُهُنَّ الَّذِينَ لَبَّسُوا لِقَاءَ رَبِّكَ أَنَّكَ إِلَىٰ بِطْنٍ يُحْدَوْنَ عَنِ الْبَحْرِ مَرْجُؤًا مُّجُتَافًا فَادْنُ بِنُحْيٰكُم مِّنَ الْبَحْرِ مَرْجُؤًا مَّخْفًّى فَدَّخَلْنَا بُرُوجَنَا فَأَنزَلْنَا فِيهَا صُفْرًا كَالْبَحْرِ آسِفًا تَجَرَّيْتَ فَصَفْرًا وَأَنزَلْنَا فِيهَا رَبِّكُمَا نِسَاءً لَّيْلَىٰ وَرَبِّيَّةً أُمَّاتَئِمْ مِّن قَبْلِ هَٰؤُلَاءِ نِسَاءَ مُوسَىٰ لَمَّا ظَلَمَ فَكَلَّمْنَا سَوَءًا وَذَكَرْنَا لَكَ بِآيَاتِنَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [القصص : ٢٣] فموسى عليه السلام عندما وصل البئر التى يشرب منها أهل مدين ويسقون أنعامهم ، وجد عندها عددا من الرجال يسقون أنعامهم ، ووجد بعيدا عنهم امرأتين تذودان .

فمعنى قوله : ﴿ أُمَّرَاتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى تمنعان الماشية أن تقترب من الماء ، وهى عملية لفتة للنظر؛ لقد جاءت لتسقى ، فلماذا تمنعان الماشية عن الماء ؟ كان طبيعيا أن يسألها موسى ما خطبكما ؟ أى ما حكايكما ؟ ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ٢٢٧

قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١﴾ جملتان فقط
قالتاهما الفتاتان ، لا نسقى حتى ينصرف الرعاة ، وأبونا شيخ كبير ؛ ولذلك
فالفتاة فى الإسلام لا تخرج من بيتها إلا لعة ، والفتاتان خرجتا لأن أباهما
شيخ كبير وبقيتنا بعيدا عن الرجال ؛ إذن .. فالضرورة هنا على قدرها . وليس
الخروج للعبث ، أو لمقابلة الرجال ، أو غير ذلك .

هنا يأتى دور المجتمع الإيماني فى قوله تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى
الْظُلَى فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ساعة
وجد فتاتين اضطررتا للخروج للضرورة قضى لهما حاجتهما على الفور لتعود
إلى بيتهما ، ولقد كنت فى مكة وكان معى صديق عزيز ، ونحن فى الطريق
أوقف صاحبى السيارة التى كنا نستقلها إلى الكلية ، ونزل منها ، وذهب إلى
بيت وأخذ لوح عجين مغطى بقماش ووضع فى السيارة فسألته ماذا يفعل؟
قال : لوح العجين الذى وضع أمام الباب ، والباب مغلق معناه أن صاحب
البيت غير موجود ، ولا يوجد فى البيت إلا النساء ، ولذلك فمن الواجب
الإيماني أن تأخذ لوح العجين إلى الحياز ثم تعيده إلى مكانه بعد أن يتم خبزه ،
هذا هو المعنى الإيماني فى قوله تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ .
يأتى بعد ذلك أن الفتاة التى تخرج للضرورة يجب ألا تستمرى هذا الأمر ،
فإذا وجدت طريقا يحميها من الخروج فلا بد أن تلجأ إليه .

(١) قال الشوكاني أى : قال موسى للمراتين : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع
الناس؟ والخطب هو الشأن . قيل : وإنما يقال : ما خطبك لمصاب أو مضطهد أو
لمن يأتى بمنكر؟ ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أى : إن عادتنا التانى حتى
يصدر الناس عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم ، أو عجزا عن السقى
معهم .
نضح القدير [١٦١/٤] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٢٨

ابتنا شعيب حينما عادتا لم تخفيا الأمر عن الأب حتى يفتح أمامهما باب الخروج ، بل سارعتا تحكيان القصة للأب ، ولم يأخذ الأب القصة هكذا ، بل رأى أنه لا بد أن يتأكد ويعرف بنفسه هذا الشاب الذي ساعد ابنتيه . وما هي نواياه ؟ ولذلك طلب من إحدى ابنتيه الخروج لتطلب من موسى أن يحضر إلى البيت ليقابل الأب ، ولأن موسى لا يريد منها سوءاً ، مشى أمامها حتى وصل إلى بيت شعيب ، وكان أول شيء يريد شعيب أن يعرفه قصة هذا القادم ، ليختبره ويعرف نواياه ؟

قص عليه موسى القصة ، وشعيب اطمأن له ، والفتاتان وجدتا في موسى مخرجاً ؛ لكي لا تخرجا لسقى الماشية ، ولو كانتا تريدان الخروج ٢٢٩ لما اقترحتا هذا ؛ ولذلك قالت إحدى الفتاتين كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَتْ إِحَدُهُمَا يَتَأْتٍ آسْتَجِرُهُ بِكِ خَيْرٌ مِّنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾^(١) [القصة : ٢٦] .

إذن .. فالمرأة حين ترى طريقة تنهى بها خروجها من البيت واختلاطها بالرجال ، تسارع وتقترحها .

الأب النبي الحكيم رأى أن اشتغال موسى عنده ودخوله البيت وخروجه لا يصح ، وخير طريقة أن يزوجه إحدى ابنتيه ، فتصبح الأولى زوجته والثانية محرمة عليه ، لذلك قال له : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [القصة : ٢٧] . ولكن موسى رجل فقير لا يملك شيئاً فكيف سيدفع المهر؟ المهر يؤدي على أي وضع ؛ ولذلك قال شعيب : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجِرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ [القصة : ٢٧] . وهذا يعني أن المفاصلة في المهر مباحة ، وأن المهر يمكن أن يؤدي عملاً بدلاً من المال .

٢٢٩

 نبي الله موسى عليه السلام

خصوم الإسلام يريدون أن يجعلوا المرأة نصف المجتمع ، ولا بد أن تخرج وتشارك الرجل ، مع أن هناك مؤتمرا عقدته نساء أمريكا أوصى بأن تعود المرأة إلى بيتها . فنساء أمريكا يطالبن بعودة المرأة إلى بيتها ، ونساؤنا - هنا - يقلن : لا بد أن تخرج المرأة لتبنى المجتمع . ومع أن المرأة تبنى المجتمع وهي في بيتها مع زوجها وأطفالها أفضل مما تبنيه وهي في أرقى المناصب ؛ فطفولة الإنسان هي أطول طفولة بين المخلوقات - حوالى خمس عشرة سنة - وهذه الطفولة طوال هذه السنوات تؤثر فيها الأم فى كل شئ ، فى الدين ، فى القيم ، فى الأخلاق ، فى الأمانة ، وفى كل خلق كريم .

ولذلك عندما تقول المرأة : أريد أن أخرج للعمل ، نقول لها : أنت أم فاشلة ؛ فالأمهات اللاتي خرجن للعمل ووصلن إلى أعلى المناصب لم يخرجن لنا عظيما واحدا ، وكل عظماء الدنيا من الأمهات اللاتي جلسن فى البيوت لتربية أولادهن .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ۚ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصر : ٢٩] الأجل هو الثمان سنوات أو العشر . والحق سبحانه أطلق على الزوجة : أهل الرجل ، ونحن نقول إن أهلى معى ، أو أن الجماعة معى ؛ وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها وتزيد شيئا لا يصح أن يقضيه غيرها ، فقامت مقام الأهل أو الجماعة .

ومعنى : ﴿ آنَسَ ﴾ أبصر ورأى ، أو أحس بشئ يؤنس ، من الأنس . ﴿ الطُّورِ ﴾ هو جبل الطور بجنوب سيناء ، ومعنى : ﴿ امْكُثُوا ﴾ أى انتظروا فى هذا المكان .

نبى الله موسى عليه السلام

وقوله : ﴿ إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا ﴾ معناه أنه يخبرها ، وأنها لم ترها ، ولو كانت نارا مادية من صنع البشر لاستوى الأهل معه فى الرؤية ، فكأن هذه حالة خاصة به .

وكلمة ﴿ لَعَلَّيَّ ﴾ تفيد الرجاء ؛ لأنهما كانا تائهيين لا يعرفان أين يذهبان ؟ ولا أين الطريق ؟ فهذا هو الخير الذى يسألان عنه ، وكان الجو باردا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفنان بها ، فمأرب موسى وأهله فى تلك اللحظة شئ يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما ، وشئ يدفئهما من البرد ، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معا برؤية هذه النار .

فى هذه الآية موسى آنس النار بذاته ، ولكن فى الآيات الأخرى يخبر أهله بأنه آنس هذه النار ، فهذا ليس تكرارا للقصة ؛ لأن موسى عليه السلام آنس بذاته نارا بجانب الطور ، وبعد ذلك قال لأهله : ﴿ إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا ﴾ ، ومرة يقول لهم : ﴿ أَمْكُثُوا إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا ﴾ ، وهذه عملية منطقية لابد أن تحدث ، فهو وزوجته يسيران فى ظلام الصحراء ، والجو بارد ، والطريق غير واضح المعالم ، فهو يريد أن يهتدى إلى الطريق ، ويحتاج إلى نار؛ ليستدفئ بها . فلما رأى النار ، وأخبر زوجته أنه سيذهب يستطلع الخبر ، لابد أنها ستطلب أن تذهب معه ؛ خشية أن تظل وحدها فى هذا الجو الخفيف ، ولكنه سيمنعها من الذهاب معه ويأمرها أن تنتظر حتى يذهب هو ، ويستطلع الأمر أولا ؛ ولذلك جاءت الآية الأخرى بلفظ : ﴿ أَمْكُثُوا ﴾ ؛ أى : انتظروا .
فى البداية آنس هو النار ، فأخبر أهله بذلك ، وبعد ذلك أمرهم أن يمكثوا ولا يأتوا معه إلى النار ، فالآية قد وردت ثلاث مرات :
الأولى : آنس ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ .

الثانية : قال : ﴿ أَمْكُتُوا إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا ﴾ .
الثالثة : ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا ﴾ .
وقيل أن يذهب إلى النار ليرى ما عندها قال لأهله :
﴿ سَتَاتِكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ ﴾ [النمل : ٧] .
ومرة يقول : ﴿ لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ ﴾ .
في الآية الأولى قال : ﴿ سَتَاتِكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ ﴾ .
وفي الآية الثانية قال : ﴿ لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ ﴾ وهذا رجاء ، فما
معنى ذلك ؟

قالوا : لأن الإنسان يحتاج إلى شيء ، حين يذهب إليه يكون عنده أمل كبير
أن يتحقق ما يريد منه ، فيقول : إنه سيحدث أو سيتحقق ، وبعد ذلك يتيقن
 ويعود إلى نفسه ، فيشك أن يحدث ؛ لذلك قال موسى مرة : ﴿ سَتَاتِكُمْ ﴾ ،
ومرة قال : ﴿ لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ ﴾ ؛ وذلك حتى يكون صادقا مع خواطر نفسه أمام
شيء غائب عنه .

كذلك تجده في تكملة الآية يقول : ﴿ لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ أَوْ جَذْوَةً
مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] .
وفي آية أخرى قال : ﴿ سَتَاتِكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ أَوْ مَأْتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴾ .

الشهاب هو النار التي لها لهب . أما الجذوة فهي التي تبقى من النار بعد
انتهاء اللهب ، مثل الجمر أو الفحم . وموسى عليه السلام وضع الاحتمالين ؛
لأنه لا يدري هل سيصل إلى النار وهي مشتعلة فيأخذ منها شهابا مشتعلا ،
أم أنه سيصل إليها بعد أن يكون قد خمد لهيبتها ولم يبق فيها إلا جذوات

نبي الله موسى عليه السلام

 ٢٣٢

أو جمرات ، يحمل منها شيئاً إلى أهله ليستدفنوا بها ، والعلة في الحالتين أن يدفئ أهله .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ والإصطلاء هو التدفئة ، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات .

إذن .. كل تكرار له معنى ، وله سبب ، فكل قصة لها لقطات متعددة تكمل معناها أو أحداثها .

قول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ إذا كان النبي موسى وزوجته في الرحلة ، فكيف يسميها القرآن أهله ؟ بعض العلماء قالوا : ربما كان معها الخدم ، أو الرعاة وهذا كلام طيب ، ولكن كلمة أهل هنا لها معنى ، فالإنسان منا يحتاج إلى أشياء كثيرة في حياته ، قد تتكامل هذه الأشياء بتعدد الناس ، فهذا يطبخ الطعام ، وهذا ينظف البيت ، وهذا يصنع له القهوة والشاي ، وهذا يكوي الملابس ، وهذا يقود السيارة ، وهذا يشتري الخضار ولوازم البيت من السوق .. إلخ ، فهو يحتاج في خدماته إلى مجموعة من الناس ، لكن هناك شيئاً واحداً لا يستطيع أحد أن يعطيه له إلا زوجته فهو لا يتمتع إلا بها ، ولا ينجب ذرية إلا منها ، وقد تقوم هي بكل هذه الأعمال وتغنيه عن هؤلاء الناس جميعاً ، فكأن الزوجة تغني عن الأهل كلهم .

فكلمة « الأهل »^(١) هنا تعنى الزوجة . وفي اللغة العامية لغالب المصريين تجد الناس يقولون : « فلان حضر هو وجماعته » هنا كلمة جماعته مقصود بها

(١) ابن سيدة : أهل الرجل عشيرته وذوو قريبه . وأهل المذهب : من يدين به ، وأهل الإسلام : من يدين به . وأهل الأمر : ولاته . وأهل البيت : سكانه . وأهل الرجل : أخص الناس به وأهل بيت النبي ﷺ : أزواجه وبناته وصهره ، يعني علياً ، وقيل : نساء النبي ﷺ .

لسان العرب [٢٩/١١] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٣٣

زوجته ، وفى هذا احترام للزوجة ، فهو لم يذكر اسمها ، وذكر لها صفة طيبة ، وهى أنها تقوم بمهام كثيرة لا تقوم بها إلا جماعة من الناس .

ومعنى : « أنس »^(١) : أى شعر وأحس بشئ يؤنسه ، وهى ضد التوجس ؛ لأن التوجس معناه الإحساس والشعور بشئ مخيف ، قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٧﴾ [طه] فى هذه الآية كلمة « أنس » أفادت أنه أبصر ورأى .

ومعنى : ﴿ سَأْتِيكُمْ مِنْهَا يُخْبِرٌ ﴾ أى : خبر يخرجنا من حالة الضياع وعدم معرفتنا الطريق .

ومعنى : ﴿ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ الشهاب : هو النار المشتعلة .

ومعنى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نودى من النداء ، والنداء : طلب إقبال أحد ، فتقول : يا فلان فيأتيك ، وبعد ذلك تأمره بما تريد .

وهنا النداء لم يذكر فيه اسم نبي الله موسى ، مثلما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ... نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾ إِيحَ أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه] ولكن فى هذه الآية لم يقل : يا موسى ، بورك من فى النار ، فليس هذا نداء . فالنداء يطلق ، ويراد به مجرد الخطاب ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه ناداه ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة الأعراف : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾

(١) ﴿ إِيحَ ءَأَنْسَتْ نَارًا ﴾ قال الفراء : إنى وجدت . يقال : هل أنست أحدا ؟ أى : وجدت . وقال ابن قتيبة : أنست بمعنى أبصرت . زاد المسير [١٩٠/٥] .

نبي الله موسى عليه السلام 234

قَالُوا نَعَمْ ﴿ [الأعراف : ٤٤] . فهم لم يقولوا لهم : يا أصحاب النار ، وإنما أخبروهم بما أعطاه الله لهم من نعيم في الجنة ؛ فكلمة نادى تعنى : أن تناديه ، فتقول : « يا كذا ... » أو تخبره بما تريد أن تقول له مباشرة .

الآية تقول : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ساعة تسمع كلمة : نودى ، أو قال ، أو وسوس ، وترى بعدها الحرف « أن » ، فاعلم أنه تفسير للنداء ، ولكن كيف يبارك الله في النار وهى التى تحرق ما يلقى فيها ؟ قالوا : هناك خلق لا تؤثر فيهم النار مثل الملائكة ؛ ولذلك قال المفسرون : إن نبي الله موسى رأى هذه النار فى فرع شجرة ، وكلما زادت النار اشتعالا ، زادت الشجرة خضرة ونماء ، فلا النار تحرق الخضرة ، ولا رطوبة الخضرة تطفىء النار ، فمن الذى يقدر على هذا إلا الله سبحانه وتعالى ؟!

إياك أن تقول كيف يحدث هذا ؟ بل نزه الله عن تصرفاتك وقدرتك أنت ؛ لأنه سبحانه القادر على كل شئ : يقول للشئ : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) [النمل : ٨] أى : إن كنت ترى نارا فى خضرة الشجرة ، فلا النار تحرق اخضرار الشجرة ، ولا الشجرة بما فيها من مائية تطفىء النار ، إن كنت ترى عجيبا فهو عجيب عندنا ، ولكنه ليس بعجيب عند من له القدرة التى تعخرق النواميس .

(١) قال ابن كثير : ﴿ إِذَا أَمَرُهُ إِذَا أَرَادَ سَيِّئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] أى : إنما يأمر بالشئ أمرا واحدا لا يحتاج إلى تكرار وتأکید ، إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له : ﴿ كُنْ ﴾ قوله : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ . تفسير ابن كثير [٥٦٠/٣] .
(٢) قال الطبرى فى قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : تنزيها لله رب العالمين مما يصفه به الظالمون . تفسير الطبرى [٤٩٧/٩] .

٢٣٥

 نبي الله موسى عليه السلام

إذن .. فقلوه تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^١ هو خبر وهناك آية أخرى في القرآن الكريم ، تدل على أن النداء لا يكون معناه طلب الإقبال ، بل هو مجرد الخبر ، وذلك في قصة نبي الله عيسى لما كلم أمه مريم عليهما السلام ، كما ورد في قول الله تعالى : ﴿ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا آلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾^(١) [مريم: ٢٤] فهو لم يقل لها: يا مريم ، أو يا أمي ، ولكن خاطبها ألا تخافي وألا تحزني ، فالخطاب نفسه هو النداء . ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ [طه] . قال المفسرون إنه لما أتاهما وجد نورا يتلأأ في شجرة وهذا النور الذي يتلأأ في الشجرة لا خضرة الشجرة تؤثر عليه فتبهته ، ولا النور يطغى على خضرة الشجرة فيضعفها . . مسألة عجيبة لأن الضوء الشديد حين يسقط على الخضرة يبهت لونها والخضرة الشديدة تبهت الضوء ، ولكن هذا لم يحدث مع النور الذي رآه موسى عليه السلام على الشجرة .

بعد ذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ فحينما سمع موسى ذلك لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة الذي لم يطغ أحدهما على الآخر ، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه ، لأن هذا الشيء من عند الله تعالى ، ولا يقاس بأحداث البشر ، فاطمأن على أنه في حضرة ربه الأعلى سبحانه وتعالى . وساعة يتكلم الحق عن ذاته سبحانه يأتي بالضمير المفرد : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ لكن ساعة يتحدث عن فعله سبحانه يأتي

(١) قال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى : جبريل لما سمع قولها . وكان أسفل منها تحت الأكمة . وقيل تحت النخلة . وقيل المنادى هو عيسى .

فتح القدير [٣/٣٣٢] .

نبي الله موسى عليه السلام

بضمير الجمع مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] . فقال : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ لم يقل إني الرب المطلق ولكن قال له أنا ربك أنت ، وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة تختلف عن باقى الخلق جميعاً ؛ ولذلك قال له فى آية أخرى : ﴿ وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩] وقال أيضاً : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه : ٤١] فهو سبحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهمتك عنده .

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى فى هذا الموقف أن يخلع نعليه ، وعله ذلك أنه بالوادي المقدس الذى اسمه : « طوى » .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِيِّ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ [القصص : ٣٠] وهذا ليس تكرر فى القرآن ، ولكن كل آية تعطى لقطعة ، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة فالوادي المقدس اسمه : « طوى » ، وفى الآية الثانية حدد المكان أكثر وبين أنه فى : ﴿ مِنْ شَلْطِيِّ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ . فهذا تحديد للمكان ، ولكن لماذا أمره بخلع نعليه ؟ قالوا : لأنه مادام واديا مقدسا لا يصح أن تفصل جسمك بشئ يفصلك من هذا الوادي مع أنه يمكنك أن تصلى فى نعلك ما دام طاهرا ولكن هنا الوادي مقدس أى مطهر ولذلك بعض الناس كانوا يمشون حفاة فى المدينة المنورة لعلهم يصادفوا موطئا لقدم الرسول ﷺ (١) .

(١) عن عاصم الأحوال عمن حدثه قال : « كان ابن عمر إذا رآه أحد ظن أن به شيئا من تتبعه آثار النبي ﷺ » . أخرجه أبو نعيم فى الحلية [٣١٠/١] واللفظ له ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى [١٤٤/٤] .

٢٣٧ نبي الله موسى عليه السلام

ومعنى ﴿ فَاسْتَمِعْ ﴾ أى هبى كل جوارحك لأن تسمع ، لأن الأحاسيس مختلفة . هناك أذن تسمع ، وهناك عين تبصر ، وأنف يشم ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس ﴿ فَاسْتَمِعْ ﴾ أى جند كل جوارحك وأعضائك للسمع واستحضر قلبك ونفذ المطلوب الذى ستسمعه .

ولذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما تجلى للجبل جعله دكا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ ^(١) [الأعراف : ١٤٣] ، فإذا كان موسى صعق من رؤية المتجلى عليه فكيف لو رأى المتجلى سبحانه ؟ إذن .. ربنا لا يكلم أحداً ولا يراه أحد أبداً فى الدنيا وهذه عظمتة سبحانه ، فلو أحسه الناس بأية حاسة ما استحق أن يكون إلهاً ؛ لأن من خلقه سبحانه ما لا يحس مثل الروح التى إذا خرجت من الجسد يموت ويتعفن ، فهل علمت أين كانت الروح فيه ؟ هل شممتها أو أبصرتها أو سمعتها أو لمستها ؟ لا .

إذن .. الروح وهى مخلوقة لله لم تستطع أن تدركها بأية حاسة من حواسك ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم تستطع أن تدركها فكيف تدرك خالقها ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فمن عظمتة تعالى أنه لا يرى ، ولا يحس ، كثير من الناس يتمسحون بالحق ويقول لك الواحد منهم أنا

(١) عن أنس : أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وقال حماد : هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ، وقال : فساخ الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

أخرجه الترمذى [٣٠٧٤] وقال حديث حسن غريب صحيح ، واللفظ له ، وأحمد فى المسند [١٢٥/٣] والحاكم فى المستدرک [٣٢١/٢، ٢٥/١] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٥٨] .

نبي الله موسى عليه السلام

أعرف الحق وأقول كلمة الحق ولكن إذا سألته ما شكل الحق أو لونه ؟
لا يعرف ! كذلك العدل معنى من المعاني ، فإذا كانت هناك مخلوقات لله
لا يمكن للعقل أن يدركها ، ولا للحواس أن تحسها فكيف تدرك خالقها؟ إذن
من عظمته سبحانه وتعالى أنه لا يدرك .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ
الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] أى : أنا الله صاحب الأمر والنهى . لماذا قال
الله له ذلك ؟ لأنه سيكلفه والتكاليف دائما شاقة على النفس ، فعطاء الألوهية
تكليف بينما عطاء الربوبية نعم وخيرات ينهل منها العبد فى الدنيا ، وكلمة :
« لا إله إلا الله » هى المنتهى وهى ينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك
الإيماني وهى كلمة التوحيد التى قال عنها الرسول ﷺ : « خير ما قلته أنا
والنبيون من قبلى لا إله إلا الله »^(١) وما دام لا إله إلا هو سبحانه ، فلا يصح
أن نتلقى عن غيره ولا نعتمد إلا عليه ولا نشغل بالنا إلا بذكره سبحانه .
ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
تَسْعَىٰ ۗ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه]
الحق سبحانه يعلم نبيه ﷺ أن يوطن نفسه على أن الساعة آتية لا محالة .
هذه الساعة هى عمر الكون ، بينما أعمار المخلوقين فى الكون متفاوتة .

إذن .. يجب أن نفهم أن الساعة نوعان ؛ ساعة لكل صاحب أجل ، فمن
مات قامت قيامته ، وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى والحق سبحانه

(١) عن طلحة بن عبيد الله بن كرز بن كرز قال : إن رسول الله ﷺ قال :

« أفضل الدعاء دعاء يوم عرفه ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله
وحده لا شريك له » .

أخرجه مالك فى الموطأ [٦١] .

٢٣٩ **نبي الله موسى عليه السلام**

أخفى ساعة الفرد كما أخفى ساعة الكون ، حتى تحذر أن تلقى الله على معصية ، فتستعد للموت فى كل لحظة ، كما أنك لا تعرف موعد الساعة الكبرى ، فلا تأخذ نعم الله وتمتع بها وتظن أنك هربت بها من الله ، لأنك ستعود إليه فى النهاية . ومعنى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آئِيَةٌ ﴾ لم يقل : « مأتى بها » مع أن الله هو الذى يأتى بها ، ولكن قال : ﴿ آئِيَةٌ ﴾ فكان القيامة شئ مضبوط على الموعد وسيأتى وحده فى مواعده وكلمة : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيًا ﴾ كاد بمعنى « قرب » ، تقول كاد زيد يجىء ، أى قرب زيد أن يجىء . فهو لم يأت بعد فمعنى : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيًا ﴾ أقرب من أنى أخفيها وهى مخفية ؛ لأنك لا تعرف مواعدها .

وقوله تعالى : ﴿ لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] أى أن كل نفس ستحاسب على عملها ، وتأخذ عليه الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ولولا هذا الجزاء الأخرى لكان المنحرفون الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا فى الوجود ، أكثر حظا من المؤمنين الملتزمين بمنهج الله .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه : ١٦] لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يتمنى ألا تكون . هناك آخرة ولا حساب .

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّوَّمَةٌ يَعْقَبُ يَنْمُوسَىٰ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾ ^(١) [القصص : ٣١] ما هذه

(١) قال الزمخشري : وقالوا : أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد فى إكرامه . وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل . وقالوا : اسم العصا « تبعه » . وقيل فى « المآرب » : كانت ذات شعبيتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبيتين وإذا سار ألقاها على عاتقه ، فعلق بها أدواته من = نبي الله موسى عليه السلام ٢٤٠

العجائب ؟ فى البداية النار تزداد اشتعالا فى الشجرة ، والشجرة تزداد اخضرار ؛ لا النار تحرق الشجرة ، ولا الخضره تطفىء النار ، ويأتى الكلام - كلام الله من كل جانب - وبعد ذلك العصا تنقلب حية ، مع أن العصا أصلها فرع شجرة جاف ، فكان من الممكن أن تكون المعجزة بأن تنقلب العصا شجرة خضراء ؛ لأن الشجرة من جنسها ، ولكن العصا هنا تعدت مرحلة النباتية ، وذهبت إلى مرحلة الحيوانية ، وليست الحيوانية الهادئة العادية ، ولكنها انقلبت ثعبانا بكل ما فى الثعبان من صفات .

وأمام هذا المنظر المخيف ولى موسى مدبراً أى : جرى إلى الخلف فداده ربه : ﴿ يَمْوَسَىٰ أَقْبِلْ ﴾^(١) أى : ارجع ثانية ولا تخف ، وأعطى له القضية التي يجب أن يصحبها موسى فى كل تحركاته فى الدعوة : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ لم يقل له الحق سبحانه : أنت هنا فى أمان ، ولكن قال له : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ فهى قضية مستمرة طمأنه الله بها؛ لأنه فى معية الله ،

= القوس والكنانة والحلاب وغيرها ، وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتها وألقى عليها الكساء واستظل ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه . وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البشر ، وتصير شعبتها دلوا ، وتكونان شمعتين بالليل ، وإذا ظهر عدو حاربت عنه ، وإذا انتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاه ، فجعلت تماشيه ، ويركزها فينبع الماء ، فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام . الكشاف [٤٣٠/٢] .

(١) يقول ابن جرير : وقوله : ﴿ يَمْوَسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره : فنودى موسى : يا موسى ، أقبل إلى ولا تخف من الذى تهرب منه ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ من أن يضررك ، إنما هى عصاك .

تفسير الطبرى [٦٩/١٠] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٤١

فإذا كنت ستخاف وأنت فى معية الله ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟ ولذلك جعل الله لموسى دربة معه ، وجعل له دربة مع فرعون وخاصته ؛ ليعده للجولة الأخيرة مع فرعون وخاصته وجمهوره والسحرة والقوم كلهم ، فكان لابد أن يؤنسه مرة ومرة؛ حتى يقبل على مواجهة المواقف بلا خوف ولا وجل ، ويشق من نصر الله وتأيدته له .

انتفع موسى عليه السلام بهذه المواقف كلها ؛ ولذلك لما جاء قوم فرعون وراءه وكادوا يدركونه حينما خرج من مصر بينى إسرائيل ، ماذا قال أصحاب موسى ؟ قالوا : ﴿ إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، فلما قالوا ذلك قال موسى بملء فيه : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾^(١) [الشعراء : ٦٢] قال هذا الكلام من الرصيد الموجود عنده من وعد الله له بالتأييد والنصر ، مع أن كلامه هذا كان يمكن أن يكذب فى الحال ؛ لأن فرعون وجنوده من خلفه والبحر أمامه ، فكلمة : ﴿ كَلَّا ﴾ لم يقلها موسى من فراغ ، ولكن قالها من الرصيد الذى عنده وهو ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ ، وانتفع بها الرسل جميعاً ؛ لأنهم يدعون

(١) ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم شئ مما تحذرون ، فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير ها هنا بكم ، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد . ولما انتهى موسى عليه السلام إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شئ ، والمكون لكل شئ ، والكائن بعد كل شئ ، اجعل لنا مخرجاً ، فأوحى الله إليه : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ [الشعراء : ٦٣] . تفسير ابن كثير [٣/٣٢٥] . قال ابن جرير : وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ قال موسى لقومه : ليس الأمر كما ذكرتم ، ﴿ كَلَّا ﴾ ، لن تدرکوا ؛ ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . يقول : سيهدى لى لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه .

تفسير الطبرى [٩/٤٤٧] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٤٢

إلى الله ، والله معهم ولن يخذلهم ، فلا يخافون من أحد قال تعالى : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ ^(١) [الصافات] .

رسول الله ﷺ قد انتفع بهذا أيضاً وقصها عليه القرآن وقرأها ، فلما كان في الغار ساعة الهجرة ومعه أبو بكر رضى الله عنه ؛ لحرصه على رسول الله ﷺ كان متنبهاً ، ولما نظر رضى الله عنه من فتحة الغار وجد القوم يسيرون عند باب الغار ، فقال : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فماذا قال الرسول ﷺ ؟ قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ^(٢) [التوبة : ٤٠]
فما دمنا في معية من لا تدركه الأبصار ؛ فلن تدركنا الأبصار .

قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٦﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] إلقاء العصا أخذ في القرآن ثلاث مراحل :

(١) يقول ابن جرير : وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : ولقد سبق منا القول لرسولنا : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أى : مضى بهذا منا القضاء والحكم فى أم الكتاب ، وهو أنهم لهم النصر والغلبة بالحجج . ثم قال : وقوله : ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يقول : وإن حزبنا وأهل ولايتنا ﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، يقول : لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر بنا ، والخلاف علينا .

تفسير الطبرى [١٠ / ٥٤١] .

(٢) أخرج البخارى [٣٦٥٣] عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ وأنا فى الغار : لو أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » .

٢٤٣

 نبي الله موسى عليه السلام

المرحلة الأولى : هي التي واكبت اختيار الله لموسى عليه السلام ليكون رسولاً حينما قال الله له ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه] .
الله سأل موسى عن الذى فى يده ، موسى كان يمكن أن يجيب بأنها عصا ، ولكنه إنسان كرم بأن يكلمه ربه فأراد أن يطيل أنسه بكلام الله سبحانه ، فذكر صفات العصا واستخدامها وفوائدها له .

ولكن أخبره الله تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقبها ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوَسَىٰ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [طه] . فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن كانت عصا ، والعصا معروف أنها كانت غصناً من شجرة ، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت حياتها النباتية ، وصارت جماداً بعد قطعها من الشجرة ، ومع ذلك فهي لم تنقلب إلى شجرة كما كانت فى الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التى كانت عليها فى البداية ، وانتقلت إلى مرحلة الحيوانية ، وهى مرتبة أعلى من النباتية .

موسى ساعة رأى هذا المنظر خاف ، فطمأنه ربه وقال له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ٢١] فأمسكها فصارت عصا ، فكأن الله تعالى يدربه على المهمة ، فحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك ؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يخاف من إلقائها؛ خشية ألا تتحقق المعجزة ، ولكنه بعد أن تدرب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقاً من المعجزة .

والمرحلة الثانية : حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته .

والمرحلة الثالثة : حينما ألقاها أمام السحرة فى يوم الزينة .

نبى الله موسى عليه السلام

 ٢٤٤

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [٣١] وَزَعَّ يَدُهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٢﴾ [الشعراء] ومعنى ثعبان مبین أى واضح « الثعبانية » من حياة وحركة وشكل وكل شئ .

والقرآن الکریم یصف عصا موسى بعدة أصناف : مرة یصفها بالثعبان ، ومرة بالحیة ، ومرة بالجبان ، وهذه الأوصاف كلها مجتمعة فیها فهی حیة وثعبان وجان؛ فهی فی خفة حركتها كأنها جان ، وفی شكلها المرعب كأنها حیة ، وفی تلوینها كأنها ثعبان . فی الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف . موسى علیه السلام كان أسمر اللون ، ومن معجزاته أنه سیضع یده فی جیبہ فتخرج بیضاء لها شعاع وبریق یأخذ الأبصار ، فالجیب لیس هو جیبك الذی توضع فیہ المنديل أو النقود ، ولكن الجیب معناه فتحة الصدر^(١) ، موسى أخرج یده من جیبہ فإذا هی بیضاء للناظرین .

یكون هلاك فرعون على یدیه ؛ ولأن الله تعالى یحول بین المرء وقلبه ، فقد نجی الله تعالى موسى من بطش فرعون الذی كان یقتل الأطفال الذکور ، ویترك الإناث ، وجعله یتربى فی بیت فرعون وهو الذی یرعاه ویعتنى به ، وهذا دلیل على أن الله إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوی العقول عقولهم .

(١) قال ابن کثیر قوله : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُبْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] قال سعید ابن جبیر ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ ولیشدن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ یعنی على النحر والصدر ، فلا یرى منه شئ .

أخرج البخاری [٤٧٥٨] عن عائشة رضی الله عنها قالت : یرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطن فاختمرت بها .

٢٤٥ _____ نبی الله موسى علیه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه : ٢٤] علة الذهاب أن فرعون طغى ، والطغيان هو مجاوزة الحد ، ومجاوزة الحد هي أن تأخذ ما ليس لك ، وتبالغ في أخذ ما ليس من حقلك ، وفرعون لم يعتد على حق من حقوق بشر مثله ، ولكنه اعتدى على حق من حقوق الله بادعائه الألوهية ، وموسى حينما سمع اسم فرعون بدأ يتذكر ما حدث له في مصر قبل سفره إلى مدين ، حينما وكز الرجل فقتله ، وتآمر عليه القوم ليقتلوه ، وخرج هارباً يترقب ، وتذكر أن فرعون هو الذي رباه ، وكيف سيواجهه بعد هذه الأحداث .

خواطر كثيرة جالت في ذهن موسى في هذه اللحظة ، وشعر أن العباء أصبح ثقبلاً عليه فقال : يارب أوامرك نافذة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أشياء كثيرة طلب من الله أن يعينه بها ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَأَجْعَل لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ ۝٢٩ هَرُونَ أَخِي ۝٣٠ أَشَدُّ بِهِمْ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ ﴾ (١) [طه] فطلب من الله أن يشرح له صدره ، حتى لا يقابل هذه المهمة بانقباض ؛ لأنك لو أقدمت على مهمة بانقباض فقدت ثلاثة أرباع قوتك ، ولكن إذا أقدمت منشرح الصدر تكون مجتمع القوى .

(١) قال ابن كثير : ﴿ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فوضعها على لسانه ، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل بحيث يزول العى ويحصل لهم فهم ما يريد منه ، وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية .

تفسير ابن كثير [١٤٣/٣] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٤٦

وبعد ذلك أتى بعله هذا الطلب في أن يكون هارون معه في هذا المهمة ، فقال : ﴿ وَأَخِي هَكَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ ﴾ [القصص : ٣٤]^(١) وهاaron بالإضافة إلى أنه أفصح من موسى قالوا : إنه كانت فيه صفات أخرى حميدة ، منها أن موسى كانت فيه حدة أى أنه سريع الغضب ، أما هارون فكان فيه لين وحلم؛ ولذا طلب موسى أن يكون معه؛ ليجبر عقدة لسانه بفصاحته ، وليعالج بليته شدة موسى وحدته ، فيكمل كل منهما الآخر .

وموسى حينما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ، لم يقل ذلك حتى يريح نفسه من عناء الدعوة ومواجهة فرعون وقومه ، ولكنه فعل ذلك حتى يكون أداء المهمة على خير وجه ؛ حيث يكمل كل منهما الآخر ، وأراد أيضاً ألا يبدد طاقته كلها في الدعوة ، وأن يبقى شيئاً منها لعبادة الله وذكره وتسييحه ، فقال : ﴿ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ۗ كَيْ تَسْبِحَكَ كَثِيرًا ۗ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ۗ ﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ [طه] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ۗ ﴾ يعني أن تكليف هارون بالدعوة يكون من قبل الله تعالى ؛ حتى لا يكون تفضلاً من موسى عليه . ومعنى : ﴿ كَيْ تَسْبِحَكَ كَثِيرًا ۗ ﴾ ؛ التسبيح : التقديس ، تقديس الله ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً .

(١) قال ابن كثير : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ ﴾ أى وزيراً ومعيناً ومقويماً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خير الاثنين أئجع فى النفوس من خير الواحد . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ ﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهمهم عنى ما لا يفهمون .

تفسير ابن كثير [٣٧٥/٣] .

٢٤٧ نبي الله موسى عليه السلام

ومعنى : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أى : إنك قيوم علينا ، ترى وتسمع ما نقوم به من عمل وتعلم نيتنا فيه .

فلما ذهب موسى وهارون إلى فرعون وطلبا منه أن يرسل معهما بنو إسرائيل قال له فرعون : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء] أى أنا الذى رببتك وأنت صغير ، ورعبتك حتى صرت شاباً قوياً .

والعلماء يقولون : أن موسى ظل فى بيت فرعون ولم يتركه ، إلا فى سن الثامنة عشرة أو فى سن الثلاثين^(١) ، وفرعون رباه ولبث معه سنين ، وهنا فرعون يذكره بالرجل الذى قتله قبل أن يهرب إلى أرض مدين ومعنى : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ إما من الكافرين بالوهية فرعون أو الكافرين بنعمنا عليك لأننا ربيناك وأكرمناك ، والفعللة التى فعلها موسى هى قتل خباز فرعون حينما ضربه بيده ففضى عليه ، مع أنه لم يكن يقصد قتله .

فرد عليه موسى ليبرئ نفسه : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه] أى أننى لا أنكر أننى قتلت ، ولكن كنت جاهلاً بما سبترتب على هذه العملية ،

(١) قال ابن جماعة : هى ثمان عشرة سنة ، وقيل : اثنتا عشرة سنة ، وقيل : ثلاثين .
غرر التبيان [٣٧٢] .

وقال ابن الجوزى : فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : ثمانى عشرة سنة ، قاله : ابن عباس .

والثانى : أربعون سنة ، قاله : ابن السائب .

والثالثة : ثلاثون سنة ، قاله : مقاتل .
زاد المسير [٣٣/٦] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٤٨

وما كنت أعتقد أبداً أن وكزة كهذه ستميت أحداً ، فكلمة ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالاً عن الهدى ؛ لأن هذه الكلمة لها استعمالات متعددة ، فالذى ضل في الصحراء هل هو تعمد أن يضل ؟ لا .

وحين يقول ربنا لرسوله ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (١) [الضحى : ٧] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالاً عن الحق ؛ لأنه لم يكن عنده منهج من الله وتركه إلى غيره ، ولم يحدث هذا .

ومعنى ﴿ فَوَهَّبَ لِي رَيِّي حُكْمًا ﴾ [الشعراء : ٢١] أى حكمة تجعلنى أضع الأشياء فى مواضعها؛ لأننى خرجت مظلوماً ولم أقصد قتل الرجل ، فأعطانى ربي من الحكمة؛ حتى لا أضع الشئ إلا فى محله .

بعد ذلك يقول موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢١] أى هل تمن على بهذه الأشياء التى فعلتها معى من تربية ورعاية ، هل هذه الحسننة تقارنها بما تفعله مع بنى إسرائيل ، من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال ، فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ومعنى : ﴿ عَبَّدتَّ ﴾ أى جعلتهم عبيداً .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] أى من هو رب العالمين الذى تتحدث عنه؟ فرد موسى ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

(١) قال ابن كثير : منهم من قال : إن المراد بهذا أن النبى ﷺ ضل فى شباب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : لأنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام وكان راكبا ناقة فى الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفض إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالرحلة إلى الطريق . تفسير ابن كثير [٥٢٥/٤] .

نبى الله موسى عليه السلام

٢٤٩

السماوات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأبراج ، ورب هذه الأرض بما فيها من زرع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان ، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون .

موسى رد على فرعون بشئ ثبت فى الكون قبل وجوده ، فما الذى زدته أنت فى الكون يا من تدعى الألوهية ، ثم تلتطف معه فى الحوار فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٤] أى إن كنتم تظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد .

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى ف ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ فرعون قال ذلك لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن ينفى موسى عنه الربوبية والألوهية ، وينسبها إلى من خلق السماوات والأرض ، أن يهبوا لإسكات موسى والرد عليه ، لأنه حقر إلههم ، ونفى عنه ما يدعى فقال لهم مستكراً سكوتهم ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ أى أما سمعتم ما قاله فى حقى ؟ فلماذا تسكتون ؟ وهم سكتوا لأنهم يعلمون أنه كاذب فى الألوهية ، ويتمنون فى قرارة أنفسهم أن ينصر الله موسى عليه ، حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه .

موسى سارع فى بسط حجته ، قبل أن يتدخل أحد من القوم فى الحوار ، ف : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦] أى من الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت .

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق ، أراد أن يخرج من هذا الجدل فاتهمه بالجنون ، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام المستبدين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧] هذا الأسلوب يفضح فرعون ، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل ، وما دام

نبى الله موسى عليه السلام ٢٥٠

مرسلا فلا بد أن هناك من أرسله وهو الله ، فكلامه فيه شهادة ضده مع أنه لم يستطيع أن يرد على كلام موسى ، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعبا بقوله ومضى فى عرض دعوته ، ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٧] أى أن ربي رب المشرق والمغرب وما بينهما ، وجاء بمقابل الجنون الذى اتهمه فرعون به ، فقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور .

ولما ضاق فرعون به ذرعا ولم يجد حجة يرد بها عليه ، هدده بالسجن ، شأن كل حاكم طاغية لا يتفاهم ، ولا يقتنع بالحوار مع معارضيه .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَيْنَ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] وهذا إفلاس فى الحجة ، فكونك تقوى على الغالب وتأخذه إلى السجن ، فأنت لم تقو على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعت الحجة بالحجة ، والناس الذين يسمعون الحوار لو أنهم فهموا ما دار فيه ، كان عليهم أن ينقلوا عليه؛ لأنك حين تحاور إنسانا يجب عليك أن ترد على حجته بحجة مضادة ، ولا يحق لك أن تسكته وتحبسه حتى لا يتكلم ، موسى يعرف سجن فرعون وكان من عادته أنه إذا سجن أحداً يظل فى السجن حتى يموت .

رغم كل هذا الجدل ، موسى لم يظهر معجزته بعد ، ولكنه أخرها إلى نهاية الحوار ، فلما وجدته لم يقتنع بالحوار وهدده بالسجن أراد أن يريه الآيات و ﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ فبعد أن هدده بالسجن أراد الله أن تظهر حجة موسى أمام الناس ، فجعل فرعون يوافق أن يعرض موسى ما عنده من آيات أمامه ، فقال له : أتجعلنى من

٢٥١

 نبي الله موسى عليه السلام

المسجونين حتى لو جئتك بشئ مبين واضح ، فى أنى صادق فى البلاغ عن الله ، فطلب منه فرعون أن يزيه هذا الشئ إن كان صادقاً فيما يقول . وهنا ألقى موسى عصاه فى صالة القصر الفسيحة ، تحولت أنظار الواقفين جميعاً إلى العصا وهى ترتطم بأرض الصالة الرخامية لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت إلى ثعبان هائل يتحرك بسرعة .

اتجه الثعبان الهائل نحو فرعون .. شحب وجه فرعون من الخوف وانكمش فى كرسيه وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان . مد موسى يده إلى الثعبان فعاد فى يده إلى عصا كما كان .. سقط الصمت بعد هذه الآية .

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية ، أدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى بيضاء كالقمر .. شحبت كل أضواء القصر وشموعه أمام هذا النور الجديد ، ظهر وجه فرعون أخضر من الخوف ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤٥﴾ وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء] .

صمتت الأصوات فى القصر وانغرس تأثير المعجزتين فى النفوس يحمل تيار من الخوف أول ما يحمل ثم أعاد موسى يده إلى جيبه فعادت كما كانت ، ذاب النور المدهش الذى حملته الآية الثانية إلى المكان .

ماذا كان موقف فرعون والملأ من هاتين المعجزتين ؟

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٤٧﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٤٩﴾ يَا تَأُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشعراء] .

يبدو أنهم كانوا يضيقون بخطرسته وتسطله وكانوا يريدون أن يروا هزيمته ماثلة حتى يتخلصوا منه ، ومن هنا أشاروا عليه أن ييقى موسى وأخيه وأن

نى الله موسى عليه السلام ٢٥٢

يجمع لهما أمهر السحرة ، وأن يواجههما بهم وبعد ذلك تم تجميع السحرة
 فى المكان المعلوم ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٦٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ
 أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٦٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٧٠﴾ [الشعراء] .
 الميقات هو الوقت من اليوم المتفق عليه ، هناك آيات أخرى حددت اليوم
 بأنه يوم الزينة وهو اليوم الذى يترين فيه الناس بملابسهم الحديدية وتزين فيه
 الفتيان بأبهى زينة . ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ،
 فهذه الآية حددت اليوم والوقت بأنه وقت الضحى ، ثم تكلم فى آية أخرى
 عن المكان ﴿ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾
 ومعنى سوى إما أنه وصف للمكان الذى ستقام فيه المباراة السحرية فى مكان
 مستو من الأرض حتى يتمكن كل واحد من رؤية المنظر فهو مكان مستو ليس
 فيه علو أو انخفاض أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيدا فى أطرافها حتى
 يسهل على الناس الحضور إليه ، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانبي
 الطرفين لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر .

﴿ فَتَنَّاكَ مِنْ أَمْرِهِمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَاؤَ النَّجْوَى ﴿٧١﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ
 يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٧٢﴾ [طه] .

وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس حتى يتجمعوا فى هذا اليوم لمشاهدة ما
 سيحدث ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٧٣﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ
 مُجْتَمِعُونَ ﴿٧٤﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٧٥﴾ [الشعراء] . أى :
 أنهم سيجمعون وعندهم أمل فى أن يتغلب السحرة على موسى ويطلبوا
 حجته .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ .

﴿ ٢٥٣ ﴾ نبي الله موسى عليه السلام

هنا السحرة وهم فريق المباراة الذى سيقف فى صحف فرعون أرادوا أن يتفقوا معه قبل قيامهم بهذه المهمة وقالوا له : أنت تسخر الشعب بدون أجر ولكن هذه المسألة يجب أن تأخذ عليها أجرًا ، فهل ستعطينا أجرًا إن تغلبنا على موسى وانتصرنا عليه ؟

قال فرعون : لن أعطيكم الأجر فقط بل سأجعلكم من رجالى المقربين الذين أستعين بهم فى مثل هذه المواقف ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .
وحيثما اطمأن السحرة إلى الأجر واطمأنوا إلى أنهم سيكونون من المقربين حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى فقد جاءت لحظة التحدى ، تلك اللحظة التى إن غلبوا فيها أخذوا مالا وأصبحوا من المقربين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٥] . أى : أن السحرة بدأوا بالتحدى وأعطوا موسى الاختيار فى أن يبدأ هو أو يبدأوا هم وذلك لفرط ثقتهم فى أنفسهم ، فهم أمهر السحرة وهم جمع وهو واحد ، ﴿ قَالَ بَلْ أَقْتُوا فَأَإِذَا جِآئَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِجِآئِهِمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ سَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .
﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ^(١) [طه : ٦٨] أى أنك منصور ومؤيد من الله ولكن هنا النفس البشرية تتحرك كيف سينتصر؟ هنا يأتى الأمر الإلهى

(١) قال ابن القيم : قول الله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ، ها هنا دقائق :

أحدها : الإتيان بلفظة « إن » المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها .
وثانيها : تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به .
وثالثها : ذكر ﴿ الْأَعْلَى ﴾ معرفاً يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف على وأعلى .
ورابعها : إن ﴿ الْأَعْلَى ﴾ بصفة أفعال يشعر بزيادة العلو .
=

نبي الله موسى عليه السلام ٢٥٤

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى : مهما أوتى الساحر من قدرة على تسخير الجن لعمل شئ فوق طاقة الإنس ، فذلك لا يعطيه قدرة على شئ . وبعد ذلك يقول لنا الحق : إياكم أن تفهموا أن الله ملك مصالحكم لهؤلاء؛ فالساحر يفعل ما يريد ، لكن الإصابة والأذى مرهونان بأمر الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(١) [البقرة : ١٠٢] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ قضية منسحبة على الوجود كله إلى أن تقوم الساعة ، فالساحر لا يفلح فى أى زمان أو مكان .

بعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ قَالَتِ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ شئ عجيب ، كما قال الزمخشري : من العجيب أن هؤلاء ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود ^(٢) . فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفره جاحدون ، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون ؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وفنونه ،

(١) قال المراغى : فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى : أن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله به مسبباتها ، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإن ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

تفسير المراغى [١/١٨٢] .

(٢) قال الزمخشري : سبحان الله ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجداً ، أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة .

الكشاف [٤٤٠/٤٤١] .

نبي الله موسى عليه السلام

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى ، ولكن الله جعل خذلانه وهزيمته عل يد من توسم فيهم عزته ونصره ، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس ، فأعلن سخطه عليهم ؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ؛ وزعم أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم ! وزعم أن موسى هو كبير السحرة الذى علمهم السحر ؛ ولذلك آمنوا به .

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه : ٧٢] وقلنا إن الإيثار هو : ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر ، قولهم : ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ تعبير فى منتهى الدقة وهو تعبير واع وحكيم ؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا : لن نؤترك على موسى ، ولكنهم لم يذكروا موسى ، وذكروا البينة التى جاء بها؛ فكانهم قالوا لفرعون : ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ على يد موسى ، ولن نؤترك على أعلى من ذلك وهو الذى فطرنا . وربما كان قولهم : ﴿ وَالَّذِي فَطَرْنَا ﴾ قسم ، مثلما نقول : لن أفعل كذا وكذا والذى خلقك ، كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث ، وهذه حيثية عدم الرجوع فيما أعلنوه من إيمان برب هارون وموسى . بعد ذلك انتقلوا إلى ما هددهم به فرعون ؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليهم فى جذوع النخل ، فقالوا له : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : نفذ ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدى والأرجل والتصليب فى جذوع النخل . أو أن المعنى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أى : أفعل ما بدالك ، حتى لو كان أشد مما قلت .

هكذا أراد فرعون أن يهدد السحرة بالعذاب الدنيوى ﴿ فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَابِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] .
 ولكن الإيمان الذى ملأ قلوب السحرة جعلهم يستهينون بتهديدات فرعون لأنه إذا قتلهم فهو يجعل لهم الجزاء الأوفى من الله ، ولذلك رد السحرة ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٥] . أى أنك لو لم نؤمننا هذه الميتة فمصيرنا إلى الله مقطوع به ، فنحن ميتون سواء قصر الأجل أو طال ، ثم قالوا لفرعون : ﴿ وَمَا لَنُحْيِيَنَّ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِرَبِّكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا فَأَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] . الإفراغ هو إخراج مافى إنا إلى إناء آخر ليغمره كأنما السحرة يناشدون الله أن يفيض عليهم بالصبر حتى يغمر قلوبهم فلا يجعل فيها مكانا يضعف من عذاب فرعون وتقطيعه لأيديهم وأرجلهم .

وقولهم ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : لا تجعلنا نكفر ونعود إلى ملة فرعون بل اجعل الموت هو السابق فى هذا ؛ ولذلك قال العلماء عن سحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة وكانوا آخره شهداء بررة ، وعلى أثر ذلك انطلق رجال فرعون يقتلون الأبناء ويعتدون على السيدات ووقف موسى يدعوهم إلى الصبر وبشرهم بأنهم سيرثون الأرض إذا اتقوا الله .

أما قومه فبدوا متضجرين متشائمين حتى أنهم قالوا له : إنا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما أتيتنا ، وهكذا استمروا على شكائتهم رغم أن موسى وعدهم بأن الله سيهلك عدوهم ثم يستخلفهم فى الأرض .

بعد ذلك يأتى تأديب الله آل فرعون ، فهل جاء التأديب هكذا فوراً ؟ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾

٢٥٩

 نبي الله موسى عليه السلام

إذن .. لم يأت الهلاك فوراً بل جاء على مراحل ، وهذا من رحمة الله سبحانه أنه يأخذ الكافرين بالشدة ليذكرهم بقوته وقدرته لعلهم يتوبون إلى الله ويرجعون إليه والسنة هي العام ، ولكنها تطلق على الجذب والقحط ، فإذا كانت السنون هي الجذب والقحط فما هو النقص من الثمرات ؟

يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم ، فلو أنه انقطع الثمر تماماً ما وجد الناس قوتهم وما بقيت هذه الزروع على الأرض لأنه لا بد من بذور لتزرع حتى يبقى النوع في الأرض ، ولذلك كان لا بد من ثمرات قليلة تحفظ نوع النبات وتبقيه وتحفظ حياة الإنسان وتعطيه القدر اللازم لاستبقاء حياته . ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عَنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ آكَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣١] .

﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أى : نستحقها لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ثم يندرون الحب وينظرون الثمار فإن جاءت لهم سيئت مثل أخذهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى ، فإذا ما جاءتهم سيطيرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هو التشاؤم من موسى والحق سبحانه يقول : لا تظلموا موسى لأن شؤمكم أو حظكم السيء ليس من موسى .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .
وكلمة : ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ يراد بها طغيان الماء .. والماء هو سبب الحياة وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بطايتها بل بتوجيهات القادر

نبي الله موسى عليه السلام ٢٦٠

عليها ، وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقي فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ويظل هكذا .. وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه .. وهذه معجزة واضحة .

ودخل الطوفان على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى وقال له كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان لكنهم عادوا إلى الكفر ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلاً - الرزح - فلما رأوا أثره عرفوا أنه لا يبقى الزرع .

و ﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ هو غير القمل ، فالقمل هو الآفة التي تصيب الإنسان في بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القمل فهو السوس الذي يصيب الحبوب ، وقيل هو ما نسميه بالقراد والحشرات التي تهلك النبات والحرق . وكذلك أرسل الله عليهم الضفادع ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده فى شىء يجد فيها الضفادع ، فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التي يشربونها تنقلب لهم دماً .

وهنا ذهبوا إلى موسى ليسأله أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب .

إذن .. فهم آمنوا بأن موسى مرسل من إله وهم قد فهموا أن العذاب الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من إله موسى وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، ﴿ قَالُوا يَكُفِّرُ بَدْعُكَ مَا عِبَدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٥] .

٢٦١ نبي الله موسى عليه السلام

﴿ الرِّجَزَ ﴾ هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب .
﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰكٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ذُرُوْبِيْ اَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ رَبِّيْٓ اِنَّىٓ اِحٰفَ اَنْ يَّبَدِّلَ دِيْنَكُمْ اَوْ اَنْ يُظٰهَرَ فِى
الْاَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ [غافر] .

هناك نوعان من القتل فى قصة موسى مع فرعون ، النوع الأول قبل ميلاد
موسى : عندما قيل له إن زوال ملكك وألوهيتك هذه سيكون على يد غلام
من بنى إسرائيل ، هذه واحدة .

والثانية : هى بعد إيمان السحرة بموسى وانتشار دعوته وافتضاح أمر فرعون .
﴿ ذُرُوْبِيْ ﴾ أى : اتركونى ، مثلما يقال عندنا فى الريف - سيبونى عليه -
وهى دليل على أن قوة تمنعه من القتل وأن هناك من يعارضه ، إن المعارضين
لابد أنهم إناس خميرة الإيمان فيهم متيقظة لأنهم يمنعون فرعون مما يريد ،
يقولون له : إنك إن قتلتهم لفهم الناس إنك لم تطق حياته لأنه فضحك وأنتك
خفت أن يهدم عرشك وألوهيتك .

إذن .. فقد دخلوا عليه من ناحية أنهم يحافظون عليه حتى لا يفهم أنهم
يدافعون عن موسى ، ويشم منهم رائحة الخيانة العظمى لألوهيته .

﴿ وَقَالَ مُوسٰى اِنِّىٓ عَدُوْتُ رَبِّىْ وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧] . أى : أنه سبحانه ربهى وربكم رغم أنوفكم ، ولم
يذكر كلمة « فرعون » لأنه هو الذى رباه اعترافا له بحق الرعاية والتربية ،
وفرعون يدخل ضمن هؤلاء المتكبرين لأنه فى قمة التكبر حيث ادعى الألوهية
وكفر بيوم الحساب .

نسى الله موسى عليه السلام

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] . هذا الرجل المؤمن كان قبطيا من آل فرعون قيل كان ابن عم فرعون ، وكان يكتُم إيمانه عن قومه ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ فأخذته غضبة لله عز وجل وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما قال النبي ﷺ ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون .

﴿ وَإِنْ يَكَ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨] . وهذا احتياط للأحوط ألا نقتله ، كأنه يريد أن يستبقى حجة الحق لعله توجد آذان تنصره فرما يكون هذا الرجل الذي تريدون قتله صادقا فيضيع عليكم ما أنتم فيه ، ولو كان موسى الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون لكان أمره بيانا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ولما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال محذرا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم .

بدا واضحا أن فرعون لن يؤمن لموسى ولن يكف عن تعذيبه لبنى إسرائيل ، ولن يكف عن استخفافه بقومه ولم يعبا بما قاله الرجل المؤمن .

هنالك دعا موسى وهارون على فرعون : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُخْلُوكَ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس] . أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس] .

وجاء الإذن لموسى بالخروج من مصر واصطحب قومه معه ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخَشَى ﴾ ،

٢٦٣

 نبي الله موسى عليه السلام

فجمع موسى بنى إسرائيل وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقاً إلى الأرض المقدسة فى فلسطين فتبعهم فرعون وجنوده فأصبحوا فى خوف شديد لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقاً فى البحر .

ومعنى ﴿ أَسْرٍ ﴾ أى امش بالليل ؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون ، ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿ [طه] ﴾ ، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له ، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة أخرى ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] . إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة ، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة ، فلما قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ طمأنهم موسى بقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، قال لهم ﴿ كَلَّا ﴾ ، وهذه ليست من عندى ولكنها من عند الله ؛ لأنه ربي الذى سيهدينى إلى طريق النجاة . وكلمة : ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ معناها غطاهم من البحر ما غطاهم ، وأنت حين تبالغ فى شئ تقول : لقد حدث ما حدث ، وحصل ما حصل . فأنت تبهم الشئ ؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل . كذلك قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ؛ أى أنه أمر مهول لا يمكن حصره ، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هنا ، فموسى حينما مشى فى الطريق « اليبس » ونجا بقومه - بنى إسرائيل - تبعه فرعون بجنوده ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون ورائهم ، وكان هذا اجتهاداً منه ، ولكن الوحي الإلهى أمره أن يترك البحر كما هو ، قال تعالى : ﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان] ، وكانت الحكمة من ترك البحر نبي الله موسى عليه السلام

على حالة إغراء فرعون وجنوده بالسير فى الطريق اليبس ، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع الله الماء إلى استطراق سيولته ؛ فيفرق فرعون وجنوده ، فيكون الله تعالى قد أنجى وأهلك بالشئ الواحد .

ومعنى ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٩] أى : أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك ؛ لأنه كان دائماً يدعى أنه يقود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] ففرعون كذب فى هذا الزعم ؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق ، ولم يهديهم إلى سبيل الرشاد .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَجَنَّا نَا سَبِيحَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ ؛ ولم يقل : اجتاز بنو إسرائيل البحر؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية ، وإنما تم بقدرة الله سبحانه وتعالى التى هى فوق الأسباب ، وحينما نقرأ قول الله سبحانه : ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ ، نعرف أن الله سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية ؛ ليكونوا عبرة لكل طاغية يدعى الألوهية ؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض ، ونسى قدرة الله المسبب . ولو أن البغى والعدوان لم يكن بداخله ، لعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر ، أن إله موسى سينجيهِ ولن يتركه يهلك ، ولوقف أمام هذه المعجزة ليفيق من كفره ، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية ، تكفى لكى يؤمن فرعون برسالة موسى ؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى ، فليس من قدرة البشر ، ولا غير البشر أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى جبلين بينهما ممر ، ولكن غرور فرعون وعدوانه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التى وضعها الله أمامه على يفيق ، لقد كان مشغولاً بألوهيته وجبروته ، وكان الكفر يملأ قلبه ، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه .

٢٦٥ _____ نبي الله موسى عليه السلام

ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرْقُ ﴾ والإدراك : أن يقصد المدرك أن يلحق بالشئ الذى يريد أن يدركه ، ويبدل كل جهده فى ذلك ، والغرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس ، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَذْرَكَهُ الْفَرْقُ ﴾ ، كأن الغرق جندى من جنود الله وله عقل ، وقد تلقى الأوامر من الله ، ليحيط بفرعون وجيشه ويفرقهم ، ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق ؟ قال : ﴿ ءَأَمَنْتُ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . فرعون وهو يفرق كان فى إيمان الإجمار ؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته ، وإيمان الإجمار لا ينفع ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ءَأَكْفَرَ وَأَنْتَ تَوَاجَهَ الْمَوْتَ تَقُولُ : آمَنْتُ ، بَيْنَمَا كَانَ عِنْدَكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ ؛ لِتُعْلَنَ إِيمَانُكَ بَعْدَ أَنْ أَرَاكَ اللَّهُ مَعْجَزَاتٍ كَثِيرَةً عَلَىٰ يَدِ رَسُولِهِ مُوسَىٰ ، وَلَكِنَّكَ عَصَيْتَ وَأَصْرَرْتَ عَلَى الْكُفْرِ ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَا يَقْبَلُ إِذَا بَلَغْتَ الرُّوحَ الْحَلْقُومَ ، وَعَرَفَ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ يَقِينًا ؛ لِأَنَّ هَذَا إِيمَانُ إِجْبَارٍ .

والله سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر ، ولو كان المطلوب إيمان الإجمار ، لقهَر الله سبحانه وتعالى على الإيمان ، وما استطاع واحد أن يكفر بالله ؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لأمر الله سبحانه وتعالى^(١) ، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء ، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار ، أن يأتيه عن محبوبة ، ولا يتم إيمان المحبوبة إلا إذا كان

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٦٦

الإنسان مختاراً أن يؤمن أو لا يؤمن ، فالذى يأتى عن طريق الاختيار ، تكون له منزلة كبيرة عند الله ، إذن فالمردود ليس القول ، ولكنه زمن القول .

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون : ﴿ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس : ٩٢] أى بجسدك المجرد من الروح ، إن سبب حفظ أبدان الفراعنة ؛ أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تخفيط الجسد البشرى ؛ لكى تكون أجسادهم عبرة لمن يجىء بعدهم ، ويرى الناس أولئك الذين ادعوا الألوهية وهو أجساد لا حركة فيها ولا قدرة ، وأراد الله أن يرى قوم فرعون جسد فرعون ، ذلك الطاغية الذى كان يدعى الألوهية ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] .

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَخُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أى أن الله تعالى عجل لهم العقاب فى الدنيا قبل الآخرة . والأخذ معناه : أن الآخذ عنده قدرة على أخذ المأخوذين جميعاً فى قبضته مرة واحدة ، ويلقيهم أينما شاء ، وهذا ليس فى قدرة البشر ، وإنما فى قدرة الله وحده . لذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذُوا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٣] الكتاب : هو التوراة ، آتاه الله لموسى بعد أن أهلك القرون الأولى ، الذين كذبوا رسله ، وحاربوا دعوته ، هذا الكتاب أنزله الله على موسى ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ ليعطيهم البصيرة والنور ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ لهم من ربهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ فضل الله عليهم ؛ فيؤمنون به . قال رسول الله ﷺ : « ما عذب الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل الله التوراة على نبي الله موسى عليه السلام ٢٦٧

موسى»^(١) فالله عز وجل منذ بعث موسى عليه السلام لم يهلك قوما عاندوا الرسل وصدوهم ، بل تولى الرسل وأتباعهم أمر مقاومة من يحاربون دعوة الله ويتصدون لها ، ويمنعون وصولها إلى الناس .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [البقرة] ولقد عرفنا من قبل كيف أن من خرج مع موسى من القوم لم يكونوا كلهم من المؤمنين ، لقد أرسل الله موسى بالآيات المعجزات الأولى إلى فرعون وآله عندما آنس من جانب الطور ناراً ، وبعد ذلك تجلى له الله بالكلمات ؛ ليرسله رسولاً ؛ ليخلص بنى إسرائيل من عذاب فرعون .

وبعد نجاة موسى ومن معه كان لابد من أن ينزل منهج الحق على موسى ؛ ليهدى به القوم ، ذلك أن قوم موسى بعد أن أخرجهم الله من البحر وشق لهم طرقاً مروا بقوم يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما يعبدونه ؛ فيؤبخهم موسى عليه السلام وفي ذلك يقول الحق : ﴿ وَجَنُوزَنَا بِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا ﴾ (١) عن أبى سعيد قال : « ما أهلك الله قوما قط بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعدما أنزلت التوراة ، يعنى ما مسخت قرية » . قال البزار : هكذا رواه يحيى موقوفاً ، ورفع عبد الأعلى .

مختصر زوائد البزار [١٤٩٦] .

وعنه رضى الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال : « ما أهلك الله تبارك وتعالى قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعد موسى » ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ . قال البزار : إن شاء الله مثله .

مختصر زوائد البزار [١٤٩٧] .

نبي الله موسى عليه السلام ۲٦٨

يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِّمَّا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَّا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿١٧٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَإِذْ أَبَيْتُكُمْ مِنَ الْعَالِ فَرَعُونَ يُسْؤِمُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴿ [الأعراف] .

لقد ترك موسى قومه ليتلقى عن الله المنهج : ﴿ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ يَرْسَلُكَ وَيُكَلِّمُنِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿١٨١﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاجِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿ [الأعراف] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ ﴿ [الأعراف: ١٤٣] ، « الميقات » هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، وموسى عليه السلام جاء في الميقات أى في الميعاد المحدد ، ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى لم يكشف لنا عنه وترك الأمر فيه لله .

وحيثما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراف اصطفايى وكأنه قال لنفسه : ما دام قد كلمنى فقد أقدر أن أراه لأن استطابة الأنس تمد النفس بسبل الأمل فى الامتداد فى الأشياء ، لم يقل موسى أرنى ذاتك بل قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، فرد الحق سبحانه عليه : ﴿ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴾ وكلمة ﴿ لَنْ ﴾ تأتى تأييدية أى تؤيد المستقبل ، أى لا يحدث ولا يتحقق أن يرى الله فى الدنيا .

وسبحانه يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح لن ترانى ، ولكن حتى أطمئنك إنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى ، ﴿ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ ، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإن استقر مكانه يمكنك أن ترانى ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ اندك ، والدك هو الضغط على الشىء من أعلى ليسوى بشىء أسفل منه .

ولكن أيقدر المتجلى عليه على هذا التجلى أم لا يقدر .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ اندك . إذن .. فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلى أو لا يقوى ؟ ولم تقوى طبيعة موسى على التجلى لله ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ ، ويقال خر الشىء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعفة أخرى تعبر عن الإغماء الطويلة ، ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أى أفاق من الغشية التى حصلت له من الصعقة وكأنه تساءل لماذا انصرفت ؟ ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ، يراد بها التنزيه لله من الحدث الذى نحن بصددده وهو رؤيته تعالى ، وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل لقد كلمه الله فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التى يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا يبذل مجهود ؟

هنا تظهر منزلة موسى عند الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] .

نبي الله موسى عليه السلام 270

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسرى عن موسى ، الذى أحس بنوع من لوم نفسه على تجاوزه حينما قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ ۗ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴾ فقال له الحق سبحانه وتعالى ما معناه : لا تلتفت يا موسى إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك . والله يريد بهذا أن يلفتنا جميعاً إلى ألا ننظر إلى ما منعنا إياه ، ونحاول أن نضخمه ؛ ولكن فلننظر إلى عطاءاته وفيوضاته وهى كثيرة أجل من أن تحصى^(١) ، وهو سبحانه يذكره بها فى هذا المقام . فالله قد اصطفاه أى اختاره وميزه على الناس ، وهذه دقة الأداء ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ اصْطَفَيْتُكَ ﴾ ولم يقل ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ ، لكان معنى هذا هو الاصطفاء المطلق على كل خلق الله ، حتى الملائكة المقربين ، ولكن الحق سبحانه وتعالى ، يفهمنا أن هذا الاختيار والتفضيل ، هو فى دائرة البشر ، ولكن الله أصطفى من الرسل غير موسى ؛ فلذلك نقول : هناك فرق بين اصطفاء أو تفضيل برسالة منفردة ، وبين تفضيل برسالة ومعها شئ زائد ، تماماً كما يتميز أحد أولادك فتعطية مكافأة ، ويتميز ابنك الثانى أكثر فتعطية مكافأة ومعها هدية ، الاثنان أخذوا المكافأة ، ولكن أحدهما تميز بالهدية ، والرسل اصطفاهم الله سبحانه وتعالى بالرسالات ، ولكن موسى عليه السلام اصطفاه الله بالرسالة والكلام ، على أننا نلاحظ قول الحق : ﴿ بِرِسَالَتِي ﴾ مع

(١) قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم

الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وجاء فى الأثر : أن داود عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ، وشكرى لك

نعمة منك على ، فقال الله تعالى : الآن شكرتنى يا داود . أى حين اعترفت

بالتقصير عن أداء شكر النعم . تفسير ابن كثير [٢٣٦/٢] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٧١

أن موسى له رسالة واحدة وهي اليهودية ، نقول : إن الرسالة على الأنبياء تنزل على مراحل ، وسيدنا رسول الله ﷺ استمر يتلقى الوحي ثلاثة وعشرين عاما ، وكل ما يأتي من الوحي فى كل مرة هو رسالة من الله ، إذن فالمجموع رسالة واحدة ، إلا أنها رسالات متعددة ، تشمل كل ما نزل على الرسل السابقين وتضيف عليه ، أى إنها رسالة جمعت رسالات كثيرة ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى أن النعم التى أعطيتها لك تستوجب الشكر؛ لأن فيها تفضيلاً كبيراً على ما أعطيته للناس ، والإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله ، لا بد أن ينظر إلى ما بقى من النعم ، لا إلى ما سلب منه ، والمؤمن المتفائل إذا رأى كوباً مملوءاً إلى نصفه بالماء يقول نصف الكوب مملوء ، والإنسان المتشائم ^(١) يقول : نصف الكوب فارغ . ولذلك فإن جعفر الصادق كان ذاهباً إلى دمشق لمقابلة الخليفة ، وأثناء الرحلة من المدينة إلى دمشق جرحت قدمه ، ولما لم تكن هناك عناية طبية ، فقد تقيحت قدمه وتسمت ، ولما ذهبوا به إلى الأطباء قرروا قطع قدمه ، فقال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً ، أى مخدراً حتى لا يحس بالألم . فرفض جعفر الصادق رضى الله عنه وقال : لا ، لا أريد أن أغفل عن ذكر ربي طرفة عين ، فلما قطعوا قدمه أخذوها ليدفنها ، قال : أحضروها فجاءوا له بها ، فقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

(١) أخرج البخارى [٥٧٧٢] واللفظ له ، ومسلم [١١٩/٢٢٢٥] . عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، إنما الشؤم فى ثلاث . فى الفرس ، والمرأة ، والدار » .

وهكذا يجب أن تكون نظرة المؤمن ، ليست إلى النعمة التي سلبت منه ، ولكن إلى النعم التي أعطيت له ، وهنا يريد الله أن يلفت موسى إلى ذلك ، فيقول له ما معناه : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، ولكن انظر إلى أنى فضلتك على الناس برسالاتي وبكلامي فكن شاكرا لنعمتي عليك^(١) .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٦﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] موسى كان على موعد مع ربه ؛ ليتلقى منه المنهج ، وكان من المفترض أن يحضر معه النقباء أو رؤساء الوفود ، ولكنه ذهب وحده فقال له ربه : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ أى لماذا لم تأت مع قومك ؟ فقال موسى : ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي ﴾ أى أنهم سيأتون خلفي ، ولكنى عجلت إليك يارب لترضى .

فنبى الله موسى عليه السلام قال لربه إن القوم آتون ورائه ، ولكنه تعجل لقاء الله ليرضى بأن يطبق منهجه؛ لأن القوم حين يرون موسى قد تعجل لقاء الله فى الموعد الذى حدده ، يعلمون أن هذا الأمر لو لم يكن خيراً ما سبقهم إليه ، وبذلك يجدون فى طلب هذا الأمر ويهتمون به؛ لأن موسى نبىهم وقدوتهم سبقهم إليه .

(١) قال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك ؛ يقال : دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف . والشاكر معرض للمزيد كما قال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمة الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل .

تفسير القرطبي [٢٨٠/٧] .

نبى الله موسى عليه السلام

يعطينا الحق صورة أخرى من صور كفر قوم موسى رغم كل النعم التي أنعمها عليهم ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَّارٌ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات الله ، وبعد أن استخلف هارون على قومه وقوله : ﴿ مِن حُلِيِّهِمْ ﴾ والحلى هى : ما يتزين به الناس من الذهب والأحجار الكريمة والجواهر ، ولكن الحلى سيدها دائما هو الذهب .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ خَوَّارٌ ﴾ يدل على أن جسد العجل لم تكن فيه الروح التى تعطيه الخوار ، أو الصوت الذى يصدره البقر ؛ ولذلك اضطرب صناعه - وهو السامرى - أن يجعل فيه فتحات للهواء من الأمام ومن الخلف ؛ ليدخل منها الهواء ويخرج ؛ فيحدث صوتا أشبه بصوت الخوار .

ولكن لماذا اختار السامرى العجل دون سائر مخلوقات الله؟ لأن بنى إسرائيل كانوا خارجين من مصر ، وكان المصريين القدماء يعبدون العجل ؛ لميزات فيه ، فالمصريون القدماء عبدوا الأشياء التى كانوا يرون فيها خيرا وقوة ، فعبدوا الشمس ، وعبدوا النيل ؛ لأن الشمس قوة تبقى لهم مظاهر الحياة على الأرض ، والنيل قوة تغمر لهم الأرض بالخير ، ويخرج منها الزرع ، ويأتى لها بالخصوبة ، والعجل قوة يجز المحراث ويلقح البقرة ؛ فتأتى لهم بالخير من عجول تعينهم فى الحياة وزراعة الأرض ، وأبقار تعطيتهم اللبن والخير . ولكن كيف عبد قوم موسى العجل بعد أن من الله عليهم بكل هذه النعم ، فأنجاهم من فرعون ، وأورثهم الأرض ، وأغرق عدوهم ؟

نبى الله موسى عليه السلام ۲۷۴

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حين أعطى قوم فرعون كل هذه النعم بمجرد أن عبروا البحر مروا على قوم يعبدون أصناما ، فقالوا لموسى : ﴿ أَجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ونسو أن الإله لا يجعل ، ولكنه هو الخالق والموجد ، ونسو أن العبادة لا بد أن يكون لها منهج ، وإلا فكيف ستعبد إلهها دون أن يبين لك منهج عبادته !؟

ويلفتنا الحق إلى منهج العبادة الذى يجب أن يرسل للبشر لهدايتهم ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ أى : ألم يفتنوا إلى أنه لا منهج له ولا يهدى للحق ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أى أنهم كانوا ظالمين حينما أعطوا حق العبودية لجسد عجل ، وهذا ظلم فى حق الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ، ثم يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ وهذا دليل على أنه كان بينهم من ذوى البصيرة من نبههم إلى سفاهة ما فعلوا ؛ فندموا على ذلك .

وكان الندم قد بلغ أشده منهم لما أحسوا بعظم جريمتهم ، وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أنهم حينما أحسوا بالجريمة الكبرى التى ارتكبوها ، طلبوا رحمة الله وغفرانه ، وبقوا كذلك حتى عاد إليهم موسى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا ﴾ .

فكان موسى قد عاد إليهم وهو فى حالة شديدة من الغضب والأسف ، مما يدل على أنه أخبر من الله بما حدث ، والغضب هو : ثورة من عدم وقد قال ٢٧٥

 نبي الله موسى عليه السلام

الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَسِفًا ﴾ استخدمها لصيغة المبالغة؛ ليلفتنا إلى الحزن الشديد الذى كان فى نفس موسى .

ثم تأتى بعد ذلك مظاهر الغضب ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ يَتَسَمَّا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أى أنه أراد أن يعبر لهم عن قبح ما فعلوه بعد أن تركهم ؛ فقال بئس ما فعلتم أى خزيًا وعارا ، ثم قال أعجلتم أمر ربكم ، أى هل استبطأتم عودتى إليكم بعد ميقات ربكم ؛ حيث إنه قد تأخر عشرة أيام ، أى حينما أبطأت فى العودة إليكم اعتقدتم أننى لن أعود ، فبدأتم تتعدون عن المنهج مع أن بطئى فى العودة لم يكن يؤدى إلى ذلك ؛ لأنكم تعبدون الله ولا تعبدوننى .

فقال تعالى : ﴿ وَالْقَى الْأُلُوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] أى أن غضب موسى انصب على أخيه هارون ؛ فأخذ برأسه وقد أعماه الغضب عن الأخوة ، وأخذ يجره إليه ، ماذا كان رد هارون ؟ ﴿ قَالَ ابْنُ أُمَّ ﴾ يعنى : يا ابن أُمى ، فكأن هارون يذكر موسى بصلة الرحم ، ثم يحاول أن يبرر له ما حدث فيقول : ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ﴾ أى أن هارون يريد أن يقول لموسى : إننى وقفت ضد هؤلاء الذين عبدوا العجل ، ووقفت ضدهم بقوة ، حتى وصلت المسألة إلى أنهم كادوا يقتلوننى ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ﴾ الشماتة هى : إظهار الفرح لمصيبة تقع على خصم ، والأعداء هم الذين عبدوا العجل ، ووصفهم بالأعداء دليل على أن هارون وقف منهم موقف العداوة ، وأن ما يفعله موسى سيجعلهم يشمتون .

نبي الله موسى عليه السلام

بعد ذلك سأل موسى السامرى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾^(١) قَالَ
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾^(٢) [طه] .

كلمة ما خطبك ، تقال فى الحدث المهم ، وهو الحدث الجلل الذى يصلح
لأن تقال فيه : خطب .

لما سأل موسى السامرى رد عليه بقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾^(٣)
هناك بصرت ، وأبصرت ، كلمة : أبصرت للرؤية الحسية ، وكلمة بصرت للرؤية
العلمية ، فكان السامرى يقول لموسى أنا رأيت بعلمى وأن هذا شئ لم يعرفه
القوم ، فاجتهاده قاده إلى جمع الخلق ، وعمل العجل والكوف عليه ؛ لأنه
رأى قومه طلبوا من موسى : أن يجعل لهم إلهاً مثل القوم الذين مروا عليهم ،
ووجدهم يعكفون على أصنام لهم .

فقال : هذه مسألة فى بالهم ، وانتهاز فرصة غياب موسى وقام بهذا العمل ،
وزاد على ما طلبه القوم من موسى بأنه لم يجعله صنماً من حجارة ، وإنما
جعله عجلاً له صوت ، وله حوار .

ومعنى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾^(٤) فقبض على الشئ أى أخذه
بجمع يده ، قوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾^(٥) روى عنه العلماء روايات متعددة ،

(١) يقول السيوطى عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾^(٦)
قال : لم يكن اسمه ، ولكنه كان من قرية اسمها سامرة ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ ﴾^(٧) يعنى فرس جبريل .

وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾^(٨)
قال : من تحت حافر فرس جبريل .
الدر المنثور [٥/٥٩٦] .

٢٧٧ نبى الله موسى عليه السلام

فقالوا : إن السامرى لما كان جبريل يتعهده حين أخفته أمه فى كهف أيام تقتيل فرعون لأبناء بنى إسرائيل ، وكان يأتيه على جواد ، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شئ اخضر مكان الحافر ، أى دبت الحياة فى مكان الحافر ، وهذا قول الذين قالوا إن العجل كان عجلاً حقيقياً له صوت طبيعى ، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الخوار ، ولكن العلماء الآخريين قالوا كلاماً غير هذا فقالوا : إن معنى ﴿ فَبَقَّبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ الرسول كما نعلم هو المبلغ لشرع الله ، وهو حامل المنهج المكلف به . فالرسول هنا هو موسى ؛ لأن بنى إسرائيل لم يروا جبريل ، بل ولم يسمعوا منه ، ولكنهم سمعوا من موسى ، فهو الذى بلغهم أمر الله ومنهجه . وإذا كان الرسول جاء ليبلغ شرعاً من الله ، فهذا هو أثره الذى يبقى بعد انتقاله ، فقبض قبضة من هذا الأثر .

ومعنى ﴿ فَتَبَدُّثَهَا ﴾ أبعدتها عن مخيلتى ، وتركت لى نفسى العنان فى أن تفكر أى تفكير ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لى نَفْسى ﴾ ومعنى سولت له نفسه ، أى أنها دفعته إلى معصية؛ بأن يأخذ شيئاً من آثار الرسول ووحىه الذى جاء به من الله ، وينبذها عن منهجه ، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره ، ولذلك لا يقال : سولت لى نفسى الطاعة . بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى .

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فى الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فى الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه : ٩٧] .

إذن .. فمعنى ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ ﴾ (١) أن تنزل في حياتك عن الناس وتبتعد عنهم ، ولا تتحمل أن يمسك أحد أو يقترب منك . قالوا : فانزل السامري عن المجتمع ، وهام على وجهه في البرارى لا يمس أحداً ولا يمسه أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِفْتُمْ ثُمَّ لَنْسِفْنَهُ فِي آلِيٍّ نَسْفًا ﴾ أى انظر إلى هذا العجل الذى ظلت على عبادته عاكفا - أى مقيما - لأن العكوف هو : الإقامة ، فمعنى اعتكف فى المسجد أى أقام فيه وانقطع عن المجتمع الخارجى . ﴿ لَنْهَرِفْتُمْ ﴾ : أى لنصيرنه كالحروق ، ﴿ لَنْسِفْنَهُ فِي آلِيٍّ نَسْفًا ﴾ ننفسه أى نظيره ، ونزروه فى الهواء ، وبعد أن بين الحق سبحانه وجه البطلان فيما فعله السامري ، وفيما فعله القوم الذين اتبعوه فى عبادة العجل ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ إِلْهِكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٩٧] .

قصة نبي الله موسى وقومه مع فرعون ، أخذت حيزا كبيرا من القرآن الكريم؛ لأن اليهود قوم عللهم وأمراضهم كثيرة حتى أنهم من جهلهم يفتخرون بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، ويعتبرون ذلك من مفاخرهم ، مع أن النبي لا يرسل إلا عند شقوة (٢) قومه ، فكان بلادتهم لم يكفها نبي واحد ،

(١) قال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ ﴾ أى قال موسى فاذهب ، أى من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ ﴾ أى لا ولا أمس طول الحياة . فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ، ولا يقربوه ، ولا يكلموه ، عقوبة له والله أعلم .

(٢) الشقاء والشقاوة بالفتح : ضد السعادة ، يمد ويقصر ، شقى وشقاء وشقاوة وشقوة وشقوة . وفى التنزيل العزيز : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : ١٠٦] . لسان العرب [٤٣٨/١٤] .

٢٧٩ **نبي الله موسى عليه السلام**

ولكنها تحتاج إلى مجموعة من الأنبياء ، مثل العملية الخطيرة أو المريض الخبيث الذي يحتاج إلى مجموعة من الأطباء ، ولا ينفع لعلاجه طبيب واحد .
 فكثرة الأنبياء في بنى إسرائيل حجة عليهم ، ودليل ضدهم ليس لصالحهم .
 ولكن حينما تجد قصة نبي الله موسى تتكرر في القرآن ، تجد التكرار عبارة عن لقطات من القصة يكمل بعضها بعضا ، فربنا سبحانه وتعالى لا يحكى -
 حدوده أو تاريخا - ولكنه يقص على الرسول ﷺ موطن العبرة ليثبت به
 فؤاده (١) .

وتثبيت الفؤاد يتكرر بقدر ما يتعرض له الرسول من مواقف صعبة خلال
 دعوته ، فكلما احتاج فؤاده إلى التثبيت ، جاءه القرآن بلقطة جديدة من
 القصة (٢) .

(١) يقول تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .
 قال القرطبي في تفسير : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى : على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا وبقينا .
 وقال ابن عباس : ما نشد به قلبك . وقال ابن جريج : نصبر به قلبك حتى لا تجزع .
 وقال أهل المعاني : نطيب ، والمعنى متقارب . تفسير القرطبي [١١٦/٩] .
 (٢) قال ابن كثير : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : ٣٢] . أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتاب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك ، بأنه إنما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ؛ ليثبت قلوب المؤمنين . تفسير ابن كثير [٣٠٧/٣] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٨٠

واعترض عن النسيان بأن الشيطان أنساه ذكر الموت .

فى الآفة السابقة قال : ﴿ سَرِيًّا ﴾ ، لأن هذا حال الموت ولكن هنا قال : ﴿ عَجَبًا ﴾ أى : عجبيا لأنه خالف المؤلف لأنه حوت مشوى ثم دبت فيه الحياة فقفز من مكانه وسعى نحو البحر فهذه مسألة عجيبة عند من رآها .
بعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦١﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٢﴾ [الكهف] .

أى قال موسى ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ﴾ أى : أن المكان الذى كنا نريده هو الذى ذهب فيه الحوت ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى عليه السلام ، ﴿ فَأَرْتَدَّا ﴾ أى : رجعا إلى هذا المكان لأنه معروف لهم .
ومجمع البحرين اتفق العلماء على أنه التقاء بحرين مع بعضهما ليصبحا بحرًا واحدًا ، وهذه الصورة لا توجد بالنسبة لمسرح بنى إسرائيل إلا فى جنوب سيناء ، عند التقاء خليج العقبة بخليج السويس ، عند قمة رأس محمد فى أقصى الجنوب من سيناء ، وعندما وصلا إلى هذا المكان وجدا هذا الرجل الذى جاء موسى لمقابلته ، وهو عبداً لله وهذا شرف كبير أن تكون عبداً لله دون سواه .

ومعنى ﴿ ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ [الكهف : ٦٥] قال العلماء : أن الرحمة وردت فى القرآن بمعنى النبوة لأن الكفار حينما قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] كان رد الله عليهم : ﴿ أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

٢٨٥

 نبي الله موسى عليه السلام

إذن .. الرحمة هنا بمعنى النبوة وإذا نظرنا إلى هذه الآية نجد كلمة ﴿ءَأَيَّتَهُ﴾ وكلمة : ﴿مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أى : أن الحق سبحانه هو الذى أتاه رحمة من عنده وعلمه علما مباشرا بدون ملائكة ، فكأنه لا حرج على الله أن يختار عبداً من عباده ويعطيه شيئاً من العلم بدون نبوة .

ولا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ أى أن هذا العلم جاء من الله مباشرة للعبد الصالح ، ولم يأت عن طريق اطلاع أو قراءة ، أو عن طريق موسى عليه السلام ولكنه كان من الله إلى العبد الصالح مباشرة ، وبهذا أصبح العبد الصالح فى الأشياء التى علمها الله له يعلم الظاهر والباطن ، يعرف ما هو حادث ويعرف السر وراء الحدث ولكن لا بد أن نتنبه إلى هذه النقطة لأن العبد حين يكون صالحا ، يأخذ من الله فيوضات يأخذها عن طريق ما أمره به رسوله ، وإن كان المأخوذ هناك ليس هو المأخوذ من الرسول ، فالمأخوذ من الرسول هو الحكم الظاهرى الخاص بالتكاليف ، ومخالفة التكاليف إنما الشيء الآخر هو علم وراء الظاهر .

فالرسل يأتون بالأحكام التى أمروا بتبليغها للناس ، بأن يفعلوا كذا وكذا ويمتنعوا عن كذا وكذا فمثلا الرسل يدعون الناس إلى عدم الإعتداء على النفس أو المال ، ولكن هذا العبد سيقتل الغلام ، ويتلف السفينة ، فهذا فى ظاهره مخالف لأحكام الرسل لأن هناك أحكاما أخرى لها علل باطنة فوق الأحكام الظاهرة ، وهذا العبد الصالح كما أخبر عنه النبى ﷺ اسمه الخضر .

ولكن هل هذا الخضر موجود الآن أم أنه مات ؟

قالوا لكل زمان خضره .. ففى كل زمان يعطى الحق سبحانه أحداً من عباده بعض الفيوضات من عنده .

نبي الله موسى عليه السلام ۲۸۶

ولذلك الخضر قال لموسى : أنت لن تستطيع معى صبرا لأنك لا تستطيع أن
تصبر عن شىء لم تعلم خلفياته ومراميه ، فلو أن موسى علم العلة فى خرق
السفينة لبادر هو إلى خرقها .

وانظروا إلى أدب النبوة ، وأدب تلقى العلم ، فمع أن الله تعالى أمر موسى
بالذهاب إلى الخضر ليتلقى عنه العلم إلا أنه يستأذنه بأدب .

﴿ قَالَ لَمَّا مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف] .
﴿ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف] . وَكَيْفَ نَصَبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف] .
فمع أن الذهاب كان بأمر من الله ، كان أدب التلقى من موسى فلم يقل له
أنا سأتبعك لأن الله أمرنى بذلك .. ولكنه استأذنه فى أن يسمح له بأن يتبعه ،
وهذا أدب المتعلم مع المعلم .

ومعنى : ﴿ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الرشد هو حسن التصرف فى
الأشياء ، وسداد المسلك فى علة ما أنت بصدده ، أى تعلمنى سداد التصرف
وحكمة تناول الأشياء وقوله : ﴿ تُعَلِّمَنِي ﴾ تدل على أنه يطلب شىئا لم يكن
معلوما له لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٥] .
وقال الرسول ﷺ ﴿ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِيكَ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

ولذلك الشاعر يتحدث عن النفس المعزورة بما عندها من علم فيقول :

قالت النفس قد علمت كثيرا قلت هذا الكثير نذر يسير
تملأ الكنوز غرفة من محيط فيرى أنه المحيط الكبير

بعد ذلك انظروا إلى الشروط التى يملئها العالم على من يطلب العلم ، قال
الخضر لموسى : أنت مذهبك غير مذهبى وسنختلف وأنت لن تستطيع معى

٢٨٧

 نبى الله موسى عليه السلام

صبرًا - أى لن تستطيع أن تصبر على تصرفاتى لأنك لن تفهم ما وراءها وكيف تصبر على شىء لم تحط به خبرًا أى ليس عندك خبر عنه .
بعد أن قال الخضر لموسى هذا الكلام وحذره من أنه لن يستطيع أن يصبر على ما سيفعله الخضر ، لأنه ليس عنده علم به قال له موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

هذا كلام من يريد أن يتعلم ولا يتكبر على العلم ، فهو يقبل هذه الشروط ولن يجادل أو يعترض على الخضر ، هكذا قال موسى للخضر قبل بداية الرحلة وقدم المشيئة بأنه سيكون صابراً ولن يعصى له أمر ، فكانه أصبح مأموراً .
فهنا الخضر أراد أن يؤكد هذا الكلام مع موسى فقال : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٠] .

أى لا تسألني عن شىء افعله لأننى أنا الذى سأشرحه لك بعد ذلك ، لم يخبره عن هذه الأشياء وقت حدوثها حتى يعلمه ويعلمنا معه أدب تناول العلم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ [الكهف] فانطلقا أى مشيا ثم ركبا فى السفينة فهى سفينة ركاب .

فالخضر لما ركب فى السفينة خرقها ، أى أحدث فيها ثقبا ، يدخل منه الماء ، فاستغرب موسى هذا الأمر مع أنه وعد الخضر بأنه سيطيعه ويتبعه ولن يعصى له أمراً ، إلا أنه لما حدث هذا الأمر أمامه فى الواقع لم يستطع أن يصبر ، وأنكر ذلك الفعل ، فكان الله سبحانه يريد أن يعلمنا أن الكلام النظرى غير الفعل .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٨٨

إن موسى لم يستطع أن يسكت ، حينما وقع أمامه أمر يخالف طبعه وعقيدته ، ولم يسأله لماذا فعلت ذلك فقط ، بل قال له أنت خرقت السفينة حتى تغرق ركابها لقد فعلت شيئًا بشعًا وفظيعةً .

وموسى فعل ذلك واستنكر ما حدث ، لأنه استحضر الحكم الشرعى فى إتلاف مال الغير والتسبب فى إغراق زكاب السفينة ، فشعر بفداحة الأمر ومن هنا كان اعتراضه على الخضر . فرد عليه بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٢] فكأنه يذكره بأنه صدق فيما قاله له من البداية من أنه لن يستطيع معه الصبر فتذكر موسى عليه السلام العهد الذى قطعه على نفسه قبل بداية الرحلة فقال : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴾ . أى : اعدرنى لأننى نسيت ولا تحملنى من أمر اتباعك عسرًا ومشقةً .

ثم سارا بعد ذلك فقابلهما غلام فقام الخضر بقتله ، والجريمة صارت أكبر من الأولى لأن الأولى كانت اعتداء على مال الغير ، ولكن هذه المرة اعتداء على نفس ، والغلام كما نعلم هو الذى لم يبلغ سن الرشد . فموسى استنكر هذا الأمر وقال له كيف تقتل نفسا طاهرة صافية بغير ذنب لقد فعلت فعلا منكرا .

قال تعالى : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٤] .

فهنا رد الخضر عليه برد مختلف عن الرد الأول ، فقال ﴿ أَلَمْ أَقُلْ ﴾ أى : أننى قلت لك : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فالكلام مطابق للحال ،

٢٨٩

 نبي الله موسى عليه السلام :

فاعتذر موسى للخضر بأنه لن يسأله عن شيء بعد ذلك ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف : ٧٥] .

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ .

سار موسى والخضر حتى دخلا إلى قرية من القرى ، وكان أهلها ثامًا لا يكرمون الضيف ولا يحسنون على الفقير ، وصلا إليها وقد بلغ منهما الجوع مبلغًا شديدًا ، فطلبا الطعام من أهلها فرفضوا وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ .

استطعم أى طلب الطعام - وقالوا طلب الطعام أصدق سؤال ، فالذى يسألك عن مال ربما كان يدخر هذا المال ويكنزه ، ولكن الذى يطلب منك طعامًا يأكله ، فهذا أصدق سؤال .

ومعنى : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ أى أنهما طلب الطعام من أهل القرية جميعًا سألوا هذا وهذا ولم يعطهم أحد شيئًا ولم يستقبلهم أحد .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ ولم يقل : فأبوا أن يطعموهما ، لأن الذى حدث أنهما طلبا طعامًا ، ولكن أهل القرية لم يمتنعوا عن إعطائهم الطعام فقط ، ولكنهم رفضوا أن يستضيفوهما حتى بدون طعام ، فهذا منتهى اللؤم والخسة والبخل فلما مرا فى القرية بعد فشلهما فى الحصول على طعام وجدا جدًا يريد أن ينقض أى يوشك على السقوط .

نبي الله موسى عليه السلام

 ٢٩٠

وكلمة : « إرادة » نحن نفهمها للعاقل الذى له إرادة - ولكن ساعة تذكر مع غير العاقل نقول فبدت عليه علامات الميل والتصددع والتشقق الذى ينذر بالسقوط .

هذا هو الكلام السطحي ولكن صاحب العقل المتسع المدرك أن المتحدث هو الله وأن كل شيء فى الكون له حياة تناسبه ولله أن يخاطبه ويرد عليه . ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآقَامَهُ ﴾ . فلما أصلحه ورممه غضب موسى وقال للخضر : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ .

أى كان يجب أن تأخذ منهم الأجر على هذا العمل لأنهم قوم لئام لا يصح أن نعمل لهم عملا بدون أجر فلا بد أن تأخذ منهم الأجر .

فرد عليه الخضر وحسم المسألة بقوله : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُرِيدُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٨] .

كلمة : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ دستور من الله على أن المذهبين لا يلتقيان لأن كل واحد منهما فى طريق وعلى كل واحد منهما ألا يعترض على الآخر ويلزم أدبه .

وقرار الخضر هذا موافق لما قاله موسى قبل ذلك حينما قال له : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ .

والخضر لم يترك موسى يذهب دون أن يشرح له الأشياء التى اعترض عليها إن هذا من أدب الصحبة فما دام واحد اصطحب الآخر فى سفر أو مهمة وسارا معا فمن أدب الصحبة ألا يفترقا على خلاف بل يفترقا على وفاق وتفاهم ، لأن الافتراق على خلاف يوسع الفجوة بينهما ، ولكن التفاهم

٢٩١

 نبي الله موسى عليه السلام

يوضح ما خفى من أسباب على الطرف الآخر ، فإذا عرف الحقيقة فرما ارتاح ضميرة ووضحت أمامه الرؤية وأصبح راضيا عن صاحبه .

وبعد ذلك تناول الخضر الوقائع التي حدثت ليشرحها لموسى فقال : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] .

السفينة كانت مملوكة لمساكين « واللام » لام الملكية .

وهذه الآية حسمت الخلاف بين العلماء حول معنى الفقير والمساكين ، والفرق بينهما ، إن الفقير هو الذى ليس عنده شىء أى لا يملك شيئا . والمساكين : هو الذى عنده ماليس يكفيه لأنهم يملكون سفينة ، ولكنها لا تكفيهم فهم مساكين .

﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مع أنه فى النهاية سيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ﴾ ولكنه نسب المسألة إلى نفسه فقال : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ولم يقل : فأراد الله أن يعيبها فنسب العيب إلى نفسه ولكن عند كنز الفلاحين قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف : ٨٢] ومعنى : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ سَفِينَةٍ ﴾ الغصب : هو أخذ الشىء من صاحبه بالقوة ، أى أنه كان يصادر هذه السفن من أصحابها وما دام يأخذ كل سفينة صالحة ، فالخضر أراد أن يجعل السفينة غير صالحة حتى يتركها لهم الملك .

وكلمة وراءهم هنا تعنى أمامهم لأن السفينة تسير إلى الأمام ، وتمر على هذا الملك الظالم المتسلط الذى يترصد للسفن التى تمر ليصادر الصالح منها ويأخذه لنفسه .

نى الله موسى عليه السلام

يتركهما بلا ذرية فرزقهما غلاما صالحا خيرا منه زكاة يملأ حياتهما بهجة وينسيهما فقد الأبى الأول ورحمة بالغلام بأن توفاه قبل أن يدخل سن التكليف ليُدخل الجنة .

ولو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع لأنهما يعرفان يقينا أن هناك حسبا وبعثا ﴿ وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُعِينًا وَكُفْرًا ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿ .

وأما الجدار الأيل للسقوط ، فكان لغلّامين يتيمين فى المدينة ، وتحت الجدار يوجد كنز يخصهما ، وأهل هذه المدينة لئام وليس عندهم أدنى شىء من المروءة ، بدليل أنهم رفضوا أن يطعموهما ورفضوا حتى أن يؤوهم حتى الصباح ، فلو أن الجدار وقع لظهر الكنز وخطفه أهل المدينة وضاع اليتيمان . إذن .. الخضر حينما أصلح الجدار وأقامه ليستر الكنز ، فقد رد على خسة القوم ولؤمهم ، وانتقم منهم بأن حرّمهم من رؤية الكنز ، والاستيلاء عليه فلو وقع الجدار وظهر بريق ذهب الكنز لأخذه القوم اللئام ولم يبق لليتيمين شىء ، فالله سبحانه أرسل الخضر فى هذا التوقيت الذى يكاد أن يقع فيه الجدار ويظهر الكنز ليصلح الجدار ويحمى الكنز من الضياع .

وقالوا : إن الخضر بنى الجدار بناء موقوتا ، بحيث يظل هذا البناء حتى يبلغ الغلامان رشدهما فقد كان لهذا الجدار عمر افتراضى كما نقول نحن الآن . وبلوغ الأشد ، أى : القوة ومعنى ذلك أن أجهزة تكوينه الإنسانية قد اكتملت ، لأن الإنسان تكتمل أجهرته حينما صبح قادرا على إنجاب مثله . ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿ [الكهف : ٨٢] .

نبى الله موسى عليه السلام ٢٩٤

فالرحمة هنا أن مال اليتيمين يحفظه الله لهما ، ولا يحدث له مكروه .
وما فعلته عن أمرى : أى ليس هذا بذكائى ولا شطارتى ، ولكنه بأمر الله
فهنا الخضر لم يغتر بعلمه ويفخر على موسى لأنه أعلم منه ، ولكنه قال له :
أنا لست أفضل منك أو أعلم منك ، لأن ما أفعله بأمر الله وليس بذكائى
وفراستى ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .



موسى عليه السلام .. وقارون

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَايَاتُهُ مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٦] .

و « البغى » هو تجاوز الحد فى الظلم .. وقارون كان عنده المال الكثير الذى يستطيع بسطوته أن يظلم ويغنى عليهم والبغى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس وإما بالاحتقار أو الازدراء وإما بالبطر عليهم وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بحيثية البغى فيقول : ﴿ وَءَايَاتُهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ .

﴿ مَفَاتِحُهُ ﴾ جمع مفتاح ، فإن كانت بكسر الميم فهو المفتاح الذى يفتح به ، أى : آلة الفتح .

وإن كانت بفتح الميم فهى الخزانة التى يوضع فيها الأشياء .
فإن كانت الأولى يكون المعنى أن مفاتيح خزائن المال التى عند قارون لو حملتها عصابة تنوء بها ... وإن كانت الثانية أى أن الخزائن ملأى لو حملتها عصابة تنوء بها . لأنها كثيرة وثقيلة .

ونحن نقول فلان ناء بالحمل إذا جاء يحمل الحمل على ظهره فجعله الحمل ينخ من ثقله .

ومعرفة خفة الحمل من ثقله عن طريق الفصل فالأثقل يجهد عضلك أكثر من الأخف فتعرف الأخف من الأثقل عن طريق حاسة العضل .

والعصبة هم القوم الذين يتعصبون لمبدأ من المبادئ بدون هوى بينهم والعصبة من ثلاثة إلى عشرة .

موسى عليه السلام .. وقارون

 ٢٩٦

وقد نصحه قومه ألا يغتر بما آتاه الله من النعم . ﴿ إِذْ قَالَ لَعْمُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] .

فهذا نهى عن الفرح ... والفرح هو انبساط النفس لأمر يسر الإنسان ،
وهذا الأمر قد يسر الإنسان لأنه يمتعه أو لأنه ينفعه .

وهناك فرق بين المتعة والمنفعة فالمتعة شيء تنبسط له وتتلذذ به ولا تهتم بما
يحدث لك بعد ذلك ، فمريض السكر ممنوع مثلا من أكل الحلويات والفواكه
والعسل ، ومع ذلك تجده ساعة يأكل هذه الأشياء ويتلذذ بأكلها ، غير عابئ
بما يحدث له بعد ذلك ، فهذه متعة وليست نفعًا .

فما هو الفرح المحظور ؟ الفرح المحظور هو أن تفرح بالمتعة ، لأن الأصل أن
تفرح بالنافع .. فمثلا الولد الذي أعطاه أبوه نقودًا فذهب واشترى لعبة ليلعب
ويتسلى بها ، لكن ولد آخر أخذ النقود من والده واشترى بها مصحفًا
أو كتابا فهذا جعل الله متعته في الشيء النافع بعكس الآخر الذي اشترى
فهذا فرح يصح أن تفرح به وذاك لا يصح أن تفرح به .

فحين يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .
المقصود به فرح المتعة ولكن افرح الفرح النافع .

فلا تفرح فرح متعة لأن الله لا يحب الفرحين الذين يفرحون بالأشياء
انبساطا وقتيا وبعد ذلك يحدث منه الضرر .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان قوم قارون الناصحين له : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا
ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا
أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

٢٩٧

 موسى عليه السلام .. وقارون

أى أطلب بما أنعم الله عليك من الرزق .. اطلب به الدار الآخرة .. لأنك لو انفقته فى ملذات الدنيا سيفنى معك ومع الدنيا .. فأما أن تترك هذا المال بالموت وإما أن يتركك هو بالفقر ، والدنيا لا تدوم على حال .
فإن كنت تحب المال وتعشقه أعمل به شيئاً ينفعك فى آخرتك ، حتى يظل معك دائماً .

ولذلك تروى السيدة عائشة أنهم ذبحوا شاة ، وكان النبي ﷺ يحب لحم الكتف ، فأبقت له فقال لها النبي ﷺ ما بقى من الشاة يا عائشة ؟ قالت ما بقى منها إلا كتفها لأنها تصدقت بها كلها إلا كتفها أبقتة للنبي ، فقال لها النبي ﷺ بقى كلها إلا كتفها فهو ﷺ نظر إلى ما يبقى لا إلى ما يفنى .
فإن كنت تحب المال ولا تريد أن يفارقك ، فاجعله يسبقك إلى الآخرة ، ولذلك قال رسول الله ﷺ يقول : « ابن آدم مالى مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » وكان بعض الصالحين حين يدخل عليه سائل يسأله يقول له مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجره .

وحينما سأل رجل الإمام على كرم الله وجهه وقال له أريد أن أعرف يا إمام هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال له : الجواب ليس عندي ولكن عندك أنت فقال الرجل كيف ؟

قال إذا دخل عليك من تعود أن يهديك هدية ، ودخل معه من تعود أن يطلب منك شيئاً فبمن تفرح ؟

فإن كنت تحب الدنيا تفرح بمن جاءك بهدية ، وإن كنت تحب الآخرة تفرح بمن سيأخذ منك صدقة ، فهذا هو المقياس ، لأن كل إنسان يحب من يعمر له الدار التى يحب .

موسى عليه السلام .. وقارون ۲۹۸

بعض الناس يفهمون قوله : ﴿ وَلَا تَنْسِكْ نِصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ على أنه
حث على أن نأخذ نصيبنا من الدنيا ، مع أن معناها أن العاقل كان يجب أن
ينظر إلى هذه الدنيا نظرة لا تستحق الاهتمام ، فرينا نصح بالعدل حتى
لا ينسى الدنيا ، وقيل نصيبك من الدنيا هي الحسنة التي تظل معك :
﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِكْ نِصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾
أو أن قارون كان بخيلا على نفسه مقترا عليها ، فنصحه الناس ألا يحرم نفسه
من هذا الخير الذي أنعم الله به عليه .

ولذلك قيل إن الدنيا أهم من أن تنسى ولكنها أتفه من أن تكون غاية
فلا تنسها لأنها الوسيلة التي ستأخذ بها الآخرة ولكن لا تجعلها غاية في ذاتها
بل اجعلها وسيلة توصلك للآخرة .

﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يتخلق خلقه بخلقه أى يتخلقوا بأخلاق الله
لأن الله يمدك بالنعم ويعطيك فلا تبخل على الفقير والمسكين وقد نهاه قومه
عن خمس .

الأولى : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

الثانية : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ .

والثالثة : ﴿ وَلَا تَنْسِكْ نِصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ .

والرابعة : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

والخامسة : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

إنها خمسة أشياء لا بد أنهم نهوه عنها ، لأنهم وجدوا من تصرفاته
ما يناقضها ، وبعد ذلك ما كان من قارون إلا أن رد على هذه الخمسة بقوله .
﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ فكانه يقول لا تتدخلوا في هذه الأشياء ،
٢٩٩ موسى عليه السلام .. وقارون

لأن من أعطاني هذا المال علم أنى أهل له ، وما دام أنه علم أنى أهل له فقد
اتتمنى عليه فلا حاجة لنصيحة منكم .

وكلمة ﴿ أُوْتِيْتُمْ ﴾ تدل على أنه فهم أنه جاءه من أين من علمه وخبرته
فقال : ﴿ عَلَيَّ عِلْمٌ عِنْدِي ﴾ أى من الأعمال التى تكسب وتربج فلنصدق
جدلا أنك أوتيته على علم فهو كان مشهورًا بأنه حسن الصوت فى قراءة
التوراة وكان حافظا لها وكان حسن الصورة إذن فهو على صلة بالتوراة وهذه
الصلة معروفة .

إذن .. فما دمت أوتيته على علم ، فلم لم يفدك هذا العلم فى أن الله أهلك
من هو أحسن منك ؟ فكان الأجرى بك ألا تفوت عليك هذه .
فلو كان عنده علم حقيقى كان لا بد أن يعلم هذه الحقيقة .

﴿ أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [الشعراء : ٧٨] .

كلمة جمع مرة تكون مصدرًا ومرة تكون اسما للجماعة كأن له عصبية
كبيرة جدا أو جمع مصدر أى جمع للمال فهى تصلح لجمع المال أو جمعًا
للعدد والناس .

وبعد ذلك قال : ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .
فما علاقة : ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ هذه ؟
أى لا يأخذه بانذار ، بل يأخذه على غرة فلا يقول له يا قارون أنت فعلت
كذا وكذا وسأخسف بك الأرض لن يقول ذلك - لأن هذا معلوم لديك وأن
الحيشيات التى فعلتها من البداية كقيلة بأن تفاجئك وذلك حتى يعلم أن
الخسف يمكن أن يأتى له فى أى وقت بعد أن قال ذلك وحصل الرد وقالوا له

موسى عليه السلام .. وقارون .. ٣٠٠

أفعل كذا وكذا لم يستجب وكان فرحاً فخوراً وكان أيضاً باغياً للفساد
فخرج كمن يخرج لسانه للناس سخريه منهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ .

ولك أن تتخيل قارون يوم زينته .

وذكر العلماء هذه الزينة بعدة آلاف جارية وفرس ، وهذه مسألة ينقصها
الدليل ، فلما خرج في زينته انبهر الناس وانقسموا قسمين .

البعض قال : ياليت لنا مثله ، وهم من أخذهم بريق الزينة وزهو النعمة
وترف الحياة ، فأخذت بشريتهم وراءه ومدوا أعينهم إلى ما هو فيه قال تعالى .

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ

إِنَّهُ لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴾ ولذلك حذرنا الله بقوله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ

اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٣٢] .

إن كل واحد يأخذ ما قدر له لأن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، لأنه
سبحانه ليس له صاحبة ولا ولدًا فكل الخلق لديه سواء ... أعطى لهم
مجموع كل فرد يساوي مجموع الفرد الآخر ، ولكن هذا حصل على عشرة
على عشرة في القوة ، وتانى في الذكاء ، وثالث في الصحة ، فلكل واحد
درجة لماذا ؟

لأن حركة الحياة تتطلب أفعالاً شتى ، وليس من الممكن لنفس واحدة أنها
تقوم بكل الأعمال .

فإذا وجدت أحدًا متقنًا في مهنة ما ، فاحمد الله لأن حسنه سوف يعود
عليك أنت ، وربما قد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، وادع له بالتوفيق كي
تسير الأمور .

٣٠١ موسى عليه السلام .. وقارون

ولكن الله لا يخلى الناس من أهل الحق فماذا قالوا ؟
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] .
ولذلك قال الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا
فلم يدع المولى عز وجل من أرادوا الحياة الدنيا يشككون الناس فى قدر الله
ويجعلونهم يتمردون على مشيئة الله ويقولون : لماذا قارون عنده كل هذا
ويكفروا بالله ويجحدوا نعمته ، وهؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا لم يظفروا
بمجرد سطحية العلم ولكن الذين أوتوا العلم عملوا مقارنة فالدنيا عندهم
عمرها بمقدار عمر الفرد فيها والعمر موقوت فإن أردت الاختيار أفتراه فى فانية
أم فى باقية ؟ لا بد أنك ستختار الباقية وتعمل لها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ﴾ أى أنكم بتفكيركم هذا وتمنيكم
أن تكونوا مثل قارون تستحقون الهلاك لماذا ؟ لأنكم تمردتم على قدر الله فى
ذواتكم وحققتم وحسدتم عليه فى نعمته فأنتم لكل الويل - أما إن أردتم
الآخرة - فتواب الله خير من دنيا قارون لأنكم أنفسكم لمتموه فى أشياء
خمسة فقد شجبتكم تصرفاته أى لا ترضونها فكيف يكون منكم ذلك ثم
تقولون يا ليتنا نكون مثله ؟

﴿ وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى : أنه لا يلقى قضية العلم فى أنه لا يقبل
الحياة الدنيا ويقبل ثواب الله لأنه خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها
إلا الصابرون . ﴿ وَمَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُفْلِحُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ
عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] .

موسى عليه السلام .. وقارون

ما هو الصبر؟ الصبر هو احتمال ما يؤذى فى الظاهر ولكنه ينعم فى الباطن
هذا هو الصبر وله مراحل :

الأولى : صبر على مشقة الطاعة .

الثانية : صبر النفس على شهوة المعصية أى صبرك على نفسك .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ [الفصص : ٨١] .

وخسف الأرض يكون بانشقاقها ثم ابتلاعه هو وداره التى فيها كنوزه ، فلم
ينفعه شىء كما لم يغن عن قبله أحد ، رغم كونهم أشد قوة وأكثر جمعا ،
لم ينتصر لنفسه بذاته ، ولم يجد قوما ينتصرون له مما يدل على عدم وجود
عصبية له .

﴿ وَيَكَاذِبُ اللَّهُ بِيَسْطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾

« وي » هذه تفيد الندم أو للتعجب أحيانا .

فعندما قالوا : ﴿ يَنَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ ثم تركوا قارون وداره
بعد الخسف قالوا « وي » أى أنهم نادمون على ما قالوه فهم يخطئون أنفسهم
لماذا ؟ كأن الله فى رزقه حكم وقدر .

يسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره لمن يشاء ، وليس بسط الرزق دليل الكرامة
فقد خسف الله به وبدار الأرض وليس قلة الرزق دليل الإهانة وقد تعرضت
لها سورة الفجر ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي
أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر] .
إذن .. لا إتياء المال دليل كرامة ، ولا سلبه دليل إهانة ، وكل شىء له قدر
بل لحكمة فى البسط وحكمة فى القدر .

أو لم تتمنوا مكانه فلم تجعلوا مع أمانيتكم أن تذهبوا معه ؟

لكنهم يعترفوا بأن الله من عليهم ﴿ تَوَلَّآ أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ
لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] .

« وي » هنا بمعنى التعجب ، وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه بقضية عامة ،
لكي يفصل في هذه المسألة ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَاهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوقًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

ويروى أن موسى عليه السلام بعد أن أذن الله له وأمر الأرض أن تطيعه دعا
عليهم قائلاً : « يا أرض خذهم » ، فأخذتهم إلى أقدامهم .

ثم قال : « خذهم » ، فأخذتهم إلى ركبهم

ثم إلى مناكبهم .

ثم قال : « أقبلي بكنوزهم وأموالهم » ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها .

ثم أشار موسى بيده فقال : « اذهبوا بني لاوى » ، فاستوت بهم الأرض ،
وخسف بهم إلى الأرض السابعة ، وضح عن النبي ﷺ أنهم يخسف بهم
كل يوم إلى يوم القيامة ^(١) ؛ ﴿ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

وقد قص الله تعالى تلك القصة ؛ حتى يعلم الناس أن أحداً لن يفلت
من عذاب الله تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأنه : ﴿ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] ، وأن ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١]
ولن تغنى عنهم أموالهم ولا قوتهم من الله شيئاً .

وحتى يعلم كل ظالم أنه ليس له من الله ناصر : ﴿ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ،
و ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] وهى دار القرار ،

(١) أخرج البخارى [٥٧٩٠] عن سالم بن عبد الله أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ
قال : « بينا رجل يجر إزاره خُسْف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

موسى عليه السلام .. وقارون

وهي التي يغبط من أعطيها ، ويعزى من حرما ، وأنها معدة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسَكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

علينا أن نعرف أنه حينما نلتقى بقول الحق : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فإننا نفهم منه هنا : شبه القسم ، إن الحق سبحانه وتعالى يقسم بالقول الفصل ، لقد أعطى موسى الكتاب وهو التوراة ، وأرسل من بعده الكثير من الرسل لبنى إسرائيل ؛ لعلهم يهتدون إلى الحق ، ونحن نعلم أن التوصل إلى الحقائق يتم بثلاث وسائل :
الوسيلة الأولى : هي إقرار صاحبها على نفسه .

والوسيلة الثانية : هي الشهادة من غيره عليه .

والوسيلة الثالثة : هي القسم .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقرر لنا بالوسائل الثلاث في آن واحد استيفاء كل أركان تقرير الحقيقة^(١) .

إن موقف بنى إسرائيل من رسالة موسى ، يتمثل مع موقفهم من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لقد وقفوا مع موسى عليه السلام موقف التعنت

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسَكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها ، وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبين من بعده الذين يحكمون =

٣٠٥ موسى عليه السلام .. وقارون

وضيق الأفق والتلكؤ ، ومحاولة الابتعاد عن تطبيق منهج الله بكل السبل ، وبحيل إطارها الغباء ، وضيق الأفق ، ومادية الرؤية ، وعدم القدرة على استيعاب الحقائق التي أرادها الله ؛ هداية للإنسان فى الكون ، وبعد أن يقرر الحق الموقف المتعنت من بنى إسرائيل ، يقول سبحانه : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ [البقرة: ٨٧] أى أنه أرسل لهم الرسل تباعا ، بعضهم خلف بعض ، أى أن الحق لم يرسل إليهم موسى عليه السلام فقط ، ولكن أرسل إليهم أيضاً رسلا وأنبياء؛ ولنا أن نعرف أن كثرة الأنبياء الذين بعثهم الله لبنى إسرائيل ليست شهادة لهم ، ولكنها شهادة عليهم ، إنهم يتفاخرون بغاء فى الاستدلال على أن الحق اختصهم بالكثرة من الأنبياء ، وهم ينسون أن الحق لا يبعث الأنبياء ولا يرسل الرسل ، إلا لإبراء البشرية من أدوائها ، فكلما كثر الرسل والأنبياء إلى قوم ، دل ذلك على أن تلك الأدواء متأصلة فيهم ، بحيث لم يكف فيها طيب واحد ، وكان من رحمة الله وحكمته أن أرسل لهم هذه الكوكبة من الأنبياء ؛ وذلك حتى يقطع عنهم الحججة بأن هناك فترة من غفلة . أن الحق تبارك وتعالى أرسل إليهم من الأنبياء والرسل : يوشع ، واشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، واشعيا ، وارميا ، وحزقييل ، والياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ابن مريم ، عليهم السلام .

إنه موكب طويل من الرسل أرسلوا إلى بنى إسرائيل من بعد موسى . وهكذا لا نجد فترة من الزمن من بعد موسى وحتى عيسى عليهم السلام قد خلت من

= بشريته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخْتَكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبِيِّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ [المائدة : ٤٤] الآية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ .

تفسير ابن كثير [١١٦-١١٧] .

موسى عليه السلام .. وقارون **306**

رسول أو نبي ، وكما نعلم أن أى نبي لا يذهب إلى قومه متطوعا ، إنما نبيا ومرسلاً من قبل الحق جل وعلا ، والفرق بين الرسول والنبي هو فرق الكلام العقدي ، ومعنى ذلك هو أن النبي لا يأتي بتشريع جديد ، ولكنه مرسل أيضا من قبل الحق ؛ ليكون قدوة للناس ، والرسول هو نبي أرسله الحق بتشريع للناس يوضح لهم سبل الهداية ومنهج الحق جل وعلا^(١) ، وفى ذلك يقول الحق جلا وعلا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٥٥ ﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ٥٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ٥٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ٥٨ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ٥٩ ﴾ [الأنبياء] .

إن الحق جل وعلا يخبر نبيه الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام ، أنه لا يرسل رسولا إلا بالوحى إليه ، أن يبلغ قومه بأن الخالق الأكرم هو وحده المستحق للعبادة؛ ذلك أن بعضا من كفار العرب ، وبعضا من بنى إسرائيل؛ قد زعموا أن الحق قد اتخذ ولدا ، وزعموا أن الملائكة بناته ، وتنزه الحق جل وعلا عن أن يكون له ولد ، وتنزه الحق جل وعلا أن يكون الملائكة بنات له ؛ بل الملائكة عباد مكرمون بالقرب من الله والعبادة له ، ولا يسبقون الحق بقول إلا بعد أن يأذن لهم ، وهم بأمره وحده يعملون ، ولا يتعدون حدود

(١) قال الشيخ الحكيمى فى معنى الرسل : وهم كل من أوحى إليه ، وأمر بالتبليغ ، أما من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط ، وليس برسول ، فكل رسول نبي ولا كل نبي رسول . معارج القبول [٦٧٥/٢ ، ٦٧٦] .

ما يأمرهم به الحق جل وعلا^(١) ، يعلم كل أحوالهم وأعمالهم ، وهم فى خشية دائمة من الحق وتعظيم دائم له ، والرسول أيضا من البشر يصطفيهم الله ، لا أحد فيهم يزعم أنه ابن الله ، بل الرسل عباد مكرمون ، يدعون إلى عبادة الحق ويبلغون أقوامهم رسالة الخالق الأكرم ومنهجه .

إذن .. فكل من النبى والرسول مختار من قبل الحق . ومرسل من قبل الحق ، النبى مرسل بالأسوة الحسنة والقدوة ، وتطبيق المنهج الحق الذى جاء به الرسول من قبل ، والرسول مرسل من الحق لإبلاغ منهج حدده له الله تعالى .



(١) عن قتادة رضى الله عنه قال : قالت اليهود : إن الله عز وجل صاهر الجن ، فكانت بينهم الملائكة ، فقال الله تكذبياً لهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى الملائكة ليس كما قالوا ، بل هم عباد أكرمهم الله بعبادته ﴿ لَا يَسْتَفْتُونَكَ بِالْقَوْلِ ﴾ يثنى عليهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ ﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ ﴾ قال : لأهل التوحيد .

الدر المنثور [٦٢٤/٥] .

وقال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ نزلت فى

خزاعة ؛ حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم .

تفسير القرطبي [٢٨١/١١] .

موسى عليه السلام .. وقارون

نبي الله يوشع عليه السلام^(١)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ نَبْعَثَ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

(١) هو يوشع بن نون بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب - وهو إسرائيل - بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . ذكر ذلك في الطبري في تاريخه [٣٦٤/١] وذكر أنه فتى موسى عليهما السلام . وهو أحد الرجلين الذين ذكرا في صورة المائدة : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [المائدة : ٢٣] . ذكر ذلك القرطبي في الجامع لأحكام القرآن [١٢٧/٦] والطبري في تاريخه [٤٣٠/١] . وهو الذي بعثه الله لبنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهم السلام . وهو الذي دخل بنى إسرائيل قرية الجبارين - أريحا - لحرب من فيها ، قيل : في حياة موسى عليه السلام . وقيل : لم يسر يوشع إلى أريحا ولا أمر بالسير إليها إلا بعد موت موسى بن عمران ، حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين ، وقالوا : مات موسى وهارون جميعاً في التيه قبل خروجهما منه ، وكان بنو إسرائيل قد لبثوا في تيههم أربعين سنة ، وناهض يوشع بمن بقي معه منهم مدينة الجبارين ، فقاتلهم يوم جمعة قتالاً شديداً حتى أمسوا وغربت الشمس ، ودخل السبت دعا الله أن يرد عليه الشمس ، فردت عليه ، فزيد له النهار يوماً ساعة فانهزم الجبارين . ومات عليه السلام وله من العمر ستة وعشرون ومائة سنة . وتديره أمر بنى إسرائيل منذ توفي موسى إلى أن توفي يوشع عليهما السلام سبعمائة وعشرين سنة .

تاريخ الطبري [٤٣٥/١] وما بعدها] .

نبي الله يوشع عليه السلام ٣٠٩

لقد اجتمع الملائكة من بنى إسرائيل وقالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل معه فى سبيل الله ، وكلمة ملائكة : تعنى ازدحام الإناء بحيث لا يكون فيه مكان يتحمل زائداً ، أى أن الظرف قد شغل بالمظروف شغلا لم يعد يتسع لسواه ، وتطلق كلمة الملائكة^(١) على أشرف القوم ووجوههم^(٢) ، الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يزاحمهم فى ذلك أحد .

إن أشرف هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور ، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكا ، يقاتلون تحت إمرته^(٣) هؤلاء القوم من بنى إسرائيل المجتمعين عند نبيهم ، جاءوا بالعلة الموجبة للقتال ، لقد أخرجوا من ديارهم فلماذا قال نبيهم لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ إن نبيهم يعرفهم ؛ لذلك يحذرهم ويخشى إن كتب الله عليهم القتال ، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون ، فماذا كان جوابهم : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ

(١) الملائكة : الأشراف . ذكره الشوكانى ، وأورد عن الزجاج قوله : سموا بذلك لأنهم ملبعون بما يحتاج إليه منهم .

(٢) وجوه القوم : سادتهم ، واحدهم : وجه وكذلك وجهاؤهم ، واحدهم : وجيه . لسان العرب [١٣/٥٥٦] .

(٣) قوله تعالى : ﴿ لِيَتَوَكَّلْ اللَّهُ ﴾ قيل يوشع بن نون ذكره قتاده عن عبد الرزاق . وذكر ابن كثير عن الطبرى أن هذا القول بعيد ؛ لأن عليه السلام بدهر طويل ، وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصر به فى القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة . وقال وهب بن منبه : بأنه شمويل ابن بالى ابن علقمة . ويقال له : شمعون . وبه قال السهيلي فى « التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام [ص : ١٨] ، وانظر تفسير ابن كثير [١/٢٨٤] .

أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَانَا ﴿١﴾ ولنا أن نلاحظ الدقة فى اللفظ القرآنى ؛ لتعلم سعة عطاء الله ، لقد قالوا : ﴿ نَقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهم خلطوا هذا القتال فى سبيل الله بالأسباب الموجبة للقتال ، وهى أنهم أخرجوا من ديارهم وتركوا أبناءهم ، وهم إما أسرى فى أيدي الذين أخرجوهم وإما عبيد . ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة ؟ لماذا قال عن هؤلاء أنهم : ﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؟ لقد قص الله علينا خبر هذه القلة ؛ لنعرف قيمة الثبات على التعاقد الإيمانى ، إنه الاستثناء المطلوب للتنبيه ؛ وذلك حتى يعلم المؤمن حينما تنحسر الجبهة عنه ، فلا يقل : إنى قليل لماذا ؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتال فى سبيل الله ، فإن له رصيذاً ضخماً من القوة متمثلاً فى إيمانه بالإله القوى القادر ، وذلك عكس عدوه الذى لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان ، فحتى هذا العدو لو كان كثير العدد والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن الله ، وقرأ قول الحق تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَا مَنَّ فِتْحَةً قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَا ذُنَّ اللَّهِّ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا ﴾ أخرجهم العمالة : جالوت وقومه .

تفسير ابن كثير [٢٨٤/١] .

وقال الطبرى : كانوا قد وطنوا بلاد بنى إسرائيل وقتلوا رجالهم وسبوا ذراريهم ، وضربوا عليهم الجزية وأذلواهم ، وغلبوهم على الثابت الذى فيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وبه كان بنو إسرائيل ينصرون على عدوهم إذا لقوه . تاريخ الطبرى [٤٦٧/١] .

٣١١ نبي الله يوشع عليه السلام

إن القلة المؤمنة التي تعرف أنها سوف تلقى الله ، تؤمن أن النصر ليس بالقلة ولا بالكثرة ، ولكن النصر من عند الله .

إذن .. فالشيء يكون واحداً ، لكن النظرة إليه تختلف من إنسان لآخر على قدر الرصيد الإيماني .

وهكذا الأمر في المعارك .. فهناك من يرى العدو كثيراً ويرى نفسه ومن معه قليلاً ، وهناك من يحسب نفسه على أنه مع الله فلا ترهبه كثرة العدو أو عدده أو عدته .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

إذن .. فالتولى والإعراض ظلم للنفس ، ومعنى الظلم أنك تنقل حقاً لغير صاحبه ، إنهم أخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال ، فظلموا أنفسهم ، وظلموا أولادهم ، وظلموا مجتمعهم ، وظلموا القضية العقديّة .

وهؤلاء الذين تولوا هم يقومون بالتخذيل^(١) المستتر وقتل الروح المعنوية ، والذين يطلق عليهم في العصر الحديث : « ملطابور الخامس » . الذين يشبطون الروح المعنوية ، دون أن يراهم أحد ، ولكن الله يعرفهم ، وهو سبحانه عليم بهم . لقد طلب القوم - من بنى إسرائيل - من نبيهم أن يبعث لهم ملكا وكان يكفى النبي أن يختار لهم الملك ؛ ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم كعادتهم في التلكؤ واللجاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين^(٢) .

كيف ؟

(١) خذله وخذل عنه يخذله خذلاً : ترك نصرته وعونه . والتخذيل : حمل الرجل على

خذلان صاحبه وتثبيبه عن نصرته . لسان العرب [٢٠٢/١١] .

(٢) يقول ابن كثير وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة

وقول معروف . تفسير ابن كثير [٢٨٥/١] . =

نبي الله يوشع عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) [البقرة : ٢٤٧] .

إنهم يريدون الوجاهة والحسب والأصل والمال ، إنهم يسألون النبي المرسل إليهم أن يسأل الله أن يعث لهم ملكاً ، فيقول لهم نبيهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

= وفي موضع آخر في قصة البقرة : أخبر تعالى عن عنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ؛ ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع - - - - - . عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . ا. ه .

تفسير ابن كثير [١٠٥/١] .

وهذه هى عادة بنى إسرائيل فى كل أمورهم ، يقول الله عز وجل وهو أعلم بقلوب عباده توبيخاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) قال الطبرى : اسم طالوت بالسريانية شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت بن أفيح ابن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

تاريخ الطبرى [٤٧٥/١] .

وقال البغوى : كان دباغا يعمل الأديم . وقيل كان سقاء يسقى على حمار .

معالم التنزيل [٢٩٧/١] .

نبي الله يوشع عليه السلام ٣١٣

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴿١﴾ . إن النبي المرسل يريد أن يطمئنهم إلى أن اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو ، إنما أمر الاختيار جاء من عند الله ؛ إن النبي المرسل إليهم ينحى بشريته عن هذا الأمر ، لكنهم يدخلون في الجاجة والتلكؤ ؛ فيقولون : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ .

لقد دخلوا في مثل هذه اللجاجة ؛ لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين : القسم الأول : هو نسل يأخذ النبوة ، وهذا القسم الذى يأتى من نسل بنيامين .

القسم الآخر : يأخذ الملوكية ، وهو الذى يأتى من نسل لاوى ابن يعقوب . لما عرفوا أن الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم ، بدأوا فى النظر فى صحيفة نسبه ، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء ، فبدأوا فى اللجاجة والتلكؤ ومحاولة رد الأمر على الأمر .

فالذى بعثه ملكا هو الله ، وهو أدرى بمن يناسب الموقف ، وهذا يدلنا على أن الله يعلمنا أنه حين نريد الإختيار لرجل فى مهمة ، فإياك أن يغريك حسب

(١) قال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ ﴾ أى اختاره وهو الحجة القاطعة ، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت ، وهو بسطته فى العلم الذى هو ملاك الإنسان ، والجسم الذى هو معينه فى الحروب وعدته عند اللقاء ؛ فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم وفضائل النفس ، وأنها متقدمة عليه ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته ، وإن كانوا أشرف منتسبا .

تفسير القرطبي [٢٤٦/٣] .

نبي الله يوشع عليه السلام ٣١٤

الرجل ونسبه أو جاهه ، ولكن اختر الرجل القادر على قدر المهمة والرجل اللائق بها ، وكأن الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة .
إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة ؛ لأنه أهل الثقة قد تنقصهم الخبرة ، فلا يصلون للمهمة بل يفسدون بها . والقضية التي نحن بصددتها الآن تثير سؤالاً : أستم أيها القوم تطلبون ملكاً لكم ؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم في الحرب إلى النصر ؟ إن هذه المهمة تحتاج صفتين :

الصفة الأولى : أن يكون الرجل جسيماً .

الصفة الثانية : أن يكون الرجل عليماً . والذي اختاره ملكاً لهؤلاء القوم ، إنما كان يتمتع بالصفتين في آن واحد ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ .

ولنا أن نتأمل دقة القرآن الكريم ، تلك الدقة المتناهية في أداء الكلمة للمعنى وفي تصوير الموقف الذي أراد الحق إبلاغه للخلق ، لقد قال النبي المرسل لهؤلاء القوم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وكلمة : ﴿ بَعَثَ ﴾ لا تجرح مشاعر هؤلاء القوم ، ولا تفيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم ، لكن بعد أن ردوا بلجاج وغطرسة وقالوا : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ ﴾ هذا هو قولهم وهو ناشئ عن عدم فهم لطبيعة المهمة التي أرسل لها طالوت ملكاً ؛ لذلك كان الرد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ .

يريد نبيهم أن يكسر موجة عنادهم لاصطفاء الله لطالوت ملكا ، فيخبرهم
 بآية حسية تدل على اصطفاء الله لطالوت ، وأنه الصالح لهذه المهمة ؛ مهمة
 الملك قال لهم : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ
 سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهَا
 الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨]
 وما دام الحال قد وصل إلى العناد عند استقبال أمر طالوت ملكا ، فإن الحق
 يأتي بالمعجزة التي تؤكد اختيار الله له ملكا ، والمعجزة أن هناك آية لملك
 طالوت . لقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبا اختيار طالوت
 بأدب ودون لجاج ؛ لأن الذي يحمل لهم نبا الاختيار هو نبيهم الذي وثقوا به
 ولجأوا إليه ، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب .

ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسله من الحق سبحانه
 وتعالى ، إنها الآية الربانية التي تدل على صلاحية طالوت للملك باختيار من
 الله ، تلك الآية هي : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ
 سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل :
 المسألة الأولى : إن التابوت كان غائبا مفقودا .

المسألة الثانية : إن التابوت كان أمره معروفا لكل هؤلاء القوم

المسألة الثالثة : إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت .

فما هو التابوت ؟

إنه التابوت الذى جاء فيه قول الرحمن : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا
 يُوحَىٰ ۖ أَنْ أَعِذِي فِي التَّابُوتِ فَأَعِذِي فِي آلِي ۖ فَلْيَلْجِئِ إِلَيْكُمْ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ
 لِي وَعَدُوُّ لَكُمْ ... ﴾ [٢٦٩] .

نبي الله إلياس عليه السلام ٣١٦

فالتابوت^(١) الذى جاء آية لملك طالوت ، هو التابوت الذى أوحى الله إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها ، وتلقيه فى اليم ؛ ليلقه اليم بالساحل ، وهو الصندوق الذى كانت به التوراة .

وما الذى كان فى هذا التابوت ؟

يقول تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ .

وكيف يأتى ؟ يقول تعالى : تحمله الملائكة .

إذن .. مادام التابوت يحمل تلك الآثار ، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بما يحمله من آثار آل موسى وآل هارون ، ومادام هذا التابوت يأتى وتحمله الملائكة ، فلا بد أن أمره جليل وله مساس بأمر العقيدة ، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا ؛ ليدلنا على أنه كان مفقودا من بنى اسرائيل ، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم ، وحاول اقتناص المقدسات التى كانت فى بلادهم ،

(١) قوله : ﴿ التَّابُوتِ ﴾ : هو صندوق من الخشب الشمشار فيه صور الأنبياء . نقله البلنسى عن ابن عطية ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . وجود صور الأنبياء فيه يعنى قبل تحريمها فى شرعنا . أنظر زاد المسير [٢٥٨/١] .
قوله : ﴿ سَكِينَةٌ ﴾ : هو تسكين قلوبهم . وقيل : روح من الله كان يتكلم فيما يختلفون فيه ، وقيل : طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء ، أعطهاها الله موسى عليه السلام ، فوضع فيها الأواح . وقيل غير ذلك كما هو وارد فى كتب التفسير ، انظر تفسير ابن كثير [٣٢٣/١] ، الدر المنثور [٣١٧/١] ، زاد المسير [٢٥٩/١] وغيرها .

قوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾ : هى لوحان من التوراة ورضاض ما تكسر منها . وقيل : عصا موسى ونعلاه ، وعصا هارون وعمامته أورد هذين القولين ابن الجوزى فى

زاد المسير [٢٥٩،٢٥٨/١] .

نبي الله يوشع عليه السلام ٣١٧

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَالِكِينَ ﴿ [البقرة: ٢٥١] . وتحقق أمر الله ، وانتصر المؤمنون ،
وانهزم جيش طالوت وقتل جالوت .

○ ○ ○

نبي الله إياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٣٦] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٣٨﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٤٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٤١﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٤٢﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِيلَاسِينَ ﴿١٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٤﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ [الصافات] .

إن الياس وآل ياسين علم على مسمى واحد أى أنهما اسم لنبي واحد .
وهو إياس النشبي بن العازر بن هارون ابن لاوى ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى حثهم وحضهم على تقوى الله والخوف منه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أى تعبدون بعلا وهو صنم لا ينفع ولا يضر وتتركون الإله الحق أحسن الخالقين ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فهذا موجز رسالته لم يتعرض لحكم من الأحكام ولكنه جاء لينقى العقيدة الأم مما شاب قمتها ، وهى : العبادة ، فإذا ما صحت هذه العبادة صدر عنه من التكليف ما يناسب تصحيح هذه العقيدة فى نفوسهم ، إن موكب الرسالات منذ آدم . إنما جاء ليصحح صلة المخلوق بالخالق فأثبت للمخالق أولاً أنه هو العليم والقادر والحكيم والواحد وهو الذى خلقك وأنعم

نبي الله إياس عليه السلام ۳۲۳

عليك حتى تتلقى أوامره برضا وتقبل عليها باطمئنان فإن لم تكن جزاء على ما قدم لك من نعم خلقها لك قبل أن توجد فليكن خوفاً منه لأنك ستعود إليه . إن الحق سبحانه واجب الوجود ويعطيك وجوداً ، لكنه لا يدوم وليس له موعد محدد ينتهى فيه كذلك هو قادر فيعطيك قدرة ولكنها قدرة موهوبة منه ويسلبها عنك فتمرض وتذهب قدرتك وهو حكيم فيعطيك حكمة تزاوّل بها الأشياء ، ويعطيك قهارية تزجر بها الذين تحت تصرفك حتى يستقيموا فى أمورهم ويعطيك رحمانية حتى تحنو بها على اليتيم والصغير والضعيف والمسكين . لذلك يحذر الله الإنسان أن يفهم أنه أصيل فى الوجود بل عليه أن يفهم دائماً غير أصيل فى الوجود هو خليفة لله فى الأرض فكما توكل إنساناً فى عمل فاعتبر نفسك وكياً فقط لا أصيل فى هذا الكون لأنك لو اعتبرت نفسك أصيلاً ستضيع نفسك وتضيع الدنيا معك ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ [العلق] . لقد ضربنا بذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، قلنا الولد حينما يكون محتاجاً لأبيه ويأخذ منه مصروفه كل شهر لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر حين يأخذ المصروف ، فالذى جعله يود أبيه هى الحاجة ، فلو أعطى مصروف الشهر كله قد لا يهتم رؤية أبيه فى فترات متقاربة .

إذن .. يجب أن نفسر فلسفة الحاجات التى تعوز النفس لأنها التى تجعلك تلجأ إلى ربك ، ولذلك الإنسان لا يلجأ إلى الله بحق إلا إذا احتل شىء عنده ولم يجد غير الله ، لكن حين تكون عنده النعمة نادراً ما يذكر الله ويلجأ إليه، فماذا كانت نتيجة دعوته لقوم ؟ ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ .

نبى الله إلياس عليه السلام ۳۲۴

كشأن كل قوم يأتيهم رسول ليهديهم ويخرجهم من الظلمات والفساد
الذى هم فيه إلى النور والهداية لماذا ؟

لأن الفساد الذى هم فيه ينتفعون به ، فالسادة والكبراء يخدمهم الأتباع ،
فهم يمتصون دماءهم وعرقهم ليستفيدوا به لمصلحتهم منهم يستفيدون من
استمرار الفساد فالذى يتصدى للرسول هم السادة الذين يأخذون خيز الضعفاء .
﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

كلمة : ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى موقوفون ومعرضون على الله يوم الحساب
فلا تظنوا أنكم هربتم من الله أو أفلتم من يده ، لأنكم ستقفون بين يديه
وتنالون جزاءكم ثم يقول تعالى : ﴿ سَلِّمُوا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ،
﴿ سَلِّمُوا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، كأن الإحسان فرع للإيمان فهو
ما كان محسناً إلا لأنه كان مؤمناً .



نبي الله حزقيل عليه السلام (١)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

(١) هو حزقيل بكسر الحاء بن بوذى بن المعجوز ، وهو الذي أقامه الله على أمر بني إسرائيل بعد كالب بن يوفنا الذي خالف يوشع بن نون ، لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضيين وأمور الأمم السالفة في ذلك . وهو الذي أصاب قومه الطاعون ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ . انظر تاريخ الرسل والكلوك للطبري [٤٥٧/١] وما بعدها ، والمعارف لابن قتيبة [ص : ٥١] وجامع البيان [٥٨٦/٢] . وغيرها .

[٣٦٣٩٥٨٢] روى ذلك ابن جرير عن السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ . تاريخ الرسل والملوك للطبري [٤٥٨/١] . وأورد السيوطي في الدر المنثور [٣١١/١] القول الأول : أنهم فروا من جهاد فرض عليهم ، رواية عن ابن عباس .

وعن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال : « الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل ، أو على من قبلكم . فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه » . أخرجه البخاري [٥٧٢٨] ، ومسلم [٩٢/٢٢١٨] واللفظ له ، وأحمد في المسند [٢١٣/٥، ١٨٢/١] .

ولا يعني هذا أنه لا يصاب به المسلم ، وإنما هو وباء على أنواع يجب الاحتراز منه ، وصح عنه ﷺ « الطاعون شهادة لكل مسلم » أخرجه البخاري [٥٧٣٢، ٢٨٢٩] .

نبي الله حزقيل عليه السلام ٣٢٦

منه ؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر الله . وقد يقول قائل : لماذا لم يتركهم الله ليموتوا إلى أن يأتي البعث يوم القيامة ليحاسبوا ؟
نقول لمثل هذا القائل : لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة في أكرم كتاب حفظه الله منهجا للناس ، وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة . يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر ، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفهم^(١) . ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقاً ، فلا يخاف أحد الموت في سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون في سبيله أن القتال لا يقدم أجلاً ، ولا يؤخر أجلاً ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة .
وها هو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باق ليعرفه كل مؤمن :
« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء »^(٢) .

(١) الحتف : الموت ، وجمعه : حتوف . وقول العرب : مات فلان حتف أنفه ، أى : بلا ضرب ولا قتل ، وقيل : إذا مات فجأة . قال أبو عبيد : هو أن يموت موتاً على فراشه ، من غير قتل ولا غرق ولا سبع ولا غيره . وقال ابن الأثير : هو أن يموت على فراشه ، كأن سقط لأنفه فمات ، والحتف الهلاك . لسان العرب [٣٨/٩] .
(٢) قال ابن كثير : روى الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : لما حضرت خالداً الوفاة بكى ، ثم قال : لقد حضرت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

البداية والنهاية [١١٧/٧] .

نبي الله حزقيل عليه السلام

إذن .. أمر الحياة والموت ليس مرهونا بقتال أو غيره ، إنما محدود بمشيئة الله
وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

إن الفضل أن تتلقى عطاء يزيد على حاجتك ، والحق سبحانه وتعالى لا يعطى
الناس فقط على قدر حاجتهم ، إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجتهم ، بمعنى
لو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم بوباء أو بعدوا ، لكان هذا
الموت فضلا من عند الله ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء وهذا فضل
من الله ، ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل الله لنالوا الشهادة أيضا ،
وذلك فضل من الله .



نبي الله اليسع عليه السلام

ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٨] .
ذكر ابن إسحاق عن الحسن قال : كان بعد إلیاس اليسع عليهما السلام فمكث
ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلیاس وشريعته حتى قبضة
الله عز وجل إليه ، ثم خلف فيهم الخلوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ،
وكثر الجبايرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال : إنه الذي
تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسمى : ذا الكفل^(١) .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب ، وقال بن عساكر : هو
الأسباط ابن عدى ابن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم الخليل .

ويقال : هو ابن عم إلیاس النبي عليهما السلام ، ويقال : كان مستخفياً معه
بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلیاس ، خلفه اليسع
في قومه ونبأه الله بعده^(٢) .

(١) إسناده ضعيف جداً : أخرجه ابن إسحاق في « المبدأ » عن إسحاق بن بشر ، في
كتابه : « المبدأ » . وابن بشر من المتروكين ، واتهم بالكذب ، وفيه عننة قتادة
وكان يدلّس .

(٢) إسناده موضوع : أخرجه بن عساكر في « تاريخه » ، وفي سنده عبد المنعم بن
إدریس ، وهو متهم بالكذب .

نبي الله شمويل عليه السلام

هو شمويل ويقال : أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف ابن علقمة بن ماحث بن عموصاً بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويا بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا .. الله أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والشعبي وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى سمع الله دعائى^(١) . فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن يفرعه فقال : نعم نم . فنام .

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه . =

(١) إسناده ضعيف : أخرجه الطبرى [٤٦٧/١] ، وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [٣١٥/١] . فى سنده أسباط بن نصر ، وهو كثير الخطأ يفرغ . انظر ترجمته فى تقريب التهذيب [٣٢٣] .

= قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ نَبْعَثَ لَكُم مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَمَّوْا اللَّهَ كَم مِّن فِئْتَمٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَصَبْرًا وَقَدِّمْنَا أَقْدَامَنَا وَأَخْشِئْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴿ البقرة] .

نبى الله شمويل عليه السلام ۳۳۲



= قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع . وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير فى تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة (١) . فالله أعلم .

(١) قصص الأنبياء لابن كثير [٥٢٣/٥٢٤] .

نبى الله إشعيا بن أمصيا

قال ابن كثير : قال محمد بن إسحاق^(١) : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان فى زمانه ملك اسمه « حزقيا » على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لإشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : فى ستمائة ألف راية .

وفزع الناس فرعاً شديداً . وقال الملك للنبي إشعيا : ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إلى فيهم شئ بعد ، ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله . فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى ، وسرى واعلانى لك .

قال : فاستجاب الله له ، ورحمه ، وأوحى الله إلى إشعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أفر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب ، فلما قال له ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن ونخر ساجداً وقال فى سجدته : =

(١) إسناده ضعيف ، أخرجه الطبرى [١٥/١٨-١٩] فى تفسيره ، وفى تاريخه [١/٥٣٢-٥٣٤] بسنده عن ابن إسحاق .

فى سنده ابن حميد شيخ الطبرى من الضعفاء ، وذكره ابن إسحاق تعليقا .

نبى الله إشعيا عليه السلام ٣٣٤

.....
= اللهم أنت تعطي الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى إشعيا أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفي .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر أرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم . فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج^(١) أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقاته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجر فنشروها ونشروه معها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون^(٢) .

(١) مرج : أى اضطرب أمرهم واختلطت أفعالهم .

(٢) قصص الأنبياء [٥٧١-٥٧٣] .

أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

قال ابن كثير : وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح (١)

وقال ابن عساكر : جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم .. فتنت الناس . فسكن ورسب حتى غاب (٢) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أى رب ، أى عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لى ذكراً ، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوبا ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أنحلهم محبتى أعطيتهم فوق غاياتهم (٣) .

تصص الأنبياء [٥٧٣] .



(١) إسناده موضوع : انظر تهذيب ابن عساكر [٣٨٤/٢] .

(٢) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر [٣٨٤/٢] .

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه انظر التهذيب [٣٨٦/٢] وفيه على بن أبى مریم لم أقف عليه .

نبى الله دانىال عليه السلام

قال ابن كثير : روى بسنده عن عبد الله بن أبى الهزىل قال : ابن أبى الدنيا : أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب ، وجاء بدانىال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ، ثم انتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ؛ فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعد طعاماً وشراباً لدانىال . فقال : يا رب ، أنا بالأرض المقدسة ودانىال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه : أن أعد ما أمرناك به فإننا سنرسل من يملكك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حملة وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلنى إليك ربك . قال : وقد ذكرنى ربى ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذى يجيب من رجاه ، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا (١) .

وقال أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخة بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبى العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر =

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة [١٤٧] وفى الشكر [ص: ٥٣] .

.....
= قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس
فلا ينبشونه قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم بروزا
بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .
قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغير منه
شيء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها
السباع (١) .

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان التاريخ وفاته محفوظاً من
ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين
رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخارى (٢) ، والفترة التي كانت
بينهما أربعمائة سنة ، وقيل : ستمائة . وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون
تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو
المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ،
ولكن قربت الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده
مسجوناً كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر ، وعن أنس بن مالك
إسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين
قبل هذه المدد .. والله تعالى أعلم .

- (١) إسناده ضعيف : فيه عنينة ابن إسحاق ، وهو من المدلسين ، وباقي رجاله ثقات .
(٢) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس
بأبن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي » .
أخرجه البخارى [٣٤٤٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٦٥] .

نبي الله دانيال عليه السلام

.....
= وروى أبو بكر بن أبي الدنيا فى كتاب « أحكام القبور » : عن أبى الأشعث الأحمري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » . فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده (١) ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » (٢) .

فكان الذى دل عليه رجل يقال له : حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة . وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظاً نظر .. والله تعالى أعلم .
ثم قال ابن أبى الدنيا : حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالماً قال وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجره فيها ودك (٣) ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدرهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه (٤) .

وروى ابن أبى الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجدوه ، وذكروا له أن دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء افترض منها فإن ردها =

(١) تضرب عروقه : أى تظهر عروقه ووريده ، وذلك كناية عن بقاء بدنه سليماً معافاً مع امتداد الزمن

(٢) إسناده مرسل .

(٣) ودك : أى دسم اللحم وهو الدهن والشحم . وقيل : السمن . وكلاهما ممكن مراد هنا .

(٤) إسناده معضل .

نبي الله دانيال عليه السلام ۳۳۹

.....
= وإلا مرض وإن عنده ربه ، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه .

وروى عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبو موسى الأشعري رضى الله تعالى عنه (١) .

وروى ابن أبي الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : رأيت في يد ابن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فسه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه . جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتله ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسود فبات الأسد وليؤته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ ، قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتم ؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك . إسناد حسن (٢) .

قصص الأنبياء [٥٨٣ - ٥٨٦] .

(١) كلها مراسيل فلا حجة فيها .

(٢) إسناده لا بأس به .

نبي الله العزيز عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْمَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

القرية هي تجمع جماعة من الناس يسكنون في مكان محدود ونفهم أن الذي مر عليها ليس من سكانها وقيل إنها بيت المقدس .

وهذه القرية خالية من السكان ليس بها أحد ، فهذا شيء لافتا للنظر قال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فكأنه يسأل عن القرية وعن إماتة وإحياء الناس الذين سكنون القرية .

وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ تأتي مرة بمعنى كيف ، ومرة بمعنى من أين ، ومعناها هنا : كيف يحيى الله هذه بعد موتها إنه مؤمن ولا يشك في قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية .

مثلا نرى الأهرام ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساءل فقط : كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟

إذن .. فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث . والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث كأنه لا يشك في أن الله يحيى ، ولكنه عاشق

ومشتاق لأن يعرف الكيفية ليعيش في جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصنعة .

أراد الله سبحانه أن تكون الإجابة تجربة معاشة فى ذات السائل لذلك قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا تُو اللَّهِ مَائَةٌ عَامٍ ثُمَّ بَعَثُ قَالَ كَم لَبِثُ قَالَ لَبِثُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كأن الله كلمه كما كلم موسى أو سمع صوتًا أو ملكًا ، المهم أن هناك سؤالًا وجوابًا .. والسؤال هو : كم لبثت ؟

فأجاب العزيز : لبثت يومًا أو بعض يوم .. وإجابته تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، ولأنه لم ير شيئًا قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير فلو كان قد حلق لحيته مثلًا وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو نام بشعر أسود وقام بعد ذلك بشعر أبيض ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها لكنه لم يجد تغيرًا .

وكان جواب الحق له : ﴿ بَل لَبِثُ مَائَةً عَامٍ ﴾ إننا هنا أمام طرفين ، ويكاد الأمر أن يصبح لغزًا ، إن الحق سبحانه صادق ومنزه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ويوجد دليلًا على هذا ، ودليلاً على ذاك .. الدليل على صدق العبد أن طعامه وشربه لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يومًا أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق عزيز ، ثم إن الرجل كان معه حماره فقال له الحق : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ وهذا يدل على أن هنا شيئًا عجيبيًا وأراد الله أن يبين له بنظره إلى الحمار دليلًا على صدق مرور مائة عام ووجد الرجل حماره وقد تحول عظامًا مبعثرة ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير لأن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم لكن أن يرم جسمه ثم ينتهى إلى رماد فتلك قضية تريد زمانًا طويلًا لا يتسع له إلا مائة عام .. كأن النظر إلى الحمار هو دليل على نبي الله العزيز عليه السلام

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزًا ، وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟
والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذى أماته الله وهو فى الخمسين من عمره ، ثم
أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام . والتقى العزير حينئذ بابنه الذى كان
وصل سن الخمسين .

قال الابن : كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه - شامة - فلما كشف العزير
كتفه لابنه وجد الشامة . وثبت أهل القرية من صدق العزير فجاءوا بنسخة
من التوراة وتلا العزير التوراة كما وجدت فى النسخة فصدق القوم أنه العزير
وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا فى سن الخمسي ، ولذلك
يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .
وحفظ العزير للتوراة له قصة ذلك أن اليهود بعد موسى عليه السلام قتلوا
الأنبياء وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ولكن طفلًا وهو
العزير لم يعجبه مشهد قتل الأنبياء ، فخرج شاردًا فى الصحراء مهاجرًا وهاربًا
فقابلته شخص فى الطريق فسأله : لماذا أنت شارد ؟ فقال خرجت أطلب العلم
وكان هذا الشخص جبريل عليه السلام فعلمه أن لله توراة فحفظها فصار
واحدًا من الذين حفظوا التوراة وهم : موسى ، وعيسى ، وعزير ، واليسع .
أى صار واحدًا من أربعة ، ولأن الكتب قديمًا لم تكن تكتب على ورق رقيق
مثل زماننا بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل ؛ لذلك كان وزن
التوراة يقدر بسبعين حمل بعير .

وحين رجع عزير حافظًا للتوراة اندهش قومه وقالوا لا بد أنك ابن الله
لأن الله أعطاك التوراة وكان منهم سلام بن مشكم وشاس بن قيس ومالك
ابن الصيف ونعمان بن أوفى .

نبى الله العزير عليه السلام ۳۴۴

كأن اليهود حينما شاهدوه حافظًا للتوراة وبعد أن رجع لهم بعد غياب مائة عام قالوا هذا القول : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا يَأْتِئُهُمْ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةٌ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

هذا الإدعاء فيه مساس بجلال الله تعالى لأن الإنسان يتخذ ولدًا لعدة أسباب ، إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل والله سبحانه دائم الوجود ، وإما لكي يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف والله سبحانه دائم القوة ، وإما ليرث عزوة له ، والله جل جلاله عزيز دائمًا ، وهكذا تنتفي كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الإدعاء ، ولذلك يقول الحق سبحانه ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ، إشارة إلى القول بأن عزيز ابن الله أو المسيح ابن الله ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهل يوجد قول بغير أفواه ؟

نقول : هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني أى يستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى الأصل واللغة .



نبي الله داود عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

إن بداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، زعيم جيش الكفار الذي هرب فطارده داود وقتله .

إن داود كان أخا لعشرة وهو أصغرهم - وقال النبي المرسل إليهم : إن الذي سوف يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه ، استعرض والد داود الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أى واحد منهم ، إلا على أصغرهم وهو داود .

ودخل داود المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاءت حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين ، هو الذي يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة ، وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، وأحب داود الدرع ، وصار أملة أن يعلمه الله صناعة الدروع ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع وجعل الله له الحديد ليصنع منه ما يشاء . ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنجِبَالُ أُوِّبِي مَعْمُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : ١٠] .

الفضل هو الأمر الزائد ، لأن الله تعالى أعطاه أشياء لم يعطها لكثير من الرسل ، وأوبى أى رجعى أى هو يقول والجبال تردد خلفه ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا فهم قولها ، وفهمت قوله فكأنه عرف لغة الجبال .

نبي الله داود عليه السلام

 ٣٤٦

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨] .
يستغرب البعض أن يكون للجبال والطيور كلامًا وتفاهما ، مع أننا لم نقل
إن للجبال أو الطيور كلامًا معك ، ولكن لها كلام مع من خلقها ، فما الذى
حشرك أنت فى ذلك .

وبعض العلماء قالوا هذا تسييح دلالة ، أى تدل على خالقها تقول لهم
ما دام قلت إنه تسييح دلالة تكون قد عرفته والله يقول : ﴿ وَلَكِنْ لَا فَفَقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

إذن .. هذا الكلام لا يصلح ، ولكن الأصح أن كل شيء يسبح بلغته
الخاصة به ولذلك يقول سبحانه عن الطير .

﴿ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ ﴾ [النور : ٤١] .

إذن المعجزة فى داود ليس فى أن الجبال تسبح مع تسييحه لأن الجبال تسبح
باستمرار لكن تسييحها وافق تسييح داود فسبحوا معًا كأنهم « كورس »
واحد .

ولذلك لما قالوا : إن الحصى سبى فى يد رسول الله ﷺ ، نقول لهم عدلوا
العبارة لأن الحصى يسبح فى يد أبى جهل ، لأنه مسبح بطبعه فهو يسبح فى
أى يد - إذن ليست العظمة فى أن الحصى سبى فى يد الرسول ، ولكن
العظمة فى أنه ﷺ سمع تسييح الحصى فى يده .

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص : ١٩] أى مجتمعة لأن سيدنا داود كان صوته
جميلًا جدًا ، فساعة يغنى بمزاميره يأتى الطير من كل ناحية ، ويحشر نفسه
ليسمع مزامير سيدنا داود ﴿ كُلُّ لَهْوٍ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٩] أى : يرددون

٣٤٧

 نبي الله داود عليه السلام

ويرجعون ما يقول ، أو أن معنى كل أى من داود ومن الجبال ومن الطير كلهم لله أو ابون .

إذن .. عظمة داود أن الله أفهمه لغة الجبال والطير وتسيبها ، وجعل تسيبها يوافق تسيبها ، والتسخير هو قهر المسخر على فعل لا يستطيع أن ينفك عنه ، فهو مقهور على هذا الشيء وليس مختارًا . ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

إذن .. فهو تسيب بلغة خاصة ، ولكن جنس إشارات أو عبارات تفاهم بها أنواع الأجناس مع بعضها .

فإن كنا لا نفهم هذه اللغة ، وتلك الإشارات ، فهذا ليس غريبًا ، لأنك أيضًا لا تفهم إن تكلم إنسان مثلك بألفاظ لها صوت ، ولكنك لا تعرف وضعها ومعناها فلا تفهمها .

فكذلك الأجناس الأخرى أنت لا تفهمها ، لأنك لا تعرفها والحق سبحانه أشار إلى ذلك على وجه العموم في أجناس الكون كلها .

﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : ٤١] .

فكل شيء يعرف صلاته وتسيبها ، كيف يصلى ؟ وكيف يسبح بلغته التي يفهمها ؟ وإذا شاء الله أن يفيض من بعض فيضه على بعض خلقه ؟ يفهم بعض الخلق لغة أدنى من لغته ولذلك قال سليمان : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٦] .

والحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية التسيب والخضوع والقهر من المخلوقات جميعًا إلى خالقها يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي

نبي الله داود عليه السلام ٣٤٨

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴿١٨﴾ [الحج : ١٨] .

فكل مخلوقات الله من جماد ونبات وحيوان خاضعة ، وتسجد لله
بالإجماع دون أن يتخلف منها شيء .

﴿ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ أى : أن الحديد لان فى يده يشكله كيف يشاء .
يقول البعض الآن له الحديد ، أى علمه أن النار تذيب الحديد ، وهذا كلام
غير منطقي مع ما أخبر الله تعالى به ليونة الحديد ، لا بد أنه أصبح فى يده مثل
الشمع ، أو مثل الصلصال الذى يشكله تلاميذ المدارس وإلا لما كانت معجزة
﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .
فتعليم الله لداود عليه السلام صناعة اللبوس إما بالوحى أو بالتجربة والخطا .
هناك لباسا أو لبوسا .

اللباس نعمله لنستر به عورتنا ، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد ، وفى حالة
الحرب التى يتعرض فيها الإنسان للإصابة فى أجزاء قاتله من جسمه .
واللبوس أبلغ من اللباس لأن مهمته أبلغ لأنه يقى الإنسان البأس ويحفظ
مواقع الخطر فى جسمه فى الحرب .

﴿ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ ... ﴾ [سبا] .
السباغات هى عدة حرب ، لأنها الدروع التى تلبس على الصدر لتحافظ
على حياة الإنسان ، لأنها منطقة حيوية للجسم .

وكانت الدروع قبل سيدنا داود تصنع من صفائح ملساء ، فإذا ضربها
السيف شققها فقال له ربه : ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ ﴾ .

٣٤٩

 نبي الله داود عليه السلام

فعملها حلقات صغيرة وشبكها فى بعضها حتى تتمكن من صدّ الضربات والطعنات والدروع عادة تكون على الصدر ، لكن الله تعالى أمر داود أن يحتاط ويجعلها سابغة أى تغطى الصدر والبطن والظهر .

فكأن الحق سبحانه أول ما علم داود وسيلة الحرب وليس وسيلة السلم لماذا ؟ ليعلمنا أن نعد لمن ينقض كلمة الله ونهجه ما استطعنا من قوة .
ومعنى ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ ﴾ أى أصنعها يتقدير دقيق والسرد هو النسيج فاجعل نسج الحديد فى الدرع على قدر الحاجة ، فلا توسعه ولا تضيقه ولكنه اجعله وسطاً .

وهذا الموضوع له قصة ، فسيدنا داود كان يأكل من بيت المال لأنه يتولى أمور الناس ، فأنزل الله ملكاً فى صورة رجل وجعل الناس تسأله كيف يعيش داود ؟

قال فيه خصال حميدة وليس فيه إلا أنه يأكل من بيت مال المؤمنين ، فلما بلغ ذلك داود حزن وبكى وقال يارب لماذا جعلت فى هذا الأمر فعلمه الله صناعة الدروع حتى يأكل من عمل يده ، فكان يصنع الدرع ويبيعها بأربعة آلاف ويعيش منه حتى يصنع غيره .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ [ص : ٢٠] . أى قويناه ولذلك هو سيدنا سليمان جمعا بين الملك والنبوة ، ولذلك تجدد المخالفين لهم غير ظاهرين ، لأن الملك يطمس أنف الظالم فلا يستطيع متمرد أو فاسق أن يواجه نبيا ملكاً وذلك لهيبة الملك إذن ، أو ما يشد الملك هو الهبة فإذا أراد الله أن يضعف الملك أى يمنع من الشدة يسقط الهبة .

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٠] .

نبى الله داود عليه السلام

الحكمة وضع الشيء في موضعه الطبيعي ، الذي تأتي منه الثمرة الموجودة من أقصر طريق .

﴿ وَفَصَلَ الْخِطَابِ ﴾ لا يكون إلا بين متجادلين هذا يأتي بحجة ، وهذا بحجة ، فهو يعطى الفصل بين الخطاب ، فينصف الحق ويبتل الباطل .
بينما داود عليه السلام بين يدي الله يصلى ويسبح ، فيدخل عليه جماعة ، فيفزع منهم مع أنه في حضرة الله قالوا هذا لا يصح .

ولما فزع داود منهم طمأنوه وقالوا له : لا تخف وقولهم هذا دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قلبه ، وهذا القول يفهم منهم أنهم ليسوا من الرعية ، لأن الرعية لا تقول للملك لا تخف فكان عليه أن يتنبه لذلك .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ... ﴿ [سورة ص] .
هل تكلمنا في نفس واحد أم رتبا كلامهما معا ؟ أم أن واحداً تلك والآخر آمن على كلامه والمؤمن أحد الداعيين .

وكونهما متفقان وأيتا معا لسماع حكم داود في مسألتها دليل على أنهما غير طامعين في بعضهما البعض ولكنهما حضرا لطلب الحق فقط .

وقولهما : ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ [ص: ٢٢] .
فيه جرأة شديدة كأنهما يعطيانه أوامرهما لأنهما جاءوا من الملأ الأعلى ومعنى تشطط أى تبعد .

فطلب داود منهما أن يعرضا القضية عليه فقال أحدهما :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعُ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [ص: ٢٣] .

نبي الله داود عليه السلام ٣٥١

النعجة فى اللغة لها ثلاث إطلاقات هى : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ؛ كلها تسمى نعجة .

أى هو عنده ٩٩ نعجة ، وأنا ليس عندى إلا واحدة ، ومع ذلك أراد أن يأخذها منى .

وعزنى فى الخطاب أى غلبنى فى الخطاب والمحااجة ، حيث قال له : أنا عندى مراعى كثيرة وعنذى رعاة يراعونها مع غنمى فاتركها ترح وتسرح مع باقى الغنم ، ولا تتعب نفسك من أجل نعجة واحدة وبذلك غلبه فى الحجة والقاضى يحكم بالحجة .

والنبي ﷺ يقول : « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ممن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله وإنما أقطع له قطعة من النار » (١) . إذن .. القاضى يحكم للحجة الأقوى .

هنا سيدنا داود سمع الدعوى من طرف واحد وأصدر حكمه قبل أن يسمع الطرف الآخر . قال : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيْنِ نِعَاجِهِ ﴾ [ص : ٢٤٠] . وهذه زلة الحاكم ولذلك قالوا إذا جاءك من فقمت عينه فلا تحكم له لأن الآخر ربما فقمت عيناه .

هنا داود فى حكمه نسب الظلم إلى أحدهما بقوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيْنِ نِعَاجِهِ ﴾ فأدخل شيئاً فى حيشة الحكم وليس من حيشته فهل لو لم يكن عنده (٩٩) نعجة أكان يحل له أن يأخذ منه نعجته ؟ لا يحل . فقوله : ﴿ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيْنِ نِعَاجِهِ ﴾ لا دخل لها بالقضية لأنه ظالم وإن لم يكن عنده ولا نعجة .

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٠] .

نبي الله سليمان عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ [ص : ٣٠] .
الوهب عطاء بلا مقابل ومع أن الخلفة كلها موهوبة من الله إلا أنه قد يهبه
ذاتا لكن الصفات هبة أخرى من الله ، فكون سليمان يكون ملكا ويؤتاه الله
ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فيسخر له الجن ويسخر له الريح إلى غير ذلك
فهذا كله هبة من الله .

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاء إلى الله كثير التوبة ، والرجوع إليه سبحانه ،
ويأتى القرآن بحديثه هذا الأمر فيقول : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ
الْجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١] . العرض معروف مثل العرض العسكري حيث يقف
القائد ويستعرض القوات مثلاً والصفافن جمع صافن والصفافن هو الجواد
العريق .

ولعلمكم تلاحظون ذلك في الجياد العربية الأصيلة ، حيث تجد هذا الجواد
لا يقف على أرجله الأربعة ، ولكن يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة على
الحافر ، والجياد جمع جواد ، والجواد هو القوى السريع .

وهذا الاستعراض مثل العرض العسكري الذي يحدث في عصرنا هذا .
ولكن ماذا قال سليمان ؟ ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ
بِالْحِجَابِ ﴾ [ص : ٣٢] .

الخير هنا قالوا إنها الخيل لأن النبي ﷺ قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير
إلى يوم القيامة » .

ولذلك أمرنا الله بالاستعداد للكفار الكارهين لمنهج الله حيث قال :
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ
اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ورباط الخيل أى الخيل المربوطة للجهاد .

فسليمان لما عرضت عليه الخيل قال أنا أحب هذا الأمر فهو أحب الخيل
لقوتها ومكانتها فى الحرب ، لا حبا صادرا عن ذكر الله تعالى ومنهجه لأن
قوة هذه الخيل تستطيع أن تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ حين يأتى الفاعل مستورا فلا بد له من مرجع
فهنا الفعل ﴿ تَوَارَتْ ﴾ على أى شىء يدل؟

قالوا كلمة : ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ مشهورة فى الشمس حين تغيب أى أن
عرض الخيل استمر حتى غابت الشمس فقالوا إن صلاة العشى فاتت سليمان
لانشغاله باستعراض الخيل المسومة .

وقوله : ﴿ رُدُّوْهَا عَلَيَّ ﴾ أى أرجعوا الخيل لتمر من أمامى راجعة فى اتجاه
الآخر .

وكلمة ﴿ فَطَفِقَ ﴾ معناها شرع .

﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [ص : ٣٣] .

السوق على قوائم الفرس أى رجليه والأعناق جمع عنق وهى رقبة الفرس
وعادة قوة الخيل تكون فى هاتين المكانين .

فسليمان سر من الخيل فأراد أن يكرمها بهذه العملية .

بعض الناس قالوا إن سليمان قتل الخيل وأخذ بذبحها لأنها ألهمته عن
عبادة الله وهذا غير منطقي لأن الخيل لا ذنب لها فى ذلك بل هو الذى ألهاها

سليمان عليه السلام ٣٥٥

وشغلها - فهذا كلام تشييعه الاسرائيليات والعجيب أن من الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، فهم يقدحون فى أنبيائهم وطبعاً هذا كذب وافتراء منهم على أنبياء الله .

وقد بحثنا فى أسباب ذلك فوجدنا أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أن يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئاً من النقيصة حتى يكون مبرراً لانحرافه هو .

قال العلماء أن سليمان لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله خيراً منها الريح غدوها شهر ورواحها شهر .



فتنة سليمان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] .
الفتنة معناها الاختبار وهي غير مكروهة في ذاتها ، ولكن السقوط فيها هو
المكروه لأن من ينجح فيها فهو خير له .

فالحق سبحانه فتن سليمان كما فتن أباه في قصة الذين تسوروا المحراب
وهذه الفتنة كانت بالقاء جسد على كرسية أى العرش الذى يجلس عليه ،
والجسد هو قالب الكائن الحى ، لكن إذا قيل جسد فهو كما نقول جثة ليس
فيه روح .

العلماء وقفوا فى هذه الآية ، فقالوا : إن داود كان عنده سليمان وولد آخر
فاسد مثل ابن نوح الكافر فاحتال هذا الولد وعمل انقلابا على سليمان وأقصاه
عن الملك وتولى هو الملك مدة طويلة ولما أراد الله أن ينيب سليمان جعل هذا
الطاغية على كرسى عرشه جثة هامدة لا تتحرك .

فبعد أن كان يسيطر على ملكه لم يعد قادرا على السيطرة على نفسه ،
وصار جسداً وبعد ذلك خرجت عليه رعيته فقتلته وجاء سليمان مكانه .

هذه واحدة ، والشئ الثانى أن سليمان كان عنده جواريه فقال : أنا سأمر
الليلة على سبعين جارية ، وأتى من كل جارية بولد فارس يركب فرسه فى
سبيل الله ، فالمسألة كلها خير ولكنه لم يقل إن شاء الله .

فلم يلد أحد من الجوارى إلا واحدة ولدت جسداً لا حركة فيه لأنه لم يقل
إن شاء الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه ليعلمنا تقديم المشيئة : ﴿ وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿١١﴾ ﴿ [الكهف] .
فسليمان لما لم يذكر المشيئة جازاه الله فلم تحمل إلا واحدة ووضعت جسداً لا حياة فيه هذه الثانية .

أما الثالثة : فقالوا إن الجن الذين تميز سليمان بأن سخرهم الله له يعملون له ما يشاء ، لما أنجب سليمان ولدًا قال الجن إن هذا الولد إذا كبر سيفعل بنا ما يفعل أبوه فالأفضل لنا أن نقتله ، فلما علم سليمان خاف على الولد ووضعه في السحاب يرضع من المزن بعيدا عن الجن ، فكأن سليمان أراد أن يفر من قدر الله . فبينما هو مشغول بمهماتہ إذ ألقى ذلك الولد ميتًا على كرسیه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأتاب .
وقيل إن الجسد الذي ألقى على كرسی سليمان هو سليمان نفسه ، لأنه جلس على الكرسي يأمر وينهى فرمما يغرى هذا نفسه بعض الشيء ، فأراد الله أن يصحح خواطره في نفسه لأنه يريد له مهمة أعلى من التي هو فيها .
إن الله أراد أن يذكر سليمان بأن ما أعطاه له ليس ذاتيا ، ولكنه هبة من الله ويستطيع سبحانه أن يجعله لا يسيطر على نفسه هو ، ولا على غيره ويلقيه جسداً بلا حراك ، فمرت عليه لحظة لا يستطيع أن يحرك جسده ولا يقدر أن يأمر أمرا ، فعلم أنها ليست ذاتية فيه ولكنها موهوبة له .

ولذلك ركب سليمان البساط مرة وسار به الريح فشعر بشيء من الزهو فمال به البساط فكاد أن يقع من فوقه فقال له اعتدل يا بساط فقال له البساط « أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله » .

فعرف ذلك فما نسيه بعد ، وعندما أناب قال يارب لقد فعلت بى ذلك لأننى ربما أغتررت بأئنى ملك ورسول فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص : ٣٥] إنه يطلب ملكا لا ينبغى لأحد .

ولذلك روى البخارى عن النبى ﷺ قال : إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة - أى إن الشيطان عرض لى وأنا أصلى وأراد أن يشغلنى عن الصلاة - ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ [ص : ٣٦] .

هذه أول الأشياء التى لم تحدث من قبل .

فكانه يصبح أمرا والريح مأمورة ففهمت عنه أمره .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوْاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : ١٢] .

قالوا أن الرياح لم تسخر كلها لسليمان ، ولكن سخر له ريح مخصوص أى جزء من الرياح وظفه الله عند سليمان - فكان تحت إمرته .

والغدو هو الذهاب أول النهار ، والرواح هو العودة آخره .

فكان غدو الريح شهرا ورواحها شهرا . ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى أعطاه الله الريح العاصفة تسير بأمره ، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض التى بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق ، فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته .

وقد جمع له الحق سبحانه فى الريح بين ما يعطيه السرعة إلى مراده وبين ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر فى تكوينات جسمه .

لأن الريح العاصفة تعطى سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة .
فتسخير الريح له يأمرها أن تهب فى الاتجاه الذى يريده ، فهى لا تهب على
مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ولكن تهب على مراده هو وبأمره هو .
وكما ألان الله لداود الحديد ، أسال لابنه سليمان عين القطر وهو النحاس
فألان الحديد لداود وصهر النحاس لسليمان .

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُمُ عَيْنَ الْقَاطِرِ ﴾ [سبأ: ١٢] القطر هو النحاس المنصهر المذاب .
﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ [سبأ: ١٢] . فالجن يعملون
معه بتسخير من الله لهم ، وليس من عند سليمان ، ومن يزغ منهم عن
أمر الله يزيقه من عذاب جهنم فعملهم معه أمرهم به الله وسليمان يطلب
منهم صنع ما يريد من الأشياء .

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُمُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَأْسِيَّتٍ ﴾ [سبأ: ١٣] .

المحاريب جمع محراب وهو يطلق على المبنى الفخم الواسع الكبير كالقصر
مثلا أو يطلق على مكان العبادة ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ
عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] . والتماثيل هو الصور المجسمة للأشياء .

وبعض العلماء يقولون إن هذه التماثيل كانت مباحة ثم حرمت بعد أن
عبدها الناس ، ولكن نحن نقول إن هذا لم يكن فى عهد سليمان ، لأنه جاء
بعد عهد إبراهيم عليه السلام الذى حطم الأصنام التى كان يعبدها قومه ،
فهى محرمة منذ عهد إبراهيم وسليمان جاء بعد هذا العصر فكيف يمتن الله
على سليمان بجعل الشياطين يصنعون له التماثيل المحرمة ؟

نقول إن التماثيل هنا قد تكون لغرض غير التعظيم والعبادة ولكن توضع فى موضع إهانة مثل تمثال واحد جبار منحن ويحمل البلكونة مثلا أو أسد على سور العمارة فهذا ليس تعظيما للتمثال ولكنه إهانة .

والجفان جمع جفنة هى التى نسميها القصعة ومعنى كالجواب أى كالحوض الواسع الكبير وهذا دليل على أنه كان يطعم أعدادا كبيرة من الناس .
و ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ﴾ هى القدور الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها لأنها قدور ضخمة تكفى لاطعام المقات من الناس .
وراسيات أى أنها ثابتة فى مكانها لضخامتها فلا توضع على النار ثم تحمل بعد ذلك ولكنها ثابتة لا تنقل من مكانها .

مثل قدر المطعم به عدى الذى كان يستظل به الناس فى اليوم القائظ فى مكة مما يدل على كبر حجمها . ﴿ وَيَسَّخِرُونَ مِنَ الْغُوصَاتِ لَمَّا يَغْمُرْنَ الْبَحْرَ كَمَالًا ذُوْنَ ذَلِكَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] .

الغوص هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه ... ويعملون أعمالا أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها .

إن الناس دائما يخافون من الشياطين ، ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث أن الناس لا يرونهم ، وهم يعملون هذه الأعمال ولا يحسون بهم .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الجن المسخرين لسليمان ، كان هو وحده الذى يراهم ولا يراهم أحد غيره .

وأن المسخرون لسليمان ليسوا من المؤمنين إنما هم شياطين كفره .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب ابن إحداهما فقالت هذه لصاحبتها إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال أئتوني بالسكين ، اشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى » (١) .

ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً فى شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿ وَكَلَّا ءَايَتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَتَنَبَّأَ لِجِنِّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبا : ١٤] . أى مادل الجن على موته .

إن من الأشياء التى سخرها الله لسليمان ليحقق له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، أن سخر له الريح وسخر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات .

وتسخير الجن معناه : أن الحق سبحانه سخر له أخف الخلق حركة وأخفاها وهم الجن لأن لهم طبيعة مخصوصة ﴿ إِنَّهُ يَرْبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

ولهم خفة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها وأن يكثروا حملها وأراد الحق سبحانه فى مسألة موت سليمان أن يفضح الجن بأنهم لا يعلمون الغيب .

(١) أخرجه البخارى [٣٤٢٧] ، ومسلم [٢٠/١٧٢٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

فتة سليمان ٣٦٢

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ تفيد هذه الآية أن الموت قضاء ، أى لا مندوحة عنه زمنا لا يترتب على مرض ولا على سبب ولذلك نقول : والموت من دون أسباب هو السبب - مات لأنه يموت ولذلك يخاطب الأحياء بما فيهم رسول الله ، فيقول له ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ أى انك تؤول إلى الموت وليس معناها إنك ميت الآن .. لا .. والذي يموت بالفعل لا يسمى ميتا - فنحن ونمن أحياء ميتون أى سنموت لكن عندما نريد أن نخبر بالموت حقيقة نقول ميتا وما الميت إلا ما إلى القبر يحمل إنما كلنا ميتون ولذلك عندما أرادوا أن يعطونا صورة حسية عن الموت قالوا - عندما جئت إلى الحياة انطلق معك سهم الموت وعمرك بقدر سفر ووصول السهم إليك متى سيصل ؟ لا نعرف فالموت سهم مرسل أرسل بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ وهو ما قضيناه من نهاية لكل حى : ﴿ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﴾ لم يعلم أحد بموته كيف ؟ لابد أنه كان فى حالة لا تقوم إلا من الأحياء لأنه كان من شكره لله وضراعتة له يظل عابدا لله ، وهو واقف ، والواقف كلما تعبت قدم أراحها بالثانية ، فإذا تعبت الاثنان التمس ما يريحهما « المنسأة » أو العصا أتى بها واتكأ عليها .

حتى الجن لا يخافون إلا بأعينهم ، فعندما يرونه واقفا يعملون بنشاط جاء الموت وهم لا يزالون فى العمل والتعب ، ولأنهم يرونه واقفا لم يستطيعوا الكف عن العمل ، فكيف انكشف الأمر . إن من طبيعة سليمان أنه يعبد الله واقفا .

ولكن الله أراد للمسألة أن تنتهى ليقضى بها على حقيقة شغلت الناس جميعا ، الجن والإنس .

لأن الجن عندما كانوا يتلصصون للسمع ، فيلتقطون بعض الكلمات كما أخبر النبي ﷺ : « إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى في السماء فتسرق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

أى يضيفون إلى الكلمة التي سمعوها كلمات أخرى ، ثم يقولونها للناس ليقولوا عنهم إنهم يعلمون الغيب .

ولذلك ظل سليمان ميتا وهم يعملون ﴿ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ ﴾ دابة الأرض التي تأرض وهي - العتة - التي تأتي في الخشب اسمها الأرضة والفعل منها أرض بأرض .

إذن .. فالأرضة هي التي أتت العصا من أسفلها ونخرتها ، والوقوع القسرى الذي لانظام له بقوله : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ ، وخرور الشيء لا نظام له فلما خر عرفت الجن والإنس بموت سليمان إذن الجن لم يمتازوا بشيء .

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سآ : ١٤] .

هذه المدة الماضية عندما كان واقفا وهم يعملون ؛ ولذلك افتضح أمرهم أمام أنفسهم لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب فأدركوا أنهم كانوا لا يعلمون إلا أشياء قليلة كانوا يسترقونها سمعا ، ولأنه يطرأ عليهم ما يطرأ على كل حي من التعب بالعمل .

وكان العمل الذي يقومون به عمل شاق وإهانة لهم ، لأنهم يظنون أن الجن تسامى على الإنس ، لقول أبيهم قديما : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] .

وعندما يأتي واحد من الانس ويسخر الجن فهذا عذاب لهم ولنفرض أنه عمل غير مرهق بدنيا إنما يرهق نفسيا لأن الجنس الذى ادعى التسامى يخدم عند أحدهم .

كيف يكون من يخدم الرسول من عذاب مهين ؟ نقول إنك أخذت الشبهة هذه من قول الجن ، فظننت أن الجن كلهم كانوا مسخرين له ، لا إن آية أخرى شرحت ذلك ﴿ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ [ص : ٣٧] .
المسخرون له ليسوا المؤمنين إنما هم الشياطين .

ورغم جلاله قدر سليمان عند ربه إلا أنه قال سبحانه ﴿ خَرَّ ﴾ .
وكأنما قطعة من جماد وقعت ، حتى يقول سبحانه أنه الروح التى أنفخها فيك هى التى تجعلك حيا ، إنما حينما تسلب فأنت كالعصى أو الحجر .
لأنه من عظمة الروح فى النفس أنه بمجرد أن يأخذ الله سره فى هذه المادة ينسى اسم صاحبها هذا أول شىء فيسمى « الجثة » .
أين ذهب اسمه ؟ وبمجرد أن يضعوه فى النعش لا يقولون عليه جثة ، ويقولون الخشبة ثم يذهبون إلى مشواه الأخير .

لأن الحياة قد كرمها الله بالروح ثم سحبها منها ، فإن أردتم مادتهم فاحتفظوا بها ، ولن تحتفظوا بها ، وأحب الناس إليه وأعزهم هو الذى يسارع بدفنه لماذا ؟

لأنه يخشى أن تظهر له رائحة يشمها الناس ، فيتأذون منه ، فالحيب يسارع باخفاء ودفن جثة حبيبه قبل أن تتعفن .



من نعم الله على سليمان عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] .

الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلم ، وهو منهج الدين ، وعلم سليمان منطق الطير وألان لداود الحديد ، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ورغم كل هذه النعم لم يذكر الله إلا النعمة التي يجب أن يفرح بها المؤمن وهى العلم .

وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا الله على فضله عليهما بالعلم حيث قالوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أى أن هناك من الناس من هو أفضل منا ، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ غُلْمًا مِّنْ مَّنْطِقِ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] .

ومعنى كلمة : ﴿ وَوَرِثَ ﴾ أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه ، و ﴿ مِّنْ مَّنْطِقِ الطَّيْرِ ﴾ هو لغة التفاهم بينها ؛ لأن لكل خلق من خلق الله لغة يتفاهم بها ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣٨] والعلماء يعكفون فى العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات ، مثل : لغة النمل ، والنحل ، والسماك ، فهذه الحيوانات تتفاهم فيما بينها تفاهماً غريزياً . قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ؛ الأنبياء لا تورث ، ولكنه ورثه فى النبوة والدعوة إلى الله وتطبيق منهجه .

قال تعالى : ﴿ وَاسْلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١] سليمان قد استفاد من تعليم الله
 لأبيه داود ، فأخذ هذه النعمة ، وزوده الله بنعم أخرى خاصة به ، فأعطى له
 الريح العاصفة تسير بأمره ، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض - التى
 بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق - فكانت الريح تمثل
 مواصلات داخلية له فى مملكته .

وفى آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاءً
 حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : ٣٦] .

هنا الريح ﴿ رِجَاءً ﴾ ولينة وهناك الريح ﴿ عَاصِفَةً ﴾ ، فالريح العاصفة تعطى
 سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة ، فكانها جمعت بين السرعة فى عاصفة
 وبين اللين والنعومة فى رخاء .

وهناك تسخير الشياطين أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ
 يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَكِيمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢]
 الغوص : هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر ؛
 ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه ، ويعملون أعمالاً أخرى شاقة لا
 يستطيع الإنسان أن يؤديها .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ
 وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ
 عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سبأ : ١٣] وهذه الآية بينت قوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ
 عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ . فهذا العمل فى صناعة المحارِبِ والتماثيل والجفان -
 أى القصعة التى يأكل الناس فيها - وكلمة : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ تدل على أن

٣٦٧ من نعم الله على سليمان عليه السلام

هذه الجفان واسعة وكبيرة ، تتسع لإطعام عشرات الرجال ، و ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ هي القدر الضخمة التي لا يمكن نقلها من مكانها .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ ؛ لأن الناس يخافون من الشياطين ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يرونهم وهم يعملون هذه الأعمال ، ولا يحسون بهم .

وقد بين القرآن الكريم أن الجن المسخرين لسليمان ، كان وحده الذي يراهم ولا يراهم أحد غيره ، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجلس متكئاً على عصاه وظلوا يعملون بجد ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا ، وانكسرت وسقط سليمان على الأرض ؛ علمت الجن بموته ، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبا : ١٤] .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَخِشْرَ لِسَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٧] ، ما داموا حشروا فمعنى ذلك أنهم جمعوا من كل مكان ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء] ، والحشر في الآخرة يجمع الله الخلائق من كل مكان في الأرض إلى مكان الحشر .

لأن معنى الحشر هو : جمع الناس من أماكن متفرقة ؛ وسمى حشراً لأنك حين تجمع الناس في مكان واحد سيضيق بهم المكان ، فيحشرون فيه حشراً .

من نعم الله على سليمان عليه السلام

ومعنى قوله : ﴿ يُؤْذُونَ ﴾ أى ينعون ، ويروى : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن (١) . أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنع الدعاء بخطبهم ومواظبهم ؛ لأنهم يستبطنون عذاب الله وعقابه لأنه أجل فى الآخرة ، ويخشون عقاب السلطان ؛ لأنه عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد ؛ لأن السلطان والقوة كانا فى أيديهم .

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ [النمل : ١٨] .

قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ ؛ يدل على أنهم جاءوا لهذا الوادي من أعلى الجبل ، وهذا ما تفيدته كلمة : ﴿ عَلَىٰ ﴾ وربما كان المعنى : أتوا على كذا ، مثلما تقول : فلان أتى على الطعام ، كلمة أتى معناها : انتهى منه وأكله كله ، وعلى ذلك يكون المعنى : أنهم أتوا على الوادى ، أى قطعه كله ، وكلا التفسيرين جائز .

والمعنى إنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم ؛ خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده دون أن يشعروا بهم ، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها ؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له مهمة .

(١) ذكر ابن الأثير فى النهاية [١٨٠/٥] بلفظ : « من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن » . أى : من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن والله تعالى .

وقول الله تعالى : ﴿ فَنبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩] : يدل على أنه سمعها ، فالنملة رأت قبل أن يوجد المرئي ، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادي النمل ؛ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا ، أى بدأ بالبسمة التي قد تصل إلى الضحك ، وشعر بفضل الله الذي أنعم عليه هذه النعمة ، وقال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] ؛ أى يا رب امنعني أن أنسى فضلك على ؛ حتى أظل شاكراً حامداً لك ؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به على عامة الخلق ، ونعمة فوق ما أنعمت به على من سبقني من الأنبياء ، وفوق ما أنعمت به على الملوك ، فهو أكثر من الملوك ؛ لأن الله أعطاه الملك مع النبوة ، وإن كان نبينا محمد رفض أن يكون ملكا .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ فكأن الفضل والرحمة من الله هما اللذان يفرح بهما الإنسان ؛ لأنهما اللذان سيدخلانه في عباد الله الصالحين ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضلٍ ورحمة » (١) .

وذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وِرْحَمَتِيْهِ فَيَذَلِّكَ فَلَيفِرْحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ، فإياك أن تغتر أو تفرح بعملك ولكن افرح بفضل الله ورحمته .

(١) أخرجه البخارى [٥٦٧٣] ، ومسلم [٧٥/٢٨١٦] واللفظ له . عن أبي هريرة رضی الله تعالى عنه .

من دون الله ، ولماذا لا يعبدون الله الذى يخرج الخبء فى الأرض ؟ كيف لا يعبدون المنعم عليهم بكل النعم .

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون الله ؛ ولذلك قال مستنكراً فعلهم : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والهدهد خلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كوة أو طاقة تدخل منها الشمس ، مبنية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها ، فتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود ؛ ولذلك حينما ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم ، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه ، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفاعها ، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها فطار . ثم يقول بعد ذلك : ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِى هَكَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر فى الأمر وقال : نكتب لها كتاباً ونرسله مع الهدهد ؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف .

ومعنى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى أبعد عنهم قليلاً وانظر ماذا يفعلون ، لأنهم سيراجعون بعضهم البعض ؛ لأن معنى : ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ أى يراجع بعضهم بعضاً ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرْبًا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٩] فالمعنى : ساعة تلقى إليهم الكتاب انظر ماذا يقول القوم ، وماذا تقول ملكتهم دون أن يروك وأخبرنى بذلك .

يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّى أَخَذْتُ مِنَ رَبِّى كِتَابًا ﴾ [النمل : ٢٩] الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى سبأ ، وذهب إلى بلقيس ، وألقى إليها

من نعم الله على سليمان عليه السلام ٣٧٣

الكتاب ، فلما قرأته قالت : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُو۟ا۟ إِنِّي۟ أُلْقِيَ۟ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾^(١) و ﴿ الْمَلَأُو۟ا۟ ﴾ هم أعيان القوم وأشرفهم والمستشارون عند الملكة بلقيس ، ووصفت كتاب سليمان بأنه : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان ؟ أو لأن الخطاب بهرها بخطه الجميل وورقة الراقى وختمه الغريب . وبعد ذلك قالت : ﴿ إِنَّهُۥ مِنۢ سُلَيْمٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴿١﴾ ۝ اَلَّا تَعْلَمُو۟ا۟ عَلٰٓى وَاَتُو۟نِی۟ مُسْلِمِی۟نَ ﴿٢﴾ [النمل :] .

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبي .. إلخ ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجازه الشديد حيث يقول : ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ . اَلَّا تَعْلَمُو۟ا۟ عَلٰٓى وَاَتُو۟نِی۟ مُسْلِمِی۟نَ ﴾ فنص الخطاب عبارة عن برقية موجزة . كلمة : ﴿ تَعْلَمُو۟ا۟ ﴾ أى : تتغطرسون وتظنون أنفسكم ملوكاً ، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى ، فإياكم وهذا التعالى والتكبر ؛ مثلما نقول : « هى كلمة واحدة » . بلقيس حينما ألقى إليها الخطاب وقرأته ، جمعت المأى وقالت لهم : لقد وصلنى كتاب من سليمان ونصه كذا وكذا ، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يشيروا عليها بما تفعل فقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُو۟ا۟ أَتُو۟نِی۟ فِی۟ۤ اٰمْرِی۟ مَا كُنْتُ قٰطِعَةً اٰمْرًا حَتّٰی تَشْهَدُو۟نَ ﴾ [النمل : ٣٢] . قال تعالى : ﴿ قَالُو۟ا۟ نَحْنُ۟ اٰوَّلُو۟ا۟ قُو۟ۡۤهٗ وَاَوَّلُو۟ا۟ۤ اَبۡرِی۟ۤنَ شَدِی۟دٍ وَاَلَاۤنۡرُۤ اِلَیۤکِۤ بِاَنۡظُرِیۤ مَاذَا تَأۡمُرِیۡنَ ﴾ [النمل : ٣٣] .

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : قالت يا أيها املاء إني ألقى إلى كتاب كريم : وفى صفتها الكتاب أنه كريم ، أربعة أوجه : أحدهما : لأنه مختوم ، قاله السدى . الثانى : لحسن ما فيه ، قاله قتادة الثالث : لكرم صاحبه وأنه كان ملكاً ، حكاه ابن بحر .

من نعم الله على سليمان عليه السلام ٣٧٤

فقالوا لها : نحن جاهزون للحرب وعندنا القوة ، والبأس ، والعدد ، والعدة ،
والجيش القوى ، والأمر إليك أن أردت السلم فقولى لنا ماذا تريدان ، ونحن
ننفذ ما تأمرين به .

ولكن المرأة كانت عاقلة فلم تغتر بالقوة ، وحذرت قومها من دمار الحرب
وآثارها ، فردت عليهم بقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .
لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين ، وينهب كل ما عندهم ؛
لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم ، فيخرب ما
يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم ، ولا يحافظ على شيء إلا بعد أن يضمن
استقرار الأمور له .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ كلام صحيح ؛ لأنك إذا
نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر ، أو أى نظام
يخلف نظاماً فى الحكم ، تجد الانتقام يكون من الحاكمين السابقين ، وإلصاق
شتى التهم بهم من فساد وغيره ؛ لأن الحكم الجديد قام على أنقاضهم ، وبين
النظامين لدد وخصومة (١) .

= الرابع : لتسخير الهدهد به بحمد .

ويحتمل الخامس : لإلقائه عليها عالياً من نحو السماء .

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره : قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذ عرضوا عليها
أنفسهم لقتال سليمان إن أمرتهم بذلك : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾
عنوة وغلبة ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ يقول : خربوها ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ وذلك
باستبعادهم الأحرار ، واسترقاقهم إياهم ، وتناهى الخبر منها عن الملوك فى هذا
الموضع ، فقال الله : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : وكما قالت
صاحبة سبأ تفعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة . تفسير الطبرى [١٥٤/١٩] .

من نعم الله على سليمان عليه السلام ٣٧٥

ومعنى : ﴿ اذلة وهم صغرون ﴾ أى يخرجهم من الملك أذلة لأنهم كانوا ملوكاً ، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة ، والصغار يكون بالأسر أو القتل .
ثم التفت سليمان حوله وقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] .

هذه أيضاً من إلهامات النبوة ، فكأن الله أعلمه أن القوم بعد أن رد إليهم هديتهم ، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه ، فكأنه قد علم أنهم سيأتون إليه ، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه ، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويتطلب قدرات خاصة ؛ لذلك لم يتكلم إنسان عادى ؛ لأن هذا ليس فى استطاعته ؛ لأن القوم فى طريقهم إلى سليمان .

ومطلوب من الذى يقوم بهذه المهمة أن يذهب إلى سبأ ، ويحمل العرش ، ويعود به إلى سليمان قبل أن يصل القوم إليه ، فهذه مهمة شاقة لا يقدر عليها إنسان عادى ، لذلك لم يتكلم الإنس العادى ؛ لأن هذه مسألة ليست فى قدرته ولم يتكلم الجن العادى ؛ لأنها أيضاً فوق قدرته .

إنما الذى تكلم عفريت من الجن ، قال العفريت : ﴿ أَنَا ءَأِيك بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكُمْ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٣٩] .

هنا القرآن لم يخبرنا أن أحداً آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَأِيك بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] .

العلماء قالوا : من الذى عنده علم من الكتاب ؟

٣٧٧ من نعم الله على سليمان عليه السلام

أولاً : ما هو الكتاب ؟ قالوا : هو اللوح المحفوظ يعلم الله فيه بعض خلقه أسرار الكون ، فإذا كان العفريت - وهو مكلف - يستطيع أن يأتي به إليه قبل أن يقوم من مجلسه ، فالذى عنده علم من الكتاب أسرع منه ؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن بدليل أنه قال : ﴿ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، والطرف يرتد في أقل من كلمة .

بعض العلماء قالوا : إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أعطاه الله من أسرار قوته .

وآخرون قالوا : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، فكأن العفريت لما قال له : ﴿ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

فهو إذن .. سليمان ، لماذا ؟ قالوا : لأنه لو كان هذا الرجل واحداً غير سليمان ، فمعنى هذا أن له تفوقاً في معرفة الكتاب قبل سليمان .

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم : إن هذه عظمة لسليمان ؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم ، والمزايا لا تقتضى إلا فضيلة ؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره الله لخدمة سليمان .

وليس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفاً بكل شيء ، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهراً فى بعض ما يجيده الصبية فى الصناعات اليدوية مثلاً .

فمن عظمة سليمان أن الله سخر له كل هؤلاء .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَفُورٌ كَرِيمٌ ﴾ .

من نعم الله على سليمان عليه السلام

العرش جاء واستقر عند سليمان فأمر بنصبه وتجهيزه ؛ لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق ، وهو يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً ، فأمر بأن ينكروا عرشها ، فقال لهم : ﴿ قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٤١] .

هنا بلقيس أجابت إجابة دبلوماسية كما قلنا فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وقول سليمان : ﴿ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ أى أتهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المنكر - وهو عرشها - أو تهتدى إلى أن الذى صنع ذلك إنما يكون مؤيداً من الله بأسرار الكتاب ؛ فنقل العرش بهذه السرعة فتؤمن أم تكون من الذين لا يهتدون فلما قيل لها : أهكذا عرشك قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وقول الله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ إن كان هذا الكلام تكلمه بلقيس (١) ، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة ، وعلمت أنه نبي خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة ، وقال لهم : بل أنتم بهديتكم تفرحون . إلى آخر هذه المواقف ، فكأنها تقول له : نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبي وأسلمنا . أو أن الكلام كلام سليمان عليه السلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل : ٤٣] .

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ مناقدين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال .
فتح القدير [١٣٧/٤] .

من نعم الله على سليمان عليه السلام ٣٧٩

أحد عشر عاماً ، فلما خرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما :
ماذا قضى أبى ؟ قال له : قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم .
وتأويل ذلك : ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذى أكلته الغنم ، يساوى
قيمة الغنم ، فحكم هذا الحكم .

لما قص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل هذا ظلم أو جور ، ولكن
قال : هناك حل أرفق .. فلما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه ، وقال له :
ما هو الأرفق الذى تراه فى هذه القضية ؟ قال له : نعطي الغنم لصاحب الزرع ،
فيستفيد بلبنها وأصوافها ، ونترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر ،
وتصبح كما كانت قبل اعتداء الغنم عليها ، وعندئذ يأخذ صاحب الغنم
غنمه ، ويأخذ صاحب الأرض أرضه .

فربنا هو الذى أفهم حل هذه المسألة لسليمان ، وهذا ليس طعنأ فى داود ؛
لأن الله أتى كل واحد منهما حكماً وعلماً .

كأن الله سبحانه يريد أن يبين لنا كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كل
أهل الأرض وهذه القصة أخذت بها القوانين الوضعية ومحاكم الدرجة الأولى
والثانية والاستئناف والنقض فإياك أن تفهم أن محكمة الاستئناف حين ترد
حكم محكمة الدرجة الأولى أنها تطعن فيه ، لا ، ولكنها رأت القضية من
جانب آخر غير الذى أخذت به المحكمة الأخرى .

إذن .. الاستئناف مأخوذ من قول الله سبحانه ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ،
وليس هناك طعن فى أحد ، فالذى عدل لداود ابنه سليمان ، ولا أحد يحب
أن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه .



نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام (١)

زكريا هو الذي كفل مريم وقام على خدمتها ؛ وكان الله تعالى اختاره لهذه المهمة ؛ لأن القوم حينما تسابقوا إلى كفالة مريم واستهموا على ذلك ، كان هذا الشرف من نصيب زكريا عليه السلام .

(١) هو نبي الله زكريا بن برخيا ، ويقال ابن دان ، ويقال : ابن لدن ، بن مسلم ابن صدوق ابن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة ، ينتهي نسبه إلى سليمان ابن داود عليهما السلام . هو أبو يحيى النبي سمي الله ، عليهما السلام ، وقد قيل غير ذلك في نسبه .

انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر [٣٨١/٥] ، وقصص الأنبياء لابن كثير [٥٩٥] . وهو الذي كفل مريم ابنة عمران أم نبي الله عيسى عليهما السلام ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ، فعلم أن الرازق للشئ في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدأ ، وإن كان قد طعن في السن ، وكانت امرأته عاقراً . فدعا ربه خفية ، فرزقه الولد ووهب له يحيى لم يكن له من قبل سمياً ، فورثه في النبوة والحكم في بنى إسرائيل .

واختلفت الرواية : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ، على روايتين فقيل : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن ، فأوحى الله إليه : لمن لم يسكن أتينك لأقربن الأرض ومن عليها . فأما زكريا فمات موتاً . فالله أعلم . [قصص الأنبياء : ٦٠٣] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » .

أخرجه مسلم [٢٣٧٩] .

وقال ابن كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى بسبب غلبه لهم في القرعة كما تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْ يَأْتِهِمْ بِكُفْلٍ مَرِيْمٍ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] =

نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام ٣٨٢

إذن .. فكل عطاء من الله هو هبة والأسباب لا تعطى أحداً ما يريد ، إن زكريا يقول : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ . وساعة أن تقول : من لَدُنْكَ ، فهو يعنى : هب لى من وراء أسبابك لماذا ؟ لأن الكل من الله ، ولكن هناك فرقاً بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاماً ليتعلم ، وهناك إنسان ينعم الله عليه بموهبة ما ، وساعة أن تسمع ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ فاعلم أنه قد انزلت الأسباب .

﴿ ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم : ٢] ، وهذه الرحمة جاءت حين : ﴿ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ أى فى هذا الوقت الذى نادى فيه ربه هذا النداء الخفى ، إن النداء لون من الطلب ، ولكنه طلب مجرد الإقبال أن يقبل عليك والإقبال من أجل شىء ستكلم فيه أنت بعد ، فإذا ناديت ربك أيصح أن هذا المعنى ؟ لا . إن النداء بالنسبة لله تعالى المراد بها الدعاء ، وإياك أن تظن أن الله يحتاج إلى رفع الصوت لكى تسمعه ، ولذلك قال نداء خفياً لأن السر والجهر عند الحق سواء .

وزكريا فى نداءه الخفى لله كان يطلب منه أن يعطيه ولدًا وعلل الطلب بأنه بلغ من الكبر عتياً وأن امرأته كانت عاقراً فكأن الأسباب الموهوبة للخلق جميعاً معطلة عنده ، ولذلك فلا ملجأ إلا إلى الله ليخرق الناموس ويخرق القانون . وهو يطلب الولد - بعد أن بلغ هذه السن وصارت امرأته عاقراً - لعدة دينية .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِنُّ وَيْرِيثُ مِنْ ءَالٍ يَعْقُوبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾ [مريم] .

٣٨٥

 نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام

إذن .. شفقة بالولد لأنه لم يأمن القوم الذين يأتون من بعده وهم مواليه من عمومته أو أبناء عمومته لأنهم كانوا أشرار فلا يأمنهم على حماية منهج الله من الإفساد فهو يريد ولدًا صالحًا يأمنه على حمل منهج الله من بعده .
وكلمة يرثني يفهم منها الناس أنها وراثة المال ، ولكن الأنبياء لا يورثون ، فالنبي ﷺ يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »^(١) حتى تكون دعوته خالصة لوجه الله فلا يستفيد أبناءهم من بعدهم ولا حتى أقاربهم .

فالإرث هنا ليس المقصود به المال ولكنها وراثة الدين والعلم الذي كان في آل يعقوب .

وحشيات النداء : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ ، الوهن هو الضعف ، وكلمة : ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ نحن نعرف أن لكل شيء من الأشياء قوامًا في الصلابة والقوة ، إن كلمة ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ معناها : ياربي لم يبق عندي إلا المخزن الأخير لاستبقاء الحياة ، وهذا أمر مدفون لأنه مغطى بالجلد ومتوارى تحت الثياب فجاء بأمر ظاهر وواضح فقال : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ومعناه أى أبيض شعر رأسه وشبهه باشتعال النار ، وهو دليل ثان على الضعف أى أنه فى منتهى الضعف ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَايِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . أى لم أكن فيما مضى شقيا بدعائى لك لأنى مستجاب الدعوة عندك فكما أكرمتنى سابقًا ففى هذه المرة لا تخلف عادتك معى .

وزكريا جاء بأمر خاص به ونحن نعلم أن التكاثر فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، فقال له يا رب العيب منى ومن زوجتى فأنا وهن العظم منى

(١) ذكره الحافظ فى الفتح [٩/١٢] وعزاه للنسائى ، والحميدى .

القول الحق هنا بأن الملائكة هي التي نادته ؟ لأن الصوت قد جاء لذكريا من جميع الجهات .

لقد نادته الملائكة وهو فى أروع لقاءاته مع ربه ، فحينما دعا ربه أخذ ما علمه الله للأنبياء قبله إذا حذبهم أمر قاموا إلى الصلاة .

وهو على هذه الحالة من الخشوع والحضور وإقامة الصلاة استجيب لطلبه . قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ [آل عمران : ٣٨] والبشارة هي إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كان الله هو الذى يبشر فهو الذى يقدر ؛ لذلك المبشر به قادم لا محالة ، لقد قال له الله سأعطيك وزيادة على العطاء سماه الله ب « يحيى » .

وقوله تعالى : ﴿ يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبْشُرُكَ بِعَلْمٍ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَكَ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] ، وكلمة السمي اختلف العلماء فى معناها فقالوا لم نجعل له سميا أى نظيرا ، ومثلا وشبيها .

ولكن المعنى الأقرب هنا ، لم نجعل له من قبل سميا أى واحدا على اسمه ، والناس يقولون فلان سمي فلان أى أن اسمه على اسمه ، يعنى اسم كل واحد منهما مثل اسم الآخر .

فهذا أول اسم وضعه الله لابن ذكريا ولم يكن أحد قبل ذلك قد سمي يحيى ، وفوق كل ذلك ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] ولننظر إلى دقة البلاغ فى قوله : ﴿ يَحْيَى مُصَدِّقًا ﴾ هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله ، ودليل على أنه سيعمل الطاعات وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ؛ فهو عليه السلام أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام .

نبى الله ذكريا ويحيى عليهما السلام

عتيا ، فهو دعا ربه أن يمنحه مولوداً يرث النبوة ، فلما بشرته الملائكة أن الله سيهبه غلاماً اسمه يحيى ، تعجب من هذا الأمر واستغرب كيف يعطيه الله غلاماً ؟!

وهو الذى تقدم به العمر وامرأته ، لم يصدق البشرى من فرط سعادته ، فأراد أن يتأكد منها ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرًا قِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨] .

فأوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرفها ؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل ، الذى قال له : ﴿ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ ، ولكن من أين تعلم زكريا أن الله يعطى وإن عزت الأسباب ؟ عرف هذا لأنه كان موصولاً بالله عز وجل واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

فالله سبحانه وهب لزكريا غلاماً رغم تعطل الأسباب ، وفوق ذلك هو الذى سماه ﴿ يَحْيَى ﴾ ، إن لله سرا فى هذه التسمية .
﴿ يَحْيَى ﴾ شاء له الله أن يموت شهيداً ؛ حتى يظل حياً وكلمة : ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ : معناها أن المولود لم ينجى عن طريق القانون التكويني للناس ، ولكن جاء هبة من الله رغم كبر والده وعقم أمه (١) .

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾
تفسير ابن كثير [١٨٩/٣] .

نى الله زكريا ويحيى عليهما السلام ٣٩٠

ومعنى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَمْ زَوْجَكُمُ ﴾ ؛ أى جعلناها صالحة للإنجاب بعد أن كانت عاقراً .

ربنا سبحانه بين لنا بعد ذلك العلة من هذا العطاء الذى وهبه لزكريا رغم كبر سنه وعقم زوجته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴾ ولذلك فعلى المسلم الذى يتلى بالعقم ويستنفذ الأسباب أن يكثر من فعل الخيرات ويدعو الله سبحانه ويلج عليه فى الدعاء .

ومعنى : ﴿ خَلِيعِينَ ﴾ أى راضين بقدرهم فى وجود العقم ، ولا يرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، فإذا كنت عقيماً فلا تبخل بمالك وتضن على المحتاجين ، وانظر إلى أولاد الناس على أنهم أولادك ، وانزع من نفسك الحقد والكراهية التى قد يسببها لك عدم الإنجاب ، وسارع فى الخيرات ، وادع الله سبحانه أن يعطيك من فضله ؛ لأنه هو سبحانه ولى ذلك والقادر عليه ، وبعد ذلك اخشع لله ، ومعنى الخشوع : هو الاطمئنان لمقادير الخالق فى الخلق ، فترضى بقدر الله فىك بأنك عقيم ، وبعد هذا الرضا تدعوه أن يهبك من فضله ذرية صالحة مع رضائك التام وتسليمك بقدر الله ، مع يقينك الكامل فى قدرته على كل شئ ، وحكمته البالغة فى كل ما كتبه على الناس من أقدار .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ط قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [آل عمران : ٤١] ؛ إن زكريا يطلب علامة على أن القول انتقل إلى

= قيل : إنما سماه يحيى ؛ لأن الله تعالى أحياه بالإيمان ، وسماه بهذا الاسم قبل مولده .
تفسير الماوردى [٣٩٠/١] ، وانظر تفسير ابن كثير [٣٤١/١] ، وغيرهم .

نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام ٣٩١

فعل ، لماذا يطلب علامة إذا كان الله قد : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم : ٩] .

لقد كان هذا القول تأكيداً لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر ، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب : ﴿ ءَايَةٌ ﴾ أى علامة على أن : ﴿ يَحْيَى ﴾ قد تم إيجاده فى رحم أمه ، فكانت استغاثة زكريا : يا رب لا تتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسوسة ؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر ، إنه يطلب ﴿ ءَايَةٌ ﴾ ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب ﴿ ءَايَةٌ ﴾ عن شك فى قدرة الله ، معاذ الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها .



نبي الله عيسى عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .

نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو : « أبو الأنبياء » ومن آل إبراهيم ، اصطفاه الله تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران ، وكلمة « عمران » ترد في القرآن اسم لشخصين :

الأول : « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام .

والثاني : « عمران » والد السيدة مريم عليها السلام .

« عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه « يصهر » واسم جده « قاهت » ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ومن بعده « إسحاق » ومن بعده « إبراهيم » .

وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أى العمرانين ذكره الله تعالى هنا ؟

ولما اختلفوا لم يفتنوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون ، بل عمران والد مريم أم عيسى عليهم السلام^(١) .

(١) قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام . قصص الأنبياء [٦١٠-٦١١] .

نبي الله عيسى عليه السلام ٣٩٣

وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما فى بطنها محرراً ، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا ، لأن النذر كما نعلم يظهر حب العبد لربه ولأوامره ، فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك ، والمقصود بقوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيْ ﴾ القبول هو أخذ الشيء برضا لأنك قد تأخذ بكره أو تأخذ على مضض أما ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيْ ﴾ فذلك يعنى أن الأخذ بقبول ورضا ، واستجاب الله لهذا الدعاء ، قال تعالى : ﴿ فَلَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَقْبُولُ حَسَنٍ ﴾ : الحسن هنا هو زيادة فى الرضا لأن كلمة : ﴿ يَقْبُولُ ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة ﴿ حَسَنٍ ﴾ توضح أن هناك زيادة فى الرضا ، وذلك مما يدل أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا وبشئ حسن .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ هذا القول من امرأة عمران ، لأنها كانت قد قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ لخدمة البيت ، وقولها : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ ، تعنى أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت ، فلما جاء المولود : ﴿ أُنْثَىٰ ﴾ ففهمت أن ذلك لا يؤدى إلى الغرض المطلوب الذى أرادته ، وهو خدمة البيت فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ ، ولكن الحق يقول بعد ذلك : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحصر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق .

الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ فهل هذا كلامها أم من كلام الله تعالى ؟ إما أنه كلام الله تعالى ، فكأنها لما قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ أى أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

نبي الله عيسى عليه السلام 396

وقالت امرأة عمران : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة أن تكون فى الخدمة لبيت الله تعالى ، لأنها جاءت أنثى ، تمت امرأة عمران وتفاءلت أن تكون المولودة طائعة عابدة ، فسمتها مريم لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة ، فما فات المولودة فى خدمة البيت ، فليكن فى خدمة عقائدها وخدمة منهجها فى ذاته وأول ما يقدم العبودية هو الشيطان فإنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية ، إن الإنسان يريد أن يصير عابداً فيجىء الشيطان ليزين له المعصية لأجل ذلك أرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزعات الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزعات الشيطان وقد تمت لمريم أن تكون عابدة ، لقد كانت امرأة عمران تمتلك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المنهج العبدى كله فقالت : ﴿ ... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ فنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْجَبَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ... ﴿ ٣٧ ﴾ ^(١) [آل عمران] .

فلما نذرتها أمها للخدمة ببيت المقدس ، شاء الحق سبحانه وتعالى بعد أن كانت تفرغ للبيت المقدس مكاناً ، أفرغت نفسها لخدمة البيت المقدس قيماً ، ففرغت للقيم الدينية التى أنشئ من أجلها البيت المقدس ، حتى إنها هجرت أهلها وذهبت إلى مكان بعيد تخلو فيه بعيداً عن الناس ، قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴾ [مريم : ١٦] .

(١) أخرج البخارى [٣٤٣١] ، وأحمد فى المسند [٢٧٤/٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة وقرعوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

٣٩٧ نبي الله عيسى عليه السلام

وقوله تعالى : ﴿ أَنْتَبَذَتْ ﴾ أى : ابتعدت ، نبذت نفسها عن الناس وعن أهلها ، والإنسان يأنس بأهله ، ولكنها ابتعدت عن أهلها ، واتخذت من دونهم حجابًا أيضًا ، ولكن بعدها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد فى هذا المكان ، أى أرادت أن تعزل نفسها عن دنيا الناس وعن أنسابهم ، لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى شرقى بيتها ، أو شرقى البيت المقدس ، واختارت جهة المشرق ، لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس . إذن .. كانوا يتفاءلون بالنور حين يأتى من المشرق ، لذا اتخذت مريم مكانها ناحية المشرق .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ [مريم : ١٧] الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجبًا له من غيره ، وحاجبًا لغيره عنه ، والحجاب مرة يكون مفردًا فهو ساتر فقط ، ومرة يكون مركبًا ، مثل الستائر التى نراها على النوافذ ، مرة تكون الستارة مفردة ، ومرة تكون مكونة من طبقتين حتى تحجب الضوء . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] .

قال تعالى : ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ مع أن الحجاب يكون ساترًا ، ولكنه هنا مستور بحجاب آخر ، وقلنا مثلها الظل الظليل لأن الظل يحجب عنك الشمس ، ولكن لكى يحجب الظل عنك الشمس بأشعتها وحرارتها ، فلا بد أن يكون مركبًا ، أى أن الظل الذى يحجب عنك الشمس مظلل أيضًا فهو ظل ظليل ، أى : ظل مظلل .

نبي الله عيسى عليه السلام ٣٩٨

يقول تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۚ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِمُ أَيَّ لَكِ هَذَا ۗ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

إذن .. فرعاية زكريا لها بأمر من الله ، والدليل على ذلك أنك ساعة تجد قرعة أو سهامًا فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله ، فعندما نختلف على شيء ، فإننا نجرى قرعة ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج ، ذلك لنمنع هوى البشر وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم .

وقول زكريا عليه السلام لمريم : ﴿ أَيُّ لَكِ هَذَا ۗ ﴾ يوجب على كل إنسان وكله الله تعالى على جماعة ، ورأى عندهم ما هو فوق حدود الدخل ، فلا بد أن يسأل : من أين هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت إنما يأتى من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟ إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته قد اشترت شيئًا ما مثل فستان مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ، أو يجد ابنه قد اشترى شيئًا ما ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، أو وجد فى بيته شيئًا لم يحضره ، هنا يجب أن يتوقف الأب أو الولي ليسأل : من أين لكم هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الانهيار والتحلل ، فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالته من أين لك هذا ؟ لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر .

وقول زكريا عليه السلام : من أين لك هذا ، هو سؤال عن مصدر هذا الرزق فلننظر إلى إجابتها : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ ۚ ٣٩٩ نبي الله عيسى عليه السلام

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَيْبِ ذَاتِ قَرْيَةٍ وَّمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .
أويناها : من الإيواء ، ومعناها أن إنسانًا اضطرته الظروف واحتاج إلى مكان
يعيش فيه فدبر مكانًا آوى إليه .. ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة ،
وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك ، فلا بد أن يهيب الله لها
مكانًا تأوى إليه . وهذا المكان لا بد أن تكون فيه مقومات الحياة .

قوله تعالى : ﴿ ذَاتِ قَرْيَةٍ وَّمَعِينٍ ﴾ أى : استقرار ، لأن مقومات الحياة
فيها موجودة لا تنقطع .

وقوله تعالى : ﴿ وَّمَعِينٍ ﴾ أى : ماء معين يرى بالعين .
يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥] .
كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم : هى قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ
اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وفيها عرفت طلاقة قدرة
الله سبحانه تعالى .

والمرحلة الثانية : فى معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام ، وتأكيدها
الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وكان ذلك إيناسًا لها .

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة ، وهى قول الحق تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ
الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، والبشارة لا تكون إلا بخبر
عظيم مفرح ، وقد يتساءل واحد : ماذا يقصد الحق بقوله : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؟
والإجابة هى أن الحق سبحانه علمنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

نبى الله عيسى عليه السلام 402

وقوله تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .
و ﴿ الْمَهْدِ ﴾ ما أعد كفراش للوليد أى أنه يتحدث وهو طفل ، و ﴿ وَكَهْلًا ﴾
أى : فى حالة تقدم العمر به .

ولقد أورد الحق سبحانه ﴿ الْمَهْدِ ﴾ و ﴿ وَكَهْلًا ﴾ رمزين لشيء : هو
أن عيسى بن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون فى مهد ، ويطرأ عليه
مرة أخرى أن يكون كهلاً ، وما دام فى عالم الأغيار فلا يجب أن تفتنوا فيه ،
وعلى ذلك لا يصح أن تقولوا : إنه إله أو ابن إله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَتْحَهَا فنَفَخْنَا فِيهَا مِن
رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

اللَّهُ تعالى اصطفى مريم من بين نساء العالمين ، لتلد بدون أن يقربها بشر ،
فهذا نوع من الاصطفاء ، فالله سبحانه كما اصطفى الأنبياء من بين خلقه ،
اصطفى مريم من بين نساء العالمين .

ومعنى : ﴿ فنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ : أن هذه المسألة لم تتم بقانون
التكاثر العادى ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يخبرنا أنها النفخة التى نفخها فى
آدم عليه السلام فجاءت بروح واحدة .

معنى : ﴿ أَحْصَيْتَ فَتْحَهَا ﴾^(١) أى : عفت نفسها ولم تمكن منها بشراً .

(١) وقيل : المعنى : وجعلناها آية ، وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها .

تفسير القاسمى [٤٣٠٥/١١ ، ٤٣٠٦] .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : كتب قيصر إلى معاوية : سلام

عليك . أما بعد .. فأنبئنى بأكرم عباد الله عليه ، وأكرم إمامه عليه ؟

فكتب إليه : أما بعد .. كتبت إلى تسألنى ، فقلت :

أما أكرم عباده عليه فآدم ، خلقه بيده ، وعلمه الأسماء كلها .

نبي الله عيسى عليه السلام

تبغى الرجال ، وتتخذ مكانًا معروفًا لممارسة هذا الإثم ، وهناك معنى آخر للكلمة : ﴿ بَغِيًّا ﴾ أى : مبالغة فى البغى ، وهو الظلم .

وبعد ذلك رد عليها الملك بقول الله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ۗ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مرم: ٢١] .
كما قال الحق فى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام بعد أن تعجب زكريا وقال : ﴿ وَكَانَتْ أَمْرًا عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مرم: ٨] ، قال له الحق تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

وأنت حين تستعجب من أمر جاءك ممن هو أعلى منك تقول : كيف يحدث هذا ؟ فيقول لك هو كذلك ، أى أنه كلام أصدره من يملك التنفيذ . هذه هى إرادة الحق سبحانه .

إذن .. فلا تقولن : إن اكتمال الذكورة والأنوثة يحدث الحق سبحانه بهما الخلق ، فالخلق يحدث بإرادة الخالق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) .

(١) قال القرطبي : فروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ نفخ فى جيب درعها وكمها ، وقال ابن جريج ، قال ابن عباس : أخذ جبريل ردن (١) قميصها بأصبعه ، فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى ، وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى (٢) .

المعجم الوسيط [٣٣٩] .

(١) الردن : الكم .

(٢) انظر تفسير القرطبي [٩١/١١] .

وقوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ﴿١١﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴾ [مرم] .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى حملت به ، ﴿ فَانْتَبَذَتْ ﴾ بعدت ، ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى بعيدًا لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يطلع على سرها أحد ، وكلمة : ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أى جعلها تجيء ، لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته ، ولكن السيدة مريم دفعها المخاض إلى المجرى إلى جذع النخلة ، أى أتى بها المخاض إلى جذع النخلة ، ﴿ الْمَخَاضُ ﴾ : هو الرجوع الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه « الطلق » ، فحين جاءها المخاض أتت إلى جذع النخلة ، لأن ألم الوضع يجعل صاحبه تمسك أى شىء حولها تستند إليه من شدة الألم ، وربما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ جِذْعُ النَّخْلَةِ ﴾ ولم يقل : جذع نخلة مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة ، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يمتد من جذرها حتى الجريد^(١) .

= وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت بذلك .

وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل ، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته ، فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء وبعضه فى أرحام الأمهات ، فإذا اجتمع الماءان صار ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعًا فى مريم ، بعضه فى رحمها وبعضه فى صلبها ، فنفخ فيه جبريل لتتهيج شهوتها ، لأن المرأة ما لم تتهيج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل ، وقع الماء الذى فى صلبها على الماء الذى فى رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ يعنى إذا أراد أن يخلق خلقًا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

(١) والجذع : أحد جذوع النخلة ، وقيل : هو ساق النخلة ، والجمع أجذاع وجذوع ، وقيل لا يبين لها جذع حتى يبين ساقها .

لسان العرب [٤٥/٨] .

لما حدث هذا الأمر لمريم ، وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومخاض وولادة ، حدث لها نوع من النزوع الانفعالي ؛ لأنها في البداية استغربت الأمر ، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسنى بشر ولم أك بغيا ؟! وبعد ذلك حملت ، والحمل فى بطنها مستور ، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر ، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل فهذا شىء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف .

ولذلك تجد النزوع الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها : ﴿ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] ، ﴿ يَلَيْتَنِي ﴾ هذا تمن ، إنها تتمنى أن تكون قد ماتت قبل أن يحدث هذا الأمر .

ومعنى : ﴿ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ النسى : هو الشىء التافه الذى لا يؤبه له وهو

عادة ينسى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهَزَيْتِ لِيكَ بِجَنِّجِ النَّخْلَةِ تَسْقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم] .

والرطب هو التمر الناضج ، وكلمة : ﴿ جَنِيًّا ﴾ تعنى أنه استحق أن يجنى ، أى إنه نضج واستوى . إذن .. لا بد من التوكل على رب الأسباب ، والشاعر

المسلم الحصيف صاغ هذا المعنى فقال :

توكل على الرحمن فى الأمر كُله	ولا تَوغِبْ بالعجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم	وهزى إليك الجرج يساقط الرطب
ولو شاء أعطاها بغير هزة	جنته ولكن كل رزق له سبب

نبي الله عيسى عليه السلام

 ٤١٠

وهنا قال الحق سبحانه لها : ﴿ وَقَرَىٰ عَيْنًا ۗ ﴾ ؛ وهذا معناه السرور وكلمة قرى أى : اسكنى ، وسكون العين على مرأى واحد عند العرب ، دليل على أن العين صادفت مرأى جميلاً جداً لا يغنى عنه أى مرأى آخر ؛ ولذلك تظل ناظرة إليه ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم : لا تحزنى ولتقر عينك بما أنت فيه ، فليس هناك أجمل ولا أفضل من أن يصطفيك الله ويجعلك سيده نساء العالمين ، فأى سعادة وأى مكانة وأى شرف أنت فيه .

ويقول تعالى : ﴿ فَادَّهَنَّا مِنْ تَحْتِهَا ۗ ﴾ [مريم : ٢٤] ليس المقصود به جبريل ، ولكن المقصود وليدها عيسى عليه السلام ، بدليل أن قومها حين استنكروا عليها وجود طفل لها وهى لم تتزوج ولم تكن بغياً ، وسألوها عن ذلك ، فأشارت إليه ؛ ليتحدثوا معه أى إن هذا سيحييكم ، فكيف عرفت أن هذا الرضيع يتكلم ؟ لأنه سبق وأن كلمها وطمأنها وقال لها : لا تحزنى وقرى عينا . ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۗ ﴾ يتأخت هنرون ما كان أبوك أمراً سوياً وما كانت أمك بغياً ﴿ ۗ ﴾ . فهى التى ذهبت به إليهم ، فلم تتوار عن عيون القوم أو تهرب بوليدها إلى مكان بعيد ، ولكنها ذهبت إليهم بنفسها ؛ وذلك لأن معها الحجة والبرهان ، ولأن موقفها سليم ، وهى واثقة من تأييد الله تعالى لها ، فجاءت إلى قومها تحمل وليدها على صدرها ، فلما رآها القوم على هذه الحالة قالوا : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۗ ﴾ ؛ لأنهم يعلموا أنها غير متزوجة !!

يحكى أن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده فى باريس عن حديث الإفك الذى يقوله المنافقون على السيدة عائشة فقالوا له : بأى وجه قابلت عائشة قومها بعد حديث الإفك ؟ فقال لهم : بالوجه الذى قابلت به

٤١١

 نبى الله عيسى عليه السلام

مريم قومها حين جاءتهم تحمله !! أى بوجه الواثق من البراءة ، وأن الله لا يمكن أن يسلمها ، أو يخذلها ؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضی الله تعالى عنها لما ظهرت براءتها وأنزل الله فيها قرآنا ، قالوا لها : قومي إلى النبي ﷺ فقالت : لا ، وإنما أحمد الله الذى برأني .

فكون مريم تأتي بوليدها إلى قومها فهذه دلالة على أنها واثقة أن الحجة ستوفىها بالوليد ، وإلا فكان المفروض أن تخجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد ؛ لأنها واثقة من نصر الله ومعونته .

وكلمة : ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ ؛ الفرى للجلد : تقطيعه ، والأمر الفرى هو الذى يقطع عادة ألفها الناس ، أى لم يحدث مثله ، أو أنه من الفرية وهى تعتمد كذب ، وقولهم : ﴿ يَتَأَخَتَ هُرُونَ ﴾ : مبالغة فى التعبير ؛ لأنهم عرفوها عابدة قانتة فكيف يحدث منها ذلك؟! فهذا تقرير لها ؛ لأن أباه لم يكن رجلاً سيئاً ولا أمها أيضاً ، والسوء هو الرجل الذى إذا صحبتته نالك سوء من صحبتته ، فالأب كان مستقيماً ، والأم كذلك فمن أين جاء لك هذا؟ وهذا يدل على أن خلق الأسر يؤثر فى الأبناء ؛ فحين ينشأ الابن فى بيت ملتزم ويجد نفسه محوطاً بالعناية والتوجيه السليم ينشأ مستقيماً ، فكأن القوم استغربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القانتة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين ، فكيف يحدث منها ذلك .

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم ، وكثر الاستنكار من القوم ، ماذا فعلت؟ قال تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى : أشارت إلى وليدها ، فكأنها تقول لهم : اسألوه ! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم ؛ لأنه سبق أن كلمها قبل ذلك ، فاطمأنت على أن تحمله نبي الله عيسى عليه السلام

يقدر على هذا السبب كل طغيانكم وكل حقدكم ، فالطفل الذى تكلم فى المهد كان معجزة أجمت أقوى الأقوياء فيكم .

وأنتم أيها النصارى - كتبة الأناجيل - لماذا لم تذكروا كلام عيسى عليه السلام فى المهد؟ وبينما القوم على هذه الحال ، من مفاجأتهم بما تحمل مريم ، ثم من استنكارهم الكلام مع طفل رضيع ، نطق عيسى عليه السلام قائلاً لهم :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ ﴾ [مريم] .

فكأنه يقول لهم : لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم ، وأول شىء قاله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ واستهلاله كلامه بعبوديته لله تعالى ، دليل على أنه قد يقال إنه ليس عبدًا وإنه إله أو شريك لله سبحانه وتعالى ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد الله تعالى ، ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم فى المهد ، فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصمتون ولا ينطقون بما قاله أبدًا ، لأن كلامه ينفى معتقدهم . لم يقل : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ فقط ، ولكن أضاف شيئًا آخر فقال : ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ولكن كيف يؤتية الكتاب وهو ما زال طفلًا فى مهده ؟ قالوا : كان هذا أمرًا ثابتًا ومفرغًا منه ، ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهل لأن يتحمل أمانة السماء والأرض ، وجعله نبيًا ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن ، وفوق ذلك : جعله مباركًا أينما كان ، فهذه الصفات هى أنه عبد الله ، أتاه الكتاب والكتاب لم يأت بعد ولكنه سينزل فى المستقبل ، وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلا بد أنه ملقن ، والذى يلقنه هو الذى سيؤتية هذه الأشياء وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك قال أيضًا : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾

نبي الله عيسى عليه السلام

سلامًا ، لأن هذا الحديث لو وقع مع بنت أو سيدة فى أسرة أخرى كان من الممكن أن يقتلوا ويقتلوا وليدها ، ولكنها مرت بسلام ، والسلام عليه أيضًا يوم يموت ، وهنا خص يوم مولده ويوم موته بالسلام لأن الميلاد مقابلته الموت ، والسلام عليه يوم موته لأنهم سيأتون ؛ ليأخذوه بغية صلبه وقتله ، وبعد ذلك يشبه لهم أنهم صلبوه وقتلوه ولكن الله تعالى نجاه منهم ومن كيدهم ورفع الله سالمًا من كل سوء .

وذكر السلام على نفسه يوم يبعث حيًّا ؛ لأنه ليس هناك رسول سيسأله الله هذه الأسئلة إلا عيسى عليه السلام ؛ وهى قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعَلَّمْتُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [المائدة] .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره الله عز وجل به ، ولكن هذا تقريع لمن يزعمون أنهم أتباعه ، وقد حرفوا رسالته وجعلوه إلهًا من دون الله .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم] .

كلمة : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى : الذى تقدم وهو قصة عيسى ابن مريم ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ : أى يقولها الله قول حق ، أى هذه قصة عيسى ابن مريم يخبرنا بها

عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴿ [المائدة : ١١٠] .

هنا فى الآية نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ،
لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك فكأنه حينما قال : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ
مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ كأنه صار
طيرًا من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها ، ولكن : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ تجمع بين
الشكل وصناعة الطين كهيئة الطير ، فيكون طيرًا بإذن الله نعم إن عيسى لم
يكن ليجتريء ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله .

لقد جاءت كلمة : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ من قول عيسى وعلى لسانه ، فهذا
اعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، ومن معجزاته أيضًا ما ورد فى قول
الله تعالى : ﴿ وَأَبْرِمُ الْآكُمَةَ وَالْأَبْرَمَ وَأُخِي الْمَوْتَنَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لماذا ؟
هذين المرضين بالذات ؟ لأنهما كانا من الأمراض المستعصية فى ذلك العصر .
والأكمه هو الذى ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى بعد ميلاده ، والبرص
هو أن تبيض بقعة من الجلد وإن كان صاحبه أسود . ثم تظهر بعد ذلك بقع
متناثرة فى جميع الجسم بيضاء اللون ، مما يدل على أن الجلد صار أبرص
ولون الجلد له كيماويات فى الجسم ، وكشف العلم المعاصر أن الملونات
للجلد هى غدد خاصة توجد فى الجسم واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت
الغدد الملونة عن إعطاء الألوان جاء البرص والعياذ بالله ، وهو مرض صعب لم
يكن باستطاعتهم أن يداووه . فلما أرسل الله تعالى عيسى ابن مريم إلى قومه
أعطاه الله سبحانه وتعالى الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب ، وجاء لهم
بآية فيه هى إبراء ماكانوا عاجزين عنه .

نبي الله عيسى عليه السلام ٤١٨

فَاللَّهُ رَبُّ لِي وَرَبُّ لَكُمْ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ مِنْهَجُ عِبَادَةِ اللَّهِ الْحَقِّ^(١)
 إِنَّا نَسْمَعُ لَفْظَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَإِنَّا نَتَخِيلُ عَلَى الْفُورِ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَةَ
 إِلَى الْغَايَةِ وَهِيَ أَقْصَرُ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةَ إِلَى الْغَايَةِ ، وَإِنَّا نَعْرِفُ أَنَّ الطَّرِيقَ
 تَصْنَعُ لِتَوْصِلَ إِلَى الْغَايَةِ ، وَحِينَ نَسْمَعُ كَلِمَةَ : ﴿ صِرَاطٌ ﴾ فَلْنَا أَنَّ
 نَفْهَمُ عَلَى الْفُورِ الْغَايَةَ الَّتِي نُرِيدُ أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا ، فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ :
 ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
 سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

أَيُّ أَقْصَرُ شَيْءٍ يُوَصِّلُ إِلَى غَايَةٍ مَطْلُوبَةٍ^(٢) ، وَمَا دَامَ هُنَاكَ طَرِيقٌ لِغَايَةٍ مَا
 فَلَا بَدَ لَنَا أَنْ نَحَدِّدَ الْغَايَةَ أَوَّلًا ، وَتَحْدِيدَ الْغَايَةِ إِنَّمَا يَهْدَفُ إِلَى إِضْوَاحِ السَّبِيلِ

(١) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
 صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مَفْتُوحَةٌ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ
 سُتُورٌ مَرْمُوحَةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ
 جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ
 الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيَحْكُ لَا تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجَهُ ، وَالصِّرَاطُ : الْإِسْلَامُ ،
 وَالسُّورَانِ : حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتُوحَةُ : مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ
 الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ : وَاعِظُ اللَّهِ
 فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ .

رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ [١٨٣/٤] وَاللَّفْظُ لَهُ ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ [٧٣/١] وَوَأَفَقَهُ الذَّهَبِيُّ .
 (٢) عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذَا
 سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا ، قَالَ : ثُمَّ خَطَّ خَطًّا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ السُّبُلُ ،
 وَلَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » . ثُمَّ أَقْرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي
 مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ .

رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ [٤٦٥/١] وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ شَاكِرٌ [٤٤٣٧] .

نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ٤٢٠

أمام الإنسان ، لسلك الطريق الموصلة إلى الغاية ، وهكذا يقول لهم نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [آل عمران : ٥١] .
 والعبادة هي إطاعة العبد لأمر المعبود^(١) ، ولا تظن أن العبادة كما يريد خصوم الإسلام أن يضللوا الناس ، بأن الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة ، وأن يقتصر الإسلام على أركانه وداخل جدران المسجد فقط ، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبديّة ، إن الأركان التعبديّة لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس ، حتى تقبل على العمل الخاص

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والوفاء بالعهد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء والشكر لنعمة ، والرضا بقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه وأمثاله ذلك هي من العبادة لله .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له ، والتي خلق الخلق لها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وكذلك قال هود وصالح وشعيب ، وغيرهم لقومهم .

العبودية [٢٣٠، ٢٤٠] .

واعلم أن العبادة أربع قواعد هي : التحقق بما يحب الله ورسوله ويرضاه ، وقيام ذلك بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب العبادة حقاً هم أصحابها .

تجريد التوحيد للمقرئ [٨٢] .

بعمارة الدنيا فالإسلام منهج حياة متكامل ، وكل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون وفق منهج الله ، فهي عبادة والأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه ، فجعلوا بابًا للعبادات وبابًا للمعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شىء يأمر الله به فهو « عبادة » إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

ولذلك قلنا : إن الله حينما يأمرنا بأمر ، فإننا نجد الأمر واضحًا ، مثال ذلك قول الحق : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] .

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، والأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ إنما يأخذ الإنسان من عمل هو البيع ، ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى الأمر بترك البيع دون غيره لوجدنا أن فى البيع قمة الأخذ المباشر للرزق ؛ فلم يقل الله - مثلاً - : « اتركوا الصنعة واتركوا الحرث » ، ولكن الحق سبحانه وتعالى جاء بالبيع هنا ؛ لأنه قمة النفعية العاجلة ؛ لأن الذى يحرق ويزرع ينتظر وقتًا حتى تظهر الثمار ، لكن الذى يبيع شيئًا فإنه ينال المنفعة فورًا ؛ لذلك جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ولذلك يتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى هى أقل نفعية من البيع لأداء الصلاة .

إن أمر الحق سبحانه قد جاء هنا بترك البيع ؛ لأن للبيع نفعية مباشرة ، والبيع هو مبادلة السلع بأثمانها ، والسلع هى نهاية كل عمل ، فالذى يزرع أيضًا يرجو الثمار ؛ لبيعه لمن يزرع والذى يصنع إنما يرجو إتمام صنعته ؛ لبيعه لمن

وَرَبُّكُمْ ﴿١﴾ إن في ذلك تحديراً من أن يقول اتباع عيسى أى شىء آخر عن عيسى ، غير أنه عبد الله ، مأمور بالطاعة والعبادة له سبحانه ؛ لأنه وضع أمامهم المنهج فقال : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقول الحق : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ يدل على أن كل صاحب دعوة ، وكل صاحب مهمة وكل صاحب هدف ؛ لا بد أن يكون يقظ الإحساس ؛ لأن صاحب الدعوة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد يقول قائل : ولماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك من يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات^(١) ، فالظالم الذى يأخذ حق الآخرين اغتصاباً ، يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى الهداية وإلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب من ينطق هذه الكلمة ؛ لأنه يكره الكلمة وقائلها .

لذلك فالداعية مأمور من الله بأن يكون يقظاً .. لماذا ؟ لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها فإنه يغضب أناس آخرون ؛ ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، ولذلك فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحس ،

(١) مصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .
ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الرَّكَّةُ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

بى الله عيسى عليه السلام ٤٢٤

والحس معناه الأحاسيس الخفيفة الموجودة عند كل إنسان ونحن نسمى الأحاسيس الظاهرة منها الحواس الخمس : اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم . ورجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه ، حتى يعرف من الذى يجبن ويرتجف لحظة أن تأتي دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحس الراحة لدعوة الخير ؟ من الذى تتغير ملامحه لحظة أن تأتي دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحس الراحة لدعوة الخير ؟ من الذى تتغير ملامحه لحظة دعوة الخير ومن الذى يستبشر ويفرح ؟ إن رجل الدعوة عليه أن يكون يقظ الأحاسيس .

إن نبي الله عيسى عليه السلام عندما أعلن منهج الحق وجد أنصار الظلم ، وأنصار البغى غير مستعدين للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر ، لقد كان مليئًا باليقظة والانتباه فحينما بعثه الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور أحس منهم الكفر ، ولذلك أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة فقال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية ، والتضحية تكون بالنفس والنفيس .

لذلك لا بد أن يستشير من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة ، إنه لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ولتكون التضحية بإقبال النفس استجابة لدعوته عليه السلام . قوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ كلمة : ﴿ إِلَى ﴾ فى السؤال تفيد الغاية وهو الله تعالى ، أى من ينصرنى نصراً تصير غايته إلى الله وحده ، لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن واحد يدخل تحت لواء الدعوة من أجل الغنيمة ، أو يدخل آخر من أجل الجاه أو غير ذلك . إنه يسأل عن أهل العزم ، ليكون كل منهم متجهًا بطاقته إلى نصرة الله وحده .

٤٢٥ نبي الله عيسى عليه السلام

إذن .. هناك نصر من المؤمن لربه ، وهناك نصر من الله للمؤمن ، وهكذا يكون سؤال ابن مريم عليهما السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ قد أفاد المعنيين .

وكانت الإجابة : ﴿ قَالَكِ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامِنًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] . و ﴿ الْخَوَارِثُونَ ﴾ ^(١) مأخوذة من الحور وهو شدة البياض في العين وهم جماعة أشرقت في وجوههم سيم الإيمان ، فكان وجوههم مشرقة بالنور ، ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراق الإيمان في النفس ؛ ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد ﷺ فيقول : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ آثَرَ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

(١) قال القرطبي : والخواريون أصحاب عيسى عليه السلام وكانوا اثني عشرة رجلاً ؛ قاله الكلبي وأبو روق ؛ واختلف في تسميتهم بذلك ، وقال ابن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا صيادين .

ابن أبي نجیح وابن أوطاة : كانوا قصارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى وآخر ما دفعته إلى الخواريين وكانوا قصارين وصباعين ، فأراد معلم عيسى السفر فقال لعيسى عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتلك الصبغة فاصبغها . فطبخ عيسى حبا واحدا وأدخله جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك ، فقدم الخواري الثياب كلها في الحب فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛ فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه ، فعجب الخواري وعلم أن ذلك من الله ودعى الناس إليه فأمنوا به . تفسير القرطبي [٩٧/٤-٩٨] .

نبي الله عيسى عليه السلام ٤٢٦

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه .. ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ومكون من ذرات ، والأجهزة لكل منها مطلوبات ؛ وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد وحين تتجه كل الأجهزة إلى الله تعالى ملتزمة أمره ونهيه فإن الذى يحدث للإنسان هو إنسجام كل أجهزته وما دامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرة .

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

إذن .. فالخواريون قوم لهم إشارات انسجام النفس مع الإيمان أو هم قوم بيض القلوب ، معانيهم بيضاء ومشرقة ، ومنه كلمة « الحور » وهو شدة البياض فى العين ، والنبى ﷺ سُمى بعضاً من صحابته خواري رسول الله ، إنهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت^(١) .

وحين قال الخواريون : ﴿ تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ إن الواحد منهم يريد نصرة الله فينضم إلى كل ناصر للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة لله وهى الإيمان ، فما معنى الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا الإيمان فى عمومته ، ولو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسير فيه موصلاً إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه ، ومثال لذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط - مثلاً - لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، ولو لم أعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى فسوف أرسب لما ذاكرت .

(١) أخرج البخارى [٣٧١٩] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، بلفظ : « إن

لكل نبى حوارياً ، وإن حوارى الزبير بن العوام » .

إذن .. فكل أمر في الدنيا يتم بنائه على الإيمان ، لكن إذا قصد بالإيمان المعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وهي الإيمان بالله ولذلك فأسلحة الوصول إلى الله هي إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله .

ولذلك قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض في الرسول أن يبلغ القوم بلاغاً عن الله فيشهد عليهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] .

ولنا أن نلاحظ أن الحواريين آمنوا أولاً ؛ لأنه أمر غيبي عقدي في القلب ، ثم من بعد ذلك أسلموا ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه ؛ ولذلك فقولهم : ﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام : أن بلغنا كل مطلوبات الإسلام وقل لنا « افعل ولا تفعل » ، إنهم قالوا : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بما بلغهم من الله ، والمطلوب من نبي الله عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام .

وقال من بعد ذلك : ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] . وقد يكون إعلانهم الإيمان إيماناً برسالة سابقة ، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء برسالة من الله ، ومعنى أن رسولاً يجيء أن هناك أمراً

نبي الله عيسى عليه السلام ٤٢٨

أراد الله إبلاغه للناس . ونحن نعلم أن العقائد لا تتغير فيها وكذلك الأخبار والقصص ، ولكن الأحكام هي التي تتغير ، فكان إعلان الحوارين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقًا على رسالة عيسى وبما جاء به عيسى عليه السلام هو إيمان كامل .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ [المائدة : ١١٠] .

وفي هذه الآية الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منها تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيدًا ؛ لأنها جرت عليه ، ولكنه تقرير لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، إن النعمة أجراها الله على عيسى وأيده الله بما يزكى رسالته إلى قومه ، فكأنها كانت نعمة أولاً عليه ؛ لأنه مصطفى مختار مؤيد ، وهذا الذكر للنعمة تقرير لمن رآها وعرف أنها كفيلة بأن تثبت صدق عيسى في بلاغه عن ربه ولم يؤمن .

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين :

قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية .

وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله .

إن ذلك خرق لنا موس المادة ؛ لذلك أكد الحق القول فى أكثر من موضع بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى عليه السلام لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له ، بل انحصر الأمر فى هذه المسائل فقط ؛ ولذلك نجد أن كل خرق لنا موس الغيب عند الأنبياء ، هذا الخرق إنما لتأييد النبى .
وعلىنا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة منه سبحانه على شىء جزئى ، فالحق سبحانه وتعالى هو مالك علم الغيب وحده : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

والحق يسرى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام بذكر هذه الآيات ، لكن الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا : إنها سحر . إن المبلغ عن الله لا يخشى إلا الله وهو يحب أن يؤمن معه كل الناس إلا أنهم جحدوا بها وكفروا وقالوا كما قص الحق سبحانه وتعالى فى القرآن : ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِرٌ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

إن الحق سبحانه خلق الخلق ، وجعل الإيمان أمراً فطرياً فىنا ، ثم تأتى الغفلة فتبعد جزئية ، وتأتى غفلة ثانية فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى بهتان ، وفى الحديث الذى رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر ؛ حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الجمل كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منتبهاً وليس فيه شىء - ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد

٤٣١

يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ! ما أعقله ! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنه على دينه ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه وأن اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا» (١) .

لذلك فنحن نجد أن كل داع إلى الله يأتي إنما يريد إقامة منهج الله في الأرض ؛ حتى لا يأتي الران على القلوب ، بسبب الغفلة التي حدثت بالبعد عن منهج الله ، وذلك ما يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم ونجد أن الداعي إلى الله الذي ليس له عدو يصيبه بالسوء هو داع حظه من منهج النبوة بعيد ، وميراثه من النبوة ليس بكثير !! والكافرون بعيى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام .. ماذا قالوا ؟ ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحققتهم ، وملأت مشاعرهم بالخيبة ، لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة ، يدعم بها الحق الداعي إليه ؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التي يؤمن بها .

إذن .. فكلما رأينا داعياً إلى الله يقاومه الناس ويقذفونه بالسباب فهذا دليل على صدق الداعي ، ما دام متمسكاً بما يؤمن به .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢] .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٩٧] ، ومسلم [٢٣٠/١٤٣] واللفظ له .

والألف والبدال - والمائدة تميد أى تطرب من كثرة ما عليها من أشياء أو هى تعطى مما عليها من أشياء ، وصارت هذه المائدة عيداً أى يوماً يحب الناس أن يعود عليهم مثله ؛ لأنهم يسرون به ، فالعيد هو ما يعيد علينا بالخير وبما يسر ، وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .
وتساءلوا : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون !؟

وقال العلماء أيضاً : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ ، واستعمالات الألفاظ ، وسمات الألفاظ وكلمة : ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ تطلق ويراد منها الاستجابة وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله لإرسال مائدة لنا من السماء ؟ « واستطاعة » تقابل « استجابة » .

إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء وهو الذى يخضع لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب إنما يأمر : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

فكأن الحق عندما يقول : ﴿ كُنْ ﴾ فهو قد طلب من الشىء طوعاً أن يكون ، وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالاتى : هل يطلب ربك طوع الكون له !؟ فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون عيداً ، ولنا أن نعلم أن قول الله : ﴿ كُنْ ﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون استعداد الانفعالى أن يطيع على الفور أمر الخالق ؛ وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ ﴾ [الانشقاق] . إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط ، وحين تسمع

بى الله عيسى عليه السلام ٤٣٤

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتي بنون التعظيم فيقول سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وهو سبحانه وتعالى أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] .

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول إن فلانا من الرسل أفضل من فلان (١) ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله ، ولنا في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] الأمر باتباع الرسل .

(١) أخرج البخارى [٣٤١٤] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٧٣] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئا كرهه ، فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبي ﷺ بين أظهرنا ؟ فذهب إليه فقال : أبا القاسم ، إن لى ذمة وعهدا ، فما بال فلان لطم على وجهى ؟ فقال : « لم لطمت وجهه ١٩ » فذكره ، فغضب النبي ﷺ حتى رأى فى وجهه ثم قال : « لا تفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ أخرى فأكون أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » .

أخرجه البخارى [٣٤١٤] واللفظ له . ومسلم [٢٣٧٣] .

نبي الله عيسى عليه السلام

= فهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوا ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَتَأْمَنَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ ﴾ [الصف: ١٤] . يعنى : الطائفة التى كفرت فى زمان عيسى عليه السلام والطائفة التى آمنت فى زمان عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ . بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٥٩١] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبُّهُ لَهُمْ ﴾ وأضاف هذا القول إليهم وذمهم عليه ولم يذكر النصارى شاهدا معهم ؛ بل كان الحواريون خائفين غائبين ، فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهدته اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوا عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقا كثيرا يمتنع توارؤهم على الكذب .

وقال فى موضع آخر : وقوله تعالى : ﴿ ... وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبُّهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَبُلُوهُ يَٰقِينًا ﴿١٢٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النساء] . بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنوا به قبل أن يموت ، وكذلك قوله : ﴿ وَمَطَّهِرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره .

معنى التوفى : ولفظ التوفى فى لغة العرب معناه : الاستيفاء والقبض . وذلك ثلاثة أنواع :

أحدهما : توفى النوم .

والثانى : توفى الموت .

والثالث : توفى الروح والبدن جميعا .

فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس . ويخرج منه الغائط والبول والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو فى السماء الثانية =

نبى الله عيسى عليه السلام ٤٤٠

= إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حالة كحالة أهل الأرض فى الأكل والشرب والنوم والغائط والبول ونحو ذلك .

الوجه الثالث : قولهم أنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغى لهم أن يقولوا على أصلهم : عنى بتوفيته عن توفى الناسوت . وساء قبل : « موته أو توفيته » ، فليس هو شيئا غير الناسوت ، فليس هناك شىء غيره لم يتوقف الله تعالى قال : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، فالتوفى هو المرفوع إلى الله . وقولهم : « إن المرفوع هو اللاهوت » ، مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن ، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى . والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى وكذلك قوله فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هو تكذيب لليهود فى قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ واليهود يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتا فى المسيح ، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصرارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ؛ بل عن اليهود الذين لا يشبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فأثبت رفع الذى قالوا إنهم قتلوه . وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذى نفى عنه القتل وهو الذى رفع ، والنصرارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام فى القبر إما يوما وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم فى شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل ، إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصرارى يقولون : إنه صلب ، فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود . وكان قد شبه عليهم المسيح بغيره كما دل عليه القرآن ، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم =

٤٤١ نبي الله عيسى عليه السلام



= بعض الناس : أنا أعرفه ، فعرفوه . وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علماً ؛ بل ظناً قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ مُتَوَفِّيكَ وَإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : « إني رافعك إلى » وكذلك قوله : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه . وإذا قالوا : « هو الكلمة » فهم مع ذلك أنه إله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ونحوهما مما هو كلام الله الذي قال فيه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين . ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح فإن قوله : ﴿ كُنْتُ أَنْتَ ﴾ يدل على الحصر ، كقوله : ﴿ إِنْ كَانَتْ هَٰذِهِ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٣٢] ونحو ذلك . فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيباً على أتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم ، المحصى أعمالهم ، والمجازى عليها ، والمسيح ليس برقيب ، فلا يطلع على أعمالهم ولا يحصيها ، ولا يجازيهم بها .

التفسير الكبير [٤/١٨٢:١٨٧] بتصرف .

نبي الله عيسى عليه السلام ۴۴۲

إذن .. ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ تعنى مرة تمام الشيء ، كاستيفاء المال وتعنى مرة النوم ، أى إنه سبحانه يريد أن يقول أريدك تمامًا ، أى أن خلقى لا يقدر أن على هدم بنيتك « أى قتلك » لأنى طالبك إلى تمامًا .. ومعنى « تمامًا » أى أن الروح فى جسدك بكل مواصفاته .

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إن الواو لا تقتضى ترتيب الأحداث .. فعلى فرض أنك قد أخذت متوفيك أى ميمتك فهل معناه أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه ؟ لا . إذن .. لماذا جاءت متوفيك أولاً ؟

نقول لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة له من الموت ولكن عيسى سيموت قطعاً ، فالموت ضرب الازب ، ومسألة يمر بها كل البشر .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » (١) . وكذلك قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » (٢) .

بعض الناس يشككون فى نزول عيسى مرة أخرى . نقول لهم : أقبلتم فى بداية عيسى أن يولد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إن الذى جعلكم تقبلون العجبية الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجبية الثانية .

(١) أخرجه البخارى [٢٢٢٢] ، ومسلم [٢٤٢/١٥٥] ، والترمذى [٢٢٣٣] .

(٢) أخرجه مسلم [٢٤٦/١٥٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : ١٥٧] .

إن أكثر ما يدهش في هذا القول هو كلمة ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ فهل هي هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ولو قالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ﴾ فقط لكان الجرم أقل وطأة ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه فهذا جرم صعب للغاية .

أو أن كلمة : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ هنا ليست من مقولهم الحقيقي وإنما من مقولهم التهكمي وأضرب مثلا لأوضح هذا الأمر .. كأن يأتي شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتي له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن .. قد يكون قولهم : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ هو من قبيل التهكم أو أن هذه الكلمة هي من قول الله سبحانه مضافا إلى قولهم ليشع عملهم ولأنه رسول الله على رغم أنوفهم .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ وكلمة ﴿ صَلَبُوهُ ﴾ هنا هي لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعو ذلك ويعنونونه للناس وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب .. فقد قتلوا شخصا شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب ، ويقطع الله عليهم هذا الأمر فيقول : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وكلمة ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ هذه هي دليل على هوج المحاولة للقتل فقد ألقى شبهه على

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٤٥

الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتقطت ملكة التوبة فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول أنا عيسى ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم أيكم عيسى إلا وهو عيسى بالفعل لأن مشهد المتربصين يوحى أنهم سيقتلون عيسى .. وقتلوه دون تثبت .
وأن واحدًا باع عيسى لقاء ثلاثين دينارًا وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ولم يظفروا بعيسى .

ونحن كمسلمين لا نهتم اهتمامًا كبيرًا بتلك الروايات ، فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى وصلبناه ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ويدلنا على عدم تثبت القتلة من شخصية القاتل وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه حيث يمكن أن تختلط الأمور .
وإننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولًا فإن صدقناها أمنا لا نحن نؤمن أولًا بمنزل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه وهو سبحانه قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إذن .. فحين قال بنوا إسرائيل أنهم قتلوا عيسى كذبهم الحق وقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ويوضح الحق سبحانه أنهم لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى لكنهم شكوا فيمن قُتل فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو « تطيانوس » أو « سرخس » ؟ والحق سبحانه هنا بنسبتين متقابلتين ، النسبة الأولى : هى الشك ، وهى نسبة يتساوى فيها الأمران ، والنسبة الثانية : هى اتباعهم للظن وهى نسبة راجحة لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكًا ثم انقلب ظنًا .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٤٧

وينهى الحق وذلك بعلم يقينى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقينا ، واليقين هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفوا إلى الذهن ليناقدش من جديد أو يتغير .

والأصل فى ذلك أن رهطا من اليهود سبوا عيسى وأمه عليهما السلام فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير فأجمعوا على قتله فأخبره الله بأنه رافعه إلى السماء .

ثم تسلطوا على أصحاب عيسى بالقتل والصلب والحبس حتى بلغ أمرهم إلى صاحب الروم فقبل إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب عيسى بعد أن قتلوه وصلبوه فأرسل إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذى صلب عليه فعظمه صاحب الروم وجعلوا منه صلباناً فمن ثم عظم النصارى الصلبان ، ولذلك أخبر النبى ﷺ أن عيسى سينزل فى آخر الزمان ويكسر الصليب إبطالاً لما يدعونه من تعظيمه وإبطال دين النصارى .

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ، الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق ، كان الواجب عليهم أن يعترضوا على مسألة الصلب هذه ، فكيف يقولون بألوهية أو بينوة ألوهية ثم يجيء أعداؤه فيقدرون عليه ويقتلوه ويصلبونه ؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مقدر عليه ، إنه بذلك يكون بشراً يقدر عليه غيره من البشر .

إذن .. فعندما يأتى الإسلام ويبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة . فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب ، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول الله عز وجل فى هذه القضية : ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ ﴾ ليؤمنوا به .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

 ٤٤٨

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين : ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾
فالنصارى الذين زعموا التبعية لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع ، ولكن بعد
الصلب ، ونحن - المسلمين - نقول بالرفع ولا نقول بالصلب ؛ ﴿ بَلْ رَفَعَهُ
اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ .

والذين يقفون عند هذه المسألة يجب عليهم ألا يقفوا ؛ لأن قصة عيسى
عليه السلام بدأها الله بمعجزة ، وهى أنه ولد من أم دون أب ، فإن كنتم قد
صدقتم بالمعجزة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدقون بها فى مسألة الرفع !؟
وإذا كان فىنا نحن المسلمين من يقول : إن عيسى عليه السلام مات ولن
ينزل .

نقول لهؤلاء : ماذا تقولون فى نبيكم محمد ﷺ ؟ أخرج به إلى السماء ؟
سيقول المسلمون : نعم .

ونقول لهم : ألم يكن رسول الله ﷺ حيا بقانون الأحياء ؟
سيقولون : نعم كان حيا بقانون الأحياء .

ونقول : وظل رسول الله ﷺ مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا .
إذن .. فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى
السماء وهو حى وما يزال حيا ، ثم ينزل إلى الأرض ، هذه المسألة
ليست عجيبة والخلاف بين رفع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ
بالمعراج ، هو خلاف فى المدة ، ولنا أن نعرف أن الخلاف فى المدة
لا يقتضى خلافاً .

المهم أن صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٤٩

إذن .. مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية (١) .

ويقول الحق في هذه المسألة تأكيداً لهذه القضية ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : ١٥٩] .

قد يقول السامع لهذه الآية : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ونقول : لا .. لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم وليس الإيمان المراد لله ، لقد آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله ، ولكن الله يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد ، فإذا قال الحق : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] .

(١) قال أبو حيان الأندلسي : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هذا إبطال لما ادعوه من قتله وصلبه ، وهو حى فى السماء الثانية على ما صح عن الرسول ﷺ فى حديث المعراج (١) . وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله ؛ ليقتل الدجال ويملا الأرض عدلاً كما ملكت جوراً ، ويحيا فيها أربعين سنة ، ثم يموت كما تموت البشر .
البحر المحيط [١٢٨/٤] .

(١) وهو حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن مالك بن صعصعة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى حديث الإسراء والمعراج : « ... فأتينا السماء الثانية ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ، قال : محمد ﷺ ، قيل : أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المحجىء جاء . فأتيت على عيسى ويحيى ، فقالا : مرحباً بك من أخ ونبى ... » .

أخرجه البخارى [٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧] واللفظ له ، ومسلم [١٦٤] ،
وأحمد فى المسند [٢٠٧/٤، ٢٠٨] .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

إن هذا القول معناه : ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

وقلنا فى اختلاف الضمائر : إن « الهاء » الموجودة فى قوله : ﴿ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ يرجع هذا الضمير إلى عيسى . فسوف يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب بمراد الله كعبد بشر ورسول ، والضمير الآخر الموجود ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يرجع إما إلى عيسى أى قبل موت عيسى ، أى إن عيسى لم يميت الميته الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولا يؤمنون به إلا إذا جاء بلحمه ودمه ، ويقول لهم : أنتم مخطئون فيما أعتقدتم ، وأنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد النبى الخاتم ﷺ .

وأنتم مخطئون فى أتهامكم لأمى ، والدليل على خطفكم هو أننى جئت لأدعوكم للإيمان بالرسول الخاتم محمد ﷺ وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

وذلك يدل على أن عيسى عليه السلام لن يأتى بتشريع جديد ؛ بل إنه ساعة نزوله سيجد الصلاة قائمة فيصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد ابن عبد الله ﷺ حين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ماذا سيقول إذن الذين فتنوا ؟ لا شك أنهم يعلنون الإيمان برسالة محمد ﷺ ، وأن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلمن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد ، قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية . إن الآية يصح أن تكون عامة ؛ فالحق قال فيها : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٥١

إن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤمن بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتاى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ . إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نزوله فى الدنيا (١) وسيرونه يصلى خلف واحد من أمة محمد ﷺ (٢) ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذى قالوا إنه إله أو ابن إله ، يحدث

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده [٦٢٥٧] عن سعيد عن قتادة قوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يقول : يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالات ربه وأقر بالعبودية على نفسه .

ومنه قول الله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَبَعَثَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النحل : ٨٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : ٨٩] .
وقوله عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى : بتكذيب من كذبه ، وتصديق من صدقه .

تفسير القرطبى [١٢/٦] .

(٢) عن أبى الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة .

قال : فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم : تعال صل لنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء . تكرمه الله هذه الأمة .

أخرجه مسلم [١٥٦] .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٥٣

ذلك فى موقف مهيب يوم يجمع الله الناس للحساب ويستدعى عيسى عليه السلام للشهادة على قومه فىسأله : ﴿ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

سؤال واضح صريح محدد وعلى رأس كل الخلائق فى حضور أنبياء الله وملائكته .. فماذا يكون جواب نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتخذه وأمه إلهين مع الله .
قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨١ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٢ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٨٣ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٨٤ ﴾ (١) [مريم] .

(١) قال ابن كثير : لما قرر تعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا فقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أى فى قولكم هذا ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك : .أى عظيمًا ، ويقال إذا بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضًا ثلاث لغات أشهرها الأولى .
وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٢ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٨٣ ﴾ أى : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بنى آدم إعظامًا للرب وإجلالًا لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيدِه وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفاء له بل هو الأحد الصمد :

= وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٥٤

الذين قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام ، فما الذى زاد فى ملك الله بعد أن جاء الولد ؟ الشمس هى الشمس والنجوم هى النجوم ، والأرض هى الأرض ، والهواء هو الهواء . فالذى نظم هذا الكون منذ بدء الخليقة لا يحتاج إلى ولد يساعده فى هذا الأمر . إذن ... فموضوعية اتخاذ الولد عبث ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد ، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى ... ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة ، تعالى الله عن ذلك ، لأن الصفات الكمالية لله قبل أن يخلق أى شىء ، فهو خالق قبل أن يخلق ورازق قبل أن يرزق ، ومحى قبل أن يحيى ومميت قبل أن يوجد من يموت فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها ، فصفات الله أزلية .

قال تعالى فى سورة الكهف ردًا على افتراءهم : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ ^(١) [الكهف : ٥] .

وهنا قال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝ ﴾ [مريم] .

= وقوله : ﴿ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفاء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له .

تفسير ابن كثير [٣/١٣٥، ١٣٦] بتصرف .

(١) أخرج البخارى [٤٩٧٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقلوه : لن يعيدنى كما بدأتى : وليس أول الخلق بأهون على من أعادته ، وأما شتمه إياى فقلوه : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفواً أحد » .

٤٥٥ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾ أى : فظيماً ومنكراً ومستبشعاً وما دام شيئاً منكراً فلا ينكره المكلفون من الإنس والجن فقط ولكن تنكره الأشياء التى لم تكلف من الجبال والسموات وغيرها ، ولذلك يقولون هذا أمر تهتز له السموات السبع .

ومعنى قوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْهُ ﴾ أى تشقق وتنفطر ولكنها لم تنفطر ؛ لأن الله تعالى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، فالحيثية فى انفطار السماء وانشقاق الأرض وخر الجبال : أنهم دعوا للرحمن ولدا ، ورد الحق سبحانه وتعالى على هذا الزعم بقوله : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

هذا شىء اسمه نفى الحديث وشفىء اسمه نفى ابتغاء الحديث ، فمعنى ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ . أى : أنه سبحانه لو أراد اتخاذ الولد فلن يمنعه أحد ، ولكنه لم يفعل ولم يرد ، وأنكر ذلك على من زعموه كذباً وزوراً فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أراد الله كان ، ولكن لا ينبغى له أن يتخذ ولداً ، لماذا ؟ لأن الولد حتى ولو كان ولداً باراً وطائعاً ، فالله تعالى غير محتاج له ؛ لأن الكل عبده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه ؛ لأنه قادر عليهم جميعاً ، فهم فى قبضته ورهن مشيئته .

ثم قال تعالى تأكيداً لذلك : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

فكل المخلوقات عابدة لله ، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد لله لأن الإنسان فيه منطقة اختيار ، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل

ولكن أيضًا هناك منطقة قسر ، فالكافر بما أعطاه الله من صفة الاختيار أن يكون طائعًا أو عاصيًا ، مؤمنًا أو كافرًا ، هذا الكافر اعتاد أن يخالف أوامر الله في الأمور التي وضع له فيها اختيار ، فهذا الكافر الذي اعتاد على المخالفة والتمرد على الإيمان ، لماذا لا يتمرد على المرض فلا يمرض ؟ ولماذا لا يتمرد على الموت فلا يموت ؟! وإذا افتقر لماذا لا يتمرد على الفقر ويرفضه ؟!

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .
هذا تنزيه لله عن أن يكون له ولد ، فالحق سبحانه يقول : ليس لله ولد بل عباد مكرمون ، ومع أنهم مكرمون إلا أنهم لا يسبقونه بالقول ويطيعون أمر ربهم فلا يعملون شيئًا لم يأمرهم به ، فهم طوع أمره .

إذن .. آفة المجتمعات أن عظماءها يسبقون بالقول ، ويعملون بأوامرهم لا بأمر الله !! وهم على خطر عظيم .

لقد خلق الله الليل مكملًا للنهار ، والذكر للأنثى ، فإذا كان الله قد خلق التكامل في المخلوقات فكيف يحاول بعض الناس أن ينفوا الكمال عن الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس : ٦٨] ، الادعاء بأن لله سبحانه وتعالى ولدا نقصان في كمال الله جل جلاله ، ذلك أن الإنسان يتخذ الولد لعدة أشياء : إما ليكمل نقص الوجود ؛ لأن عمره في الدنيا محدود ، ولذلك يريد أن تبقى ذكراه في الدنيا ، والله سبحانه وتعالى له كمال الوجود ؛ فهو الأول والآخر بلا نهاية ، فلم يتخذ ولداً وهو أصل الوجود ، وله كمال الوجود سبحانه وتعالى ؟! وإما أن يتخذ الإنسان ولداً ليرثه فهو لا يريد أن يذهب ماله للآخرين ، إنما يريد امتداد ما يملك إلى ابنه .

٤٥٧ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

والإنسان يحتاج إلى ولد يعطيه العزة والقوة ، وهو فى شبابه قوة بذاته وفى شيخوخته ضعيف بذاته قوى بأولاده ، ولذلك فهو يريد الولد ؛ ليكون له قوة عندما يضعف . والله سبحانه وتعالى هو القوى دائماً الذى لا يضعف أبداً ، وهو جل جلاله دائم القوة ، ولذلك فهو لا يحتاج إلى ولد .

إذن .. فكل الأسباب التى تجعل الإنسان يريد ولداً هى لاستكمال نقص : نقص فى العمر ؛ لأن الإنسان عمره محدود ، ونقص فى الملك ؛ لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجاً إلى من يعينه ويدافع عنه ، والله سبحانه وتعالى له الكمال كله منزه عن هذا النقص .

ثم كيف يتخذ الله ولداً ؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق الله ، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابناً ولكنه يصبح إلهاً ؛ لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه ، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد ، وأما أن يأتى الولد عن طريق أنثى ، إذن فهو ليس محتاجاً إلى أنثى ليخلق ولداً ؛ لأن طلاقة قدرته جل جلاله أوجدت آدم بدون ذكر أو أنثى وأوجدت حواء بدون أنثى . والأسباب مخلوقة لله سبحانه وتعالى ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هى التى تحكمها ، فكيف نأتى ونجعل الأسباب تحكم خالقها ؟ وكيف نأتى إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى أنه يفعل ما يشاء ، وأنه يقول للشيء كن فيكون ، ثم نقيده طلاقة القدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتى الولد ، فكأننا ننقص من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى كونه .

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها فهى من خلق الله سبحانه وتعالى ، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله ، وبذلك

يكون عندنا ثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد ؛ وهنا يفسد الكون ؛ لأن كل إله أمر ، وكل إله له خلق ، وكل إله يريد أن يعلو على الآخر فتكون النتيجة كارثة (١) .
 ومرة قالوا : إن الله قد اتخذ ولدًا من الأنبياء ، وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَلِّهِنَّ اللَّهُ آفَ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

والآية الكريمة : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (٢) ترد عليهم ؛ لأنهم عندما قالوا ذلك فمعناه أن الولد قد جاء بعد أن وجدت ألوهية مستقلة لله سبحانه وتعالى ، وبهذه الألوهية أخذ الولد ، وأول أسباب الحاجة ، فعندما تقول : فلان اتخذ بيتًا ؛ فإنه محتاج إلى بيت ، ومعنى اتخاذ الإنسان لشيء : أنه محتاج له ليكمل نقصًا فيه فما هي حاجة الله سبحانه وتعالى إلى الولد ؟ وله الكمال المطلق في الكون كله .

ولذلك يأتي قول الحق جل جلاله : ﴿ سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس : ٦٨] .

(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون ٩١] .

(٢) قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ هذا إخبار عن النصارى في قولهم : المسيح ابن الله . وقيل عن اليهود في قولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ، وقيل عن كفرة العرب في قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار في « مريم » و « الأنبياء » .

٤٥٩ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق لنفسه نفعًا أيضًا ؛ بالأ يتعب نفسه في شيء . إذن ... فكلاهما يريد نفعًا والذي تعب واستيقظ مبكرًا لم ينظر إلى النفع السريع ، ولكنه نظر إلى النفع المستقبلي بعد خمس أو ست سنوات يصبح إنسانًا له كيان في المجتمع ، والذي نام كما يشتهي فلم يستيقظ مبكرًا ، وأمضى يومه يتسكع ؛ نظرًا إلى النفع العاجل فلم يتعب ، ولكنه أصبح صعلوكًا في المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فيقول : ﴿ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾

إذن ... فالذي حملهم على هذا الافتراء أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطاتهم وبسيادتهم في الحياة الدنيا ، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى متاع فقط بل ﴿ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ [يونس : ٧٠] وحدها ، وما دام المتاع في الدنيا محدود القدرات ، فهم قد اختاروا عدم الفلاح ؛ لأنهم اشترى الدنيا بمتاعها المحدود القليل ، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدى ، الذي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^(١) .

والذين يفترون على الله الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يومًا للبعث يحاسبون فيه ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم هي أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع في هذه الحياة الدنيا ، وبكل الوسائل ؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شيء بعد ذلك ، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ويخبرهم بالحقيقة : ﴿ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس : ٧٠] .

(١) أخرج البخاري [٧٤٩٨] ، ومسلم [٢٨٢٤] . عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٦١

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَلْ لَمْ يَلِدْ فِي السَّمٰوٰتِ
وَالْاَرْضِ كُلِّ لَمْ يَلِدْ قَدِيْنُوْنَ ﴾ [البقرة : ١١٦] .

إن من ضعف البصيرة أن تتخيل أن الخلاق له ابن ، وقد بين الحق هذه
القضية فى سورة الكهف حين قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِىۥۤ اَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِۦ الْكِتٰبَ
وَلَمْ يَجْعَلْ لَّمْ عِوَجًا ۝۱ قِيَمًا يَتَّبِعُونَۙ اَسَآءًا شَدِيْدًا مِّنۡ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ
الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصّٰلِحٰتِ اَنَّ لَهُمْ اَجْرًا حَسَنًا ۝۲ مَّكِيْنٍ فِيْهِ اَبَدًا ۝۳
وَيُنذِرُ الَّذِيْنَ قَالُوْا اَخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا ۝۴ مَا لَهُمْ بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَّلَا لِاٰبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ اَفْوَاهِهِمْۙ اِنْ يَقُوْلُوْنَ اِلَّا كَذِبًا ۝۵ ﴾ [الكهف] .
إن الحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون له ولد ، إنه منزه عن ذلك ،
وكانت البداية هى أن المشركين من كفار مكة قد توهموا أن الملائكة
بنات الله ، ومضوا يتصورون ذلك ، وكان ذلك قمة الشرك بالله ؛ لأن الحق
سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بنات .

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال فى التصور من بعض اليهود فقالوا
ما بينه لنا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ وَقَالَتِ النَّصٰرَى
الْمَسِيْحُ ابْنُ اللّٰهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِاَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُوْنَ قَوْلَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ
قَبْلُ قَتَلُوْهُمُ اللّٰهُ اَنْفٌ يُّوَفَّكُوْنَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

وعزير هو كاهن من نسل هارون ، وكان يكتب التوراة وعندما تصور اليهود
أنه ابن الله خرجوا عن الوحدانية لله جل وعلا ، وابتدع البعض من أتباع
المسيح أيضًا تصورًا بأن المسيح ابن الله ، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول
ولا حجة عليه ولا برهان ، فكيف يقع فى ذلك أهل الكتاب الذين أنزلت
إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا !؟ إن قول
الحق عن ذاته : ﴿ سُبْحٰنَهُۥٓ ﴾ تعنى التنزيه المطلق عن ذلك ، فقال جل وعلا
رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

في كتابه الكريم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٧﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَفَنَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخِرُّ الْجِبَالَ هَدًّا ﴿٨٨﴾ ﴾ [مريم] .

إن المشركين واليهود والنصارى قد وقعوا في ضلال التصور أن لله أبناء من الملائكة أو البشر ، وذلك قول شديد منكر تكاد الجبال تسقط قطعاً مفتتة منه وتكاد الأرض تنخسف ، وتكاد السموات يتشققن منه ، كأن المخلوقات التي لا تملك قدرة التفكير كالإنسان تكاد تنهار من فرط الإنكار لمثل ذلك القول . إن ضلال ذلك التصور تسلل من عجز الفهم عن طلاقة قدرة الحق عندما يقول للشئ: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ إن المسيح كلمة من الله هي ﴿ كُنْ ﴾ فكان مثلما خلق آدم عليه السلام ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] إن شأن عيسى عليه السلام مثلما أوضح الحق كيف خلق آدم ، وكان الأجدر أن يفتن الناس بخلق آدم عليه السلام ؛ لأن عنصر الأبوة والأمومة في إيجادهم ممتنع ، أما عيسى عليه السلام فعنصر الأبوة وحده الممتنع وبذلك يعلم الحق جل وعلا رسوله الله محمدًا لو كان لله ولد لكان الرسول أول العابدين له فيقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١] .

إن الحق يعلم رسوله أن يبلغ المشركين إنه لو صح بالبرهان أن للرحمن ولداً لكان الرسول أول العابدين لهذا الولد ، لكن البرهان لا يستقيم ؛ فكيف يكون لله الخالق الباريء على غير مثال سابق ، الذي ليس كمثل شئ ،

الباقي سبحانه الذي لا نهاية لوجوده - ولد من البشر !؟

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١] .

٤٦٣ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

فكان عدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى ، ولدًا نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها (١) لأن سبحانه لو كان له ولد - وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - فخصه بالرعاية وترك بقية الخلق ، فكان الحق يقول أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء ، فالخلق كله سواسية عند الله ، وهذه نعمة للخلق جميعًا ، لأن رحمة الله وحنانه سيكونان لنا جميعًا ؛ كما أن اتخاذ الولد يجعل الوالد مذكورًا بعد موته ، والله تعالى منزّه عن الموت ، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب الذرية ، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده ؛ لأنه سيخلفه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضًا ، ولأن الأبناء عزوة وقوة وزينة الحياة الدنيا لكن الله هو القهار ، وهو الجبار ، وهو القوى ، فهو سبحانه منزّه عن الصحابة والولد . وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن الفساد يأتى إما من الصحابة ، وإما من الولد ، كذلك لو كان لله شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه ؟ ومن الذى تعبده ؟ وكيف يسير الكون ؟ إنها عملية غير مقبولة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر : ٢٩] .

فهذا عبد مملوك لعدد من الأسياد المختلفين ، لهذا يأمره أحدهم بشيء والآخر يأمره بعكسه فلا بد أنه سيتعب جدًا ، ولكن العبد الآخر له سيد واحد

(١) عن يعلى العامرى أنه جاء حسن وحسين رضى الله تعالى عنهما يستبقان إلى رسول الله ﷺ وضمهما إليه ، وقال : « إن الولد مبخله مجبته ... » الحديث .

رواه أحمد فى المسند [١٧٢/٤] ، وابن ماجه [٣٦٦٦] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٩٥٧] ، وأخرجه الحاكم فى المستدرک [١٦٤/٣] وزاد : « محزنه » . وصححه ، وواقفه الذهبى .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٦٤

قد يقول قائل : لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ للإجابة عن ذلك علينا أن نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .
فيجب أن نعرف أن لكل حدث زمانًا ومكانًا ، وزمان هذا الحدث يوم القيامة ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر .

والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام فى أى موضع فإنه ينسبه لأمه : ﴿ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائمًا على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله ، فيريد أن يعلمه من المستؤل ، كقول القائل : أقابلك فلانًا أمس ؟ وإما ليقر المستؤل بما يعلمه السائل . ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ ليقر بما يعلمه .

وكذلك يكون سؤال الله لعيسى عليه السلام . إنه لتقرير من قالوا عن عيسى عليه السلام ما لم يبلغهم إياه . إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم أن يتخذوه هو وأمّه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام إنما بلغ ما أوحى له به ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى عليه السلام ردًا على هذه الافتراءات من الأتباع : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ .
وحين نسمع ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ لنعرف أنها إجمال التنزيه لله عز وجل وخالقه وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه . إنه عليه السلام يعلم أن الرسول المصطفى من الله سبحانه ليس له أن يقول : إنه إله ، وفى هذا القول تقرير لمن ادعى على عيسى عليه السلام مثل هذا القول ورد عيسى عليه السلام على ذلك بقضيه متفق عليها فقال لربه : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

إن الكل متفق على أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما بدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال والكل يعلم تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخفى عليه شيء والكل يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعلم خفايا الصدور ؛ يخبرنا عيسى عليه السلام بذلك : ﴿ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] .
 إن عيسى عليه السلام يقرر أن الحق سبحانه وتعالى العليم بكل شيء يعرف أن ذلك لم يخطر له على بال . وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية :

الصورة الأولى : تنزيه عيسى عليه السلام لربه عز وجل : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] .

الصورة الثانية : هي قول عيسى لربه : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ .

الصورة الثالثة : هي قوله لربه : ﴿ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾

إذن ... فلا شيء من جانب عيسى عليه السلام ولم يقل ذلك ، وإنما هو تقرير من الله عز وجل لمن قالوا في عيسى عليه السلام وأمه غير الحق ، ويختم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله : ﴿ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴾ وكلمة ﴿ عَلَّمْتَ ﴾ هي مبالغة في ذات الحدث ، ومبالغة في تكرار الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه يعلم كل ما كان وما يكون سبحانه لأن الكون كله ملك له (١) .

(١) قال القاسمي في قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ استئناف مقرر لدعم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهاني ؛ فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعاً ، فحيث التقى علمه تعالى ، التقى صدوره عنه حتماً ، ضرورة ، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم . قاله أبو السعود . =

٤٦٧ **=====** رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

ويقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] .
 إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره الله ببلاغه ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله كرب له ورب لهم جميعًا ، وعيسى شاهد عليهم في تصرفاتهم وهو موجود بينهم ، والشهيد كما نعلم هو الذي يشهد السلوك ولا يقدر أن يمنع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه .

وبعد أن يتوفاه الله يكون الحق سبحانه وتعالى وهو الرقيب عليهم ، والرقيب الشاهد الذي يقدر أن يمنع الحدث ، والحق رقيب ويقدر أن يمنع الناس عما ارتكبوا من المخالفات ، كأن يبعث لهم من يذكرهم ، ليهديهم أو يكف أيديهم ، وهكذا نعرف أن هناك فرقًا بين مشهدية الخلق ورقابة الحق ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

= ﴿ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي . فكيف بما أعلنه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ بيان للواقع ، وإظهار لقصوره ، أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .
 تفسير القاسمي [٢٢٢٢/٦] .

(١) قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ يعنى فى الدنيا بالتوحيد . ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ « أن » لا موضع لها من الإعراب وهى مفسرة مثل : ﴿ وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا ﴾ [ص : ٦] .
 =

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط ، ولكن لرقابته أيضا ، ويؤكد ذلك بتذييل الآية ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

إن الحق الذي يشهد يقدر أن يفعل ما يريد ، ومسألة الرفع كما نعلم هي الأخذ كاملاً دون نقص في البنية بالقتل أو الموت . ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السماوات وعاد

= ويجوز أن تكون في موضع نصب ، أى ما ذكرت لهم إلا عبادة الله ، ويجوز أن تكون في موضع خفض ؛ أى بأن اعبدوا الله ؛ وضم النون أولى ؛ لأنهم يستقلون كسرة بعدها ضمة ، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى حفيظاً بما أمرتهم ﴿ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وقت دوامى فيهم ، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه ؛ وليس بشيء ؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه ، وأنه فى السماء حى ، وأنه ينزل ويقتل الدجال وإنما المعنى فلما رفعتنى إلى السماء .

قال الحسن : الوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه :

وفاة الموت : وذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] .
يعنى وقت انقضاء أجلها .

ووفاة النوم : قال تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ لِئِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : ٥٥] وقوله : ﴿ كُنْتُ أَنْتَ ﴾ أنت هنا توكيد ﴿ الرَّقِيبَ ﴾ خير ﴿ كُنْتُ ﴾ ومعناه الحافظ عليهم ، والعالم بهم والشاهد على أفعالهم ؛ وأصله المراقبة أى المراجعة ؛ ومنه المراقبة لأنها فى موضع الرقيب من علو المكان ، ﴿ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى من مقاتلى ومقاتلهم . وقيل : على من عصى وأطاع .

تفسير القرطبي [٣٧٦/٦، ٣٧٧] .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٦٩

إذن .. فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم ، ويقال أيضًا عن الدين :
توفيت ديني عند فلان : أى اخذت ديني كاملاً غير منقوص ، وكذلك أمر
قتل المسيح قال فيه الحق تعالى القول الفصل : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن
شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ .

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضًا ، فقد قال الحق : ﴿ أَفَأَيْنِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ .
إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث
إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا : ﴿ قَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أى أخذتنى كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة تنقض الرفع ، ونعلم
أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم
المشهد الأعظم . وعيسى ابن مريم عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد
شاهد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فإن
الرقابة على القوم تكون لله . ولقد قسم المسألة بينه وبين ربه فالحق سبحانه
شاهد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله
القادر وحده على أن يشهد ويغير فسبحانه الذى يغير ولا يتغير .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٥] .

لقد نقضوا كل المواثيق ، ونقض الميثاق هو حله ؛ لقد كفروا بآيات الله وقتلوا
أنبياء الله بغير حق ، وادعوا أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية .
إذن ... قدم الحق سبحانه وتعالى حيثيات ، وهذه الحيثيات هى :
أولاً : نقضوا الميثاق ، وذلك يستوجب ما يتوعدهم الله به .

٤٧١ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

ثانيا : كفروا بآيات الله التي أنزلها ؛ لتؤيد موسى .

ثالثا : قتلوا الأنبياء بغير حق .

وقالوا تعليلا : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ؛ أى قلوبهم مغلقة ، ومعنى ذلك أنها قلوب مختوم عليها ختم كالغلاف بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارج منها ، إنهم بذلك يريدون الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ، ولا يدخل فيها إيمان .

نقول لهم : هل القلوب خلقت غلفاً ، أو خلقت مختوماً عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ؟ إن الحق سبحانه الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ؛ فالتختم على القلب حتى لا يتعرف على الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد والتختم على السمع والبصر هو التختم على آلات إدراك الدلائل البيئات على وجود الحق سبحانه ، فمقر العقائد مختوم عليه ، وهو القلب ، وضربت غشاوة على الآذان وعلى البصر ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ، لأنه كان هذا بطبيعة التكوين ، فلماذا خصهم الله بذلك التكوين دون غيرهم ؟ والذين أهدوا لم يكن مختوماً لا على قلوبهم ، ولا على أسماعهم ؛ ولا على أبصارهم . لماذا ؟ وللرد على هؤلاء نقول : إن الواحد منهم يريد أن يبرر انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول بأن الله خلقه هكذا ؛ ولكن هذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن الواحد منهم إنما يكفر أولاً فلما كفر ، وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ، لماذا ؟ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً تركه الله وشركه (١) .

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى ، تركته وشريكه » .

أخرجه مسلم [٤٦/٢٩٨٥] واللفظ له ، وابن ماجه [٤٢٠٢] .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

إذن .. الختم جاء كنتيجة للكفر والآياتان قدمتا الحيثية ، وهي أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتي الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

إذن ... فالكفر هو الذى أتى أولاً ، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول : إن الله لا يهدينى ، هو أن الله لا يهدى من كفر به ، فإن كفر الإنسان مانع لهديته .

وبعد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم يقول تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] .

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان^(١) على مريم وبين كل الأفعال السابقة لماذا ؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نبي من أولى العزم من الرسل إنه نبي خصه الله بأشياء ، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذى خلقه الله خلقاً خاصاً ، فالله

(١) قال ابن كثير : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أنهم رموها بالزنا ، وكذلك قال السدى وجوير ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية ، وقد حملت بولدها من ذلك .

ابن كثير [٥٤٣/١] .

وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول ، فقد اغتبتته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتته » .

أخرجه مسلم [٢٥٨٩/٢٠] ، والنسائى فى الكبرى [١١٥١٨] .

٤٧٣ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه من روحه ، فجاء من غير أصول ، ولا أب ولا أم ، وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام ، بدون أم ، وخلق البشر وجعل نسلهم من سلالة من ماء مهين ، أما عيسى عليه السلام ، فقد خلقه الله ، فجاء من أم بدون أب ، فكيف تكفرون به !!؟ وأيضًا أمه مريم البتول عليهما السلام ، التي عاشت في كفالة نبي الله زكريا عليه السلام وكانت خادمة بيت المقدس ، وتربت تربيته دينية عظيمة ، كيف تتهمونها بالفاحشة !!؟ إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان . إن الحق سبحانه هنا يحدد سبيلين لكفرهم .

الأول : قولهم البهتان على مريم ، وهو كفر بالله .

الثاني : كفرهم بعيسى عليه السلام ، الذي ولد بغير طريقة الميلاد العادية ؛ رغم أن هذا تكريم له ، وتقريع لليهود الذين غرقوا في المادية ، حتى إنهم قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ .

وعندما رزقهم الله برزق غيبي لا يعرفون أسبابه ، كما رزقهم بالمن والسلوى ،

ع نباتًا لينمو من الأرض ولا تنتظر

ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ

، الْأَرْضَ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُؤْمِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ

اَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١] إنهم لا يثقون بما

في يد الله ويريدون الأمر المادى .

لذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفته قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون

المادة من أساسه ، وهو ميلاد عيسى عليه السلام ؛ إن البشر فى مجيئهم المادى

إلى الدنيا يأتى الواحد منهم من أب وأم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى فى خلق

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

عيسى عليه السلام جاء به من أم دون أب ، وبذلك أنتقضت المادية ، ذلك أنهم ماديون ، وغفلوا عن الخلق الأول .

إذن ... فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزة لليهود الماديين ، ونقض أمامهم الأساس التقليدى لمجىء الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم فالله سبحانه وتعالى يثبت بذلك طلاقة القدرة ، الحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر شيئاً فعليهم أن يأخذوا بالأسباب ، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئاً فإنه يكون بلا أسباب فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب .

ولذلك قلنا قديماً : إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء :

إما أن ينشأ الشيء من وجود الشئيين ، هذه هي الصورة الأولى .

وإما أن ينشأ الشيء من غير وجود الشئيين ، وهذه هي الصورة الثانية .

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول ، وعدم وجود الشيء الثانى

وهذه هي الصورة الثالثة .

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثانى وعدم وجود الشيء الأول

وهذه هي الصورة الرابعة .

تلك هي الصور الأربع لوجود شئ ما ، ولم يشأ الله أن يجعل الخلق وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل الكون على نحو واحد ، لماذا ؟ حتى لا يقولن أحد أن السببية مشروطة الوجود ، ولكن لنعرف أن إرادة الله هي الشرط فى الوجود بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ، ولا أم ، وخلقنا نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم ، هذه هي القسمة العقلية الواضحة ،

٤٧٥ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

فليست المسألة توفر الأسباب للوجود ، ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا .
ونحن نرى أيضًا قدرة الحق حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم ،
ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين .

وذلك قول الحق سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٥١﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] .

إذن .. فليست المسألة مدار أسباب توجد ؛ بل مسبب يريد أن يوجد ،
ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ؛ ليلفت بنى
إسرائيل لعلهم يخرجون من ماديتهم ، ويثبت لهم طلاقة قدرته . ولكن اليهود
استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير ما كان يجب عليهم .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٩	نبى الله آدم عليه السلام
١٧	خلق البشرية مع آدم
١٩	جنة آدم
٢٠	التكليف
٢١	غواية الشيطان
٢٣	كفر إبليس
٢٤	مكان جنة آدم
٢٥	توبة آدم
٢٧	مداخل الشيطان
٢٩	قربان لإبنى آدم
٣٠	نبى الله أدريس عليه السلام
٣٢	نبى الله نوح عليه السلام
٤٧	سفينة النجاة
٥٠	الطوفان .. دعوة نوح على قومه
٥٣	لا عاصم من أمر الله
٥٥	بُعْدًا للقوم الظالمين
٥٧	امرأة نوح
٥٨	نحن ذرية من كانوا مع نوح
٦٠	نبى الله هود عليه السلام
٦٧	دعوة هود
٧١	عذاب قوم هود

الصفحة	الموضوع
٧٣	نبي الله صالح عليه السلام
٧٧	ناقصة صالح
٨٢	نبي الله إبراهيم عليه السلام
١٠٠	نبي الله إسماعيل عليه السلام
١٠٣	الذبيح .. هو إسماعيل عليه السلام
١٠٩	نبي الله لوط عليه السلام
١١٧	نبي الله إسحاق عليه السلام
١٢٤	نبي الله شعيب عليه السلام
١٣٦	نبي الله يعقوب عليه السلام
١٤١	أيوب عليه السلام
١٤٥	نبي الله يوسف عليه السلام
١٥٥	الله ينجي يوسف
١٧٥	اعتراف النسوة ببراءة يوسف
١٩٣	نبي الله أيوب عليه السلام
١٩٥	نبي الله ذى الكفل عليه السلام
١٩٧	نبي الله يونس عليه السلام
٢٠٠	نبي الله موسى عليه السلام
٢٩٦	موسى عليه السلام .. وقارون
٣٠٩	نبي الله يوشع عليه السلام
٣٢٣	نبي الله إلياس عليه السلام
٣٢٦	نبي الله حزقييل عليه السلام
٣٣٠	نبي الله اليسع عليه السلام
٣٣١	نبي الله شمويل عليه السلام
٣٣٤	نبي الله إشعيا بن أمصيا

٣٣٦	أرميا بن حلقيا من نسيب لاوى بن يعقوب
٣٣٧	نبي الله دانيال عليه السلام
٣٤١	نبي الله العزيز عليه السلام
٣٤٦	نبي الله داود عليه السلام
٣٥٤	نبي الله سليمان عليه السلام
٣٥٧	فتنة سليمان عليه السلام
٣٦٦	من نعم الله على سليمان عليه السلام
٣٨٢	نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام
٣٩٣	نبي الله عيسى عليه السلام
٤٤٣	رفع عيسى عليه السلام إلى السماء
٤٦٨	الفهرست

رقم الإيداع ٩٩/١٨٢٤١

الترقيم الدولي

I.S.B.N.

977-08-0900-4

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
مَدْرَسَةُ
الْمَدِیْنَةِ
الْمَدِیْنَةِ